جمعها، وقدّم لها،
ونقلها إلى العربية

أديب مصلح

باقاتٌ من حدائق

رابندرانات طاغور

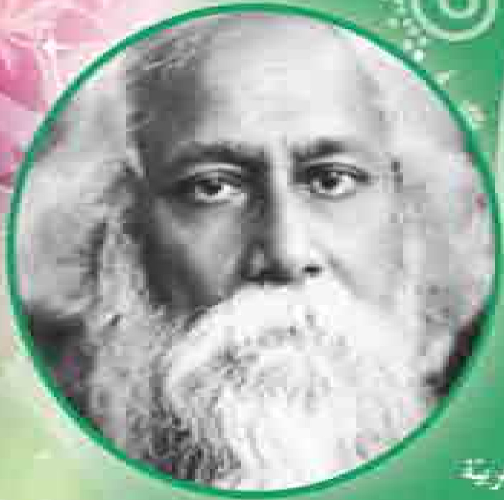

جمعها، وقدّم لها، ونقلها إلى العربية

أديب مصلح

باقاتٌ من حدائق
رابندرانات طاغور

٢٠١٦

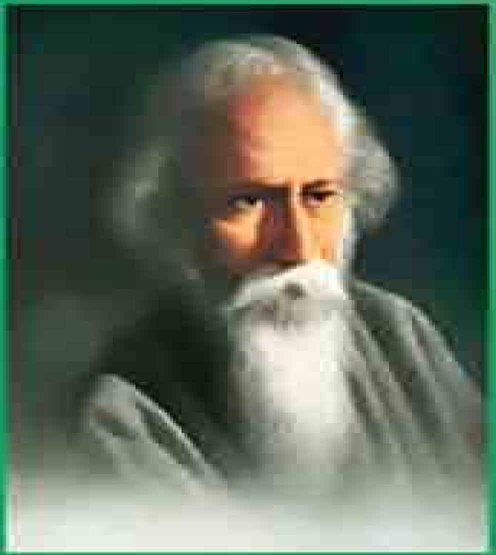

باقاتٌ من حدائق

رابندرانات طاغور

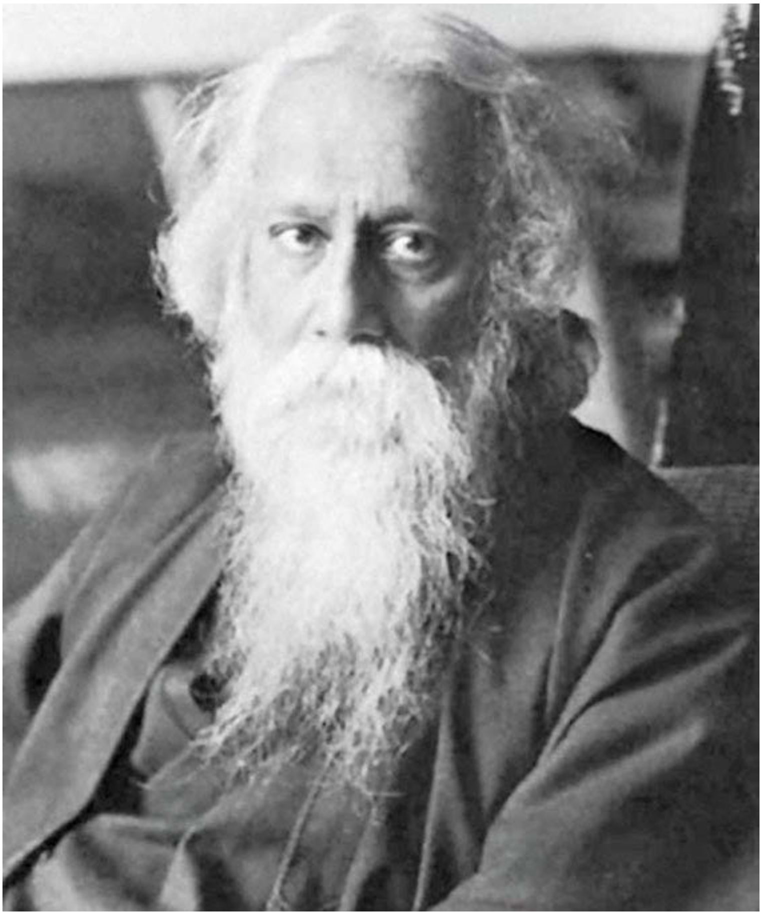

رابندرانات طاغور

١٨٦١-١٩٤١

باقاتٌ من حدائق

رابندرانات طاغور

جَمَعها، وقدّم لها، ونقلها إلى العربيّة

أَديب مصلح

بمثابة مقدمة

من هو "رابندرانات طاغور"؟[١]

"رابندرانات" هو الابن الرابع عشر والأصغر لـ "ديـڤـيندرانات طاغور". وُلد يوم السادس من أيّار ١٨٦١، وأُطلق عليه اسمٌ يُنبئ بمستقبله. فلفظة "رابي" الهنديّة تعني الشمس، وقد رمزت إلى استنارة حياته بالروح الشموليّ، الذي قرنَ، قرنًا مثاليًّا، بين ثقافتَيْ الشرق والغرب. وقد فسّر بنفسه، ما ينطوي عليه اسمه من رمزٍ، فأوضح في ختام ذكريات صباه أنّه يعني "سيّد الشمس، الذي لا يفرّق بين الشرق والغرب، ولكنّه يجوب بينهما".

رأى "رابندرانات" النور في مدينة كلكتّا، التي كانت، في عهد الإمبراطوريّة البريطانيّة، مقرًّا ومعبرًا لشتّى أنواع الحركات التجاريّة والثقافيّة، مثلما كانت مركز البنغال حيث ازدهرت الأعمال والأساطير، ومجمّعًا لأقصى التناقضات من ترفٍ فاحشٍ، وفقرٍ مدقعٍ، وموئلاً لفورةٍ فكريّةٍ ودينيّةٍ وسياسيّةٍ عارمةٍ، جيّاشةٍ بتوثّبات النهضة والتجديد.

وكان جَدُّ "رابندرانات"، "دڤاراكانات" (Dvarakanath) طاغور، من أبرز رموز تلك المفارقات وذلك الجَيَشان، فقد قرَنَ الثروة الوافرة بثقافةٍ واسعةٍ.

---

[١] الكنية الأصليّة هي Takhur وقد ترجمها الغربيّون إلى "Tagore"، والعرب إلى "طاغور".

كان يُتقِنُ من اللغات السانسكريتيّة والعربيّة والفارسيّة والإنكليزيّة، وكان كَلِفًا بالأدب والفنون، فضلاً عن كونه مالك مناجم ومزارع ومصارف، وداعمًا للفنّانين والأدباء والصناعيّين. كان يسوق حياة ترفٍ مرهفٍ، جعل من قصره ملتقى الأدباء والموسيقيّين والرسّامين، الذين كانوا ينعمون بمآدبه الفاخرة الشهيّة، إلى جانب هباته الماليّة. فاستحقّ له جمعُه بين الثروة والثقافة، وكرمه اللامحدود لقب "أمير"، وفتحا له أبواب القصور الفرنسيّة والبريطانيّة.

وإضافةً إلى كلّ ذلك كان منفتح الذهن، فدعا إلى احترام جميع الأديان الكبرى، وقاوم التقاليد البالية في وطنه.

غير أنّ إسراف ذلك الجدّ الذي لم يحدَّه حسابٌ ولا قيدٌ، قد أوقع الأُسرة، إثر وفاته، في لجّةٍ من الديون الباهظة، تعهّد ابنه "ديـڤـيندرانات" والد الشاعر، بتسديدها حتّى آخر فلسٍ، ضاربًا عرض الحائط بنصائح الأقرباء والأصدقاء. وقد اضطرّته هذه المبادرة الجريئة إلى بيع قسمٍ كبيرٍ من ممتلكات الأُسرة، وحتّى من حليّ النساء، وإلى الاكتفاء الراضي بوتيرة عيشٍ أوفر بساطةً واقتصادًا. وفي هذا السياق كتب رابندرانات في مذكّرات صباه: "لم يصعبْ علينا التأقلم مع هذا النمط من العيش إثر غرقِ أمجادنا العريقة".

ولا ريب أنّ هذه التضحية، وحياة الزهد التي أخذ يسوقها "ديـڤـيندرانات طاغور" وأسرته، قد أثارتا إعجاب مجتمع كلكتّا، وضاعف هذا الإعجاب جهادُه في سبيل تحرير الهندوسيّة من رواسب التقاليد التي لا تستند على قاعدةٍ روحيّةٍ حقيقيّةٍ واضحةٍ. فقد كان "ديـڤـيندرانات" من أبرز قادة حركة "براهما سواراج" أو "براهما سواجا" التي كان قد أسّسها "رام موهان روي"، بهدف

إصلاح الهندوسيّة، وإضفاء بُعدٍ عالميٍّ عليها. ولكنّ هذه النزعة لم تلقَ رواجًا في أوساط الشعب، ولم يتبنَّ نهجَها سوى حفنةٍ من المثقّفين الهنود.

وتلقّى "رابندرانات" من والده إرثًا آخر روحيًّا، أكمل غنى شخصيّته. فقد خاض ذلك الوالدُ، في مراهقته، حياة لهوٍ ولامبالاةٍ، إلى أن أطاحت أزمةٌ روحيّةٌ بهذا السلوك الصاخب، وهو في سنّ الواحدة والعشرين. فعزف عن الثروة والترف واللهو، وأزرى بمظاهر الأُبّهة الاجتماعيّة، وانخرط في حياة نسكٍ، نشدانًا للاستنارة الروحيّة. واختلى في جبال الهيمالايا، بين القمم المتّشحة بالثلوج، والينابيع الهادرة، وانبرى للنضال من أجل حرِّيّة الإنسان وكرامته، ومن أجل إلغاء نظام الطبقات الاجتماعيّة المتشدّد الذي كان يقدّسه الهندوسيّون، في حين كان يسحق ويُذِلُّ السواد الأعظم من مكوّناته؛ ودعا إلى احترام المرأة واحترام جميع الأديان العالميّة الكبرى، وآمن بألوهةٍ واحدةٍ شاملةٍ. وقد أثار موقفه الجريء، هذا، حفيظة الوسط الهندوسيّ التقليديّ، الذي أقصاه. غير أنّ تقشّفه، ونهجه النسكيّ قد استحقّا له لقب "مهاريشي"، أي القدّيس الحكيم.

وورثَ "رابندرانات"، أيضًا، من والده عشقَ الحرِّيّة للجميع، والنزعة الروحيّة التي طبعت بعمقٍ، آثاره الأدبيّة، وروح التجديد والتحديث.

اندرجت طفولة "رابندرانات" في جوّ بحبوحةٍ اجتماعيّةٍ، غير أنّ تربيته اتّسمت بالصرامة. فقاسى قمع الخدم والمربّين الذين أخضعوه لنظامٍ مفرطٍ في القسوة، فقد كانوا يقيّدون حركته، ولكي يقسروه على الثبات في مكانه، ضمن حيّزٍ ضيّقٍ، كانوا يرسمون على أرض حجرته دائرةً لا يسمحون له بتخطّي حدودها، فكان يُسرّي عن هذا الأَسر بإطلاق العنان لأحلامه وتخيّلاته، مسرِّحًا أنظاره، من النافذة، متنقِّلاً بها من أشجار الحديقة إلى بركة الماء الساجية، إلى الغيوم المرتحلة في

السماء، وإلى سحُب الغبار التي تثيرها أقدامُ القوم في الطرقات البعيــدة. هــذه الأحلام، فضلاً عن الأساطير التي كان يرويها له المربّون كي يستجلبوا الكرى إلى جفنَيه، ولّدت لديه الحاجة إلى نشدان المجهول واللانهائيّ، وجعلته يردّد، في سرِّه، ما كتبه في إحدى قصائده: "ليس هنا، بل في مكانٍ آخر".

ولم تكن المدرسة أرحم من أَسر البيت، ففي تلك الحقبة كان القمع رائجًــا أيضًا في المدارس، وكان التعليم حشوًا لمعلوماتٍ لا تغني ولا تفيد، واللغة الــتي يستخدمها المعلّمون مغرقةً، أحيانًا، في الخشونة، والتعارض مع الرهافة التي أَلِفها في المنْــزل. ولا سيّما أنّ المدرسة التي انضوى إليها كانت مدرســةً يســوعيّةً، مشهورةً بصرامة نظامها. وبالإجمال كان جوّ المدرسة عائقًا دون انطلاق خيالــه الفضوليّ الخلاّق. فاطّرد غيابه عن المدرسة، ورسب في الامتحانــات، فقــاطع المدرسة العامّة في سنّ الرابعة عشرة.

ولكنّ تثقيفه استمرّ، بجدٍّ وصرامةٍ، في المنْــزل بإشراف ثالث إخوته، الــذي أخضعه لنظامٍ لا رحمة فيه. فعندما كان الخَدَم يوقظونه، فيما الليل ما برح مرخيًا سدولَه على الأرض، ويُجبَر على ممارسة تمارين رياضيّةٍ تعقبها مراجعــة دروسٍ على ضوء مصباحٍ شحيحٍ، يحمله، غالبًا، على الاستسلام لإغفاءٍ جديدٍ، كــان أحد المربّين أو أخٌ أكبر يسارع إلى إيقاظه.

وقد عبّر، لاحقًا، عن شجبه لهذا النمط من التدريس، فكتب: "إنّ القســم الأكبر من الحمولة التي ادّعوا تخزينها في أذهاننا قُذِف به من البــاخرة إلى قعــر اللجّة. وفي ما يتعلّق بي، لم يكن لحمولتي من التعليم أيّ طائلٍ. فعندما تُشدّ أوتار الآلة الموسيقيّة إلى أقصى طاقاتها، تتحطّم بفعل الجهد".

لم يستسغِ، إذن، الفتى أُسلوب المدرسة المنْـــزليّة أكثر من استساغته أساليب المدرسة الرسميّة، فلجأ إلى شتّى حيَل التمارض، التي لم تكن توفّر له سوى فترات هدنةٍ قصيرةٍ يُضطرُّ، بعدها، إلى استئناف الخضوع للواجب القاسي.

غير أنّه كان يجد سلواه في مطالعة كتب الأدب الهنديّ، ولا سيّما الشعر الدينيّ الذي كان يفتنه بموسيقاه، وجِرس ألفاظه، حتّى وإن لم يفقهْ، دائمًا، معانيها.

وقد وصف الشاعر خبرتَه عن تلك المرحلة بقوله: "من الصبح حتّى المســاء كانت طاحونة الدروس لا تكفّ عن الدوران، وقد تراكمت عليّ معارف مـــن كلّ نوعٍ".

وفي تلك الحقبة أطلعه والده على مبادئ الدين الهندوسيّ، ورسّخ، في صدره، طقوس طبقة البرهمان التي كان ينتمي إليها ذووه، مثل الابتهال إلى الشمس عند شروقِها وغروبها، وقد التزم بهذه الطقوس على امتداد حياته.

ولا بدّ من التنويه بأنّ التقليد البنغاليّ يولي أهمّيّةً كبرى للحضـــور الإلهـــيّ في حياة كلِّ فردٍ. ومنذ الصغر يُلقَّن الصبيان هذا الإنشاد: "قمرٌ واحدٌ، وجـــزءانِ، وثلاثة عيونٍ..."، إشارةً إلى العين الثالثة، العين الداخليّة التي تمكّن مـــن رؤيـــة قلب الأشياء، وقراءة أفكار الناس، وتؤهّل لتأمّل جمال الخليقة.

حدَثَ منعطفٌ في مسيرة "رابندرانات"يومَ استصحبَه والده إلى جبال الهيمالايا المقدّسة لدى الهندوسيّين، ولم يكن الفتى قد عرف، حتّئذٍ، من مكانٍ سوى مدينة كلكتّا الغاصّة بالمارّة، والتي تطوف في أجوائها سُحُب الغبار المتصاعد من وقـــع أقدامهم، وبغتةً اكتشف نشوة المدى الفسيح، والآفاق الرحبة الصافية، حيـــث يتسنّى للطرْف والخيال والقلب، الانطلاق بلا عائقٍ، وحيث ســـحرته منـــاظر غابات الصنوبر، وحرِّيّة التنقّل على هواه.

وقد أُخِذ بما انتشر على سفوح تلك الجبال من أزاهير لم يشهد لها نظيرًا، قطُّ، ومن طيورٍ نادرةٍ متعدّدة الألوان، أخّاذة الألحان، ومن ثلوجٍ متراكمةٍ ثابتةٍ، وغاباتٍ كثيفةٍ ساحرةٍ. ولطالما قد سمع أنّ تلك الجبال هي مساكن للآلهة.

وفي انخطاف ذلك الفردوس الخلاّب، قُيِّض للفتى التعرُّف، عن كثبٍ، على شخصيّة والده، الذي طالما كان بعيدًا عنه في كلكتّا، وتسنّى لهما أن يقضيا معًا ليالي تناجٍ وسمرٍ حميمةً، تحت قبّة السماء الصافية، إذ كان الوالد يسرد لصغيره حكايات النجوم، ويكشف له جوانب من أسرار الكون.

هكذا تشبّع "رابندرانات"من روحانيّة والده، التي تكتشف الله في خليقته، وفي قلوب الناس، وعلى نحوٍ خاصٍّ في الجمال الذي يماهيه بالله، ويخاطبه مخاطبة عاشقٍ لمحبوبه.

وعاد الفتى من رحلته إلى الهيمالايا وقد تحوّلت شخصيّته، واغتنت نضوجًا وإبداعًا، ولم يقوَ على حبس الانطباعات الطاغية التي خزّنها في انطلاقته الأولى إلى العالم الفسيح. وقد افتُتِنَ بأحاديثه الشيّقة عن رحلته ضيوفُ المنْزل، ولا سيّما النسوة اللائي يمثّلن أرستقراطيّة كلكتّا، وأصبح رابندرانات محطّ اعتزاز والدته التي أبدت له اهتمامًا خاصًّا، طالما حرمته منه، من جرّاء انشغالها بأعباء منْزلٍ يعجُّ بسكّانه وضيوفه، ويستلزم دأبًا لا يُهادن، وسهرًا لا يفتر.

هذه الأُلفة المستجدّة مع والدته، أثلجت صدر الفتى الحسّاس. ولكنّ فرحته بها كانت قصيرة الأمد، إذ اخترمت المنيّةُ تلك المرأة، نادرة المثال، التي أَنهكت خدمةُ المنْزل المرهِقةُ صحّتَها، وأطاحت بحياتها باكرًا.

وإثر وفاتها، اختلى والده وحيدًا، في أحد أجنحة المنْزل الكبير، وأُرسل

"رابندرانات" الفتى إلى جناحٍ آخر، حيث أقام مع أخيه الأكبر وزوجته، اللذين أوليا عنايةً جدّيّةً بإكمال ثقافته الأدبيّة، ودرّباه على إدراة شؤون ممتلكات الأُسرة، وعلى الصيد وركوب الخيل.

وقد بذلت زوجة أخيه، التي لم تكن تكبره إلاّ بسنواتٍ معدوداتٍ، جهدًا دؤوبًا في سبيل تثقيفه الأدبيّ، ولقّنته قصائد الشعراء الهنود المعاصرين، وشجّعته على نظم القصائد، وعلى نشرها. وسرعان ما برهن "رابندرانات" عن وَلَعٍ وبراعةٍ في نظم القصائد والأناشيد، مُدخلاً على الأدب الهنديّ نَفَسًا قشيبًا، ومُغنيًا اللغة البنغاليّة بصِيَغٍ مبتكرةٍ.

وجريًا على تقاليد الأُسَر الهنديّة الميسورة، أوفدت أُسرة طاغور "رابندرانات" الشابّ، إلى إنكلترا، عند بلوغه السابعة عشرة، كي يدرس الحقوق. وعاد منها، بعد سبعة عشر شهرًا، مكتسبًا نضوجًا، وثقةً بنفسه، ومعرفةً جيّدةً للأدب والموسيقى الأوروپيّين. وباشر سلسلةً من الأسفار إلى كلّ أقطار أوروپا، فضلاً عن الأميركيّتين، والشرق الأوسط، والشرق الأقصى، مبشّرًا بوحدة البشر الجامعة، وبالمطلق الذي يستشفّه في كلّ وجوه الطبيعة.

وبين رحلةٍ وأُخرى كان يرتاح في سكنه مع عائلة أخيه. وكانت تلك الفترة إحدى أسعد مراحل حياته. وقد تجلّت هذه السعادة من خلال مجموعته الشعريّة الرومانسيّة "أناشيد الفجر"، التي أهّلته لاستحقاق لقب "شيلي البنغال".

أثناء دراسته في بريطانيا، تأثّر بحسن ضيافة البريطانيّين، ودماثتهم وكياستهم، وثقافتهم. ولكنّه لدى عودته إلى وطنه، صدمه التناقض بين هذه المواقف الحضاريّة، وفظاظة البريطانيّين المستعمرين، وجشعهم، وعنجهيّتهم، ووحشيّتهم.

غير أنّه اكتسب، في بريطانيا كَلَفًا بآداب الشعوب المختلفة. وبعد أن كان قد تذوّق شعراء الهند وفارس والعرب، شُغِفَ بشكسبير، والشعراء الرومانسيّين البريطانيّين، وبالأديب الألمانيّ "غوتيه" مؤلّف "فوست"، وبالشاعر الإيطاليّ "دانتي"، صاحب "الملهاة الإلهيّة"، ومنذئذٍ، نمت لديه الرغبة في حبك علاقةٍ وثيقةٍ بين الشرق والغرب.

عام ١٨٨٣، نزولاً عند رغبة أُسرته، تزوّج ابنة أحد مستخدَمي ذويه، وهي في نحو العاشرة من العمر؛ ومع أنّها لم تكن تتميّز لا بالجمال، ولا بالذكاء، إلاّ أنّها كانت له خير زوجةٍ على مدى عشرين سنةً.

ولكن لم يكد يمضي أربعة أشهرٍ على زواجه، حتّى انتحرت زوجة أخيه لأسباب غامضةٍ، ما زالت مجهولةً. وقد أحزن انتحارُها الشاعرَ حزنًا بليغًا، فقد كانت له، سحابةَ سنواتٍ طويلةٍ، النجيّةَ، والأُمَّ، والأُخت الكبرى، والمرشدة.

إثرَ هذا الحادث اعتزل "رابندرانات"، مع زوجته، على ضفاف "الغانج"، عزلةً تامّةً، لم يؤنسْها سوى نشاطه الأدبيّ، الذي كرّسه شاعرًا فذًّا. وفي تلك المرحلة لوحظ احتلال فكرة الموت حيّزًا رحبًا في قصائده. ولم تكن تلك الفكرة تخيفُه بقدر ما كانت تثير لديه التساؤلات، فيحاول اكتشاف سرّ الموت، ويتقبّله، بلا يأسٍ ولا مرارةٍ، على أنّه جزءٌ أصيلٌ من الحياة، موقنًا أنّ الكلمة الأخيرة ستكون، دائمًا، للحياة وللحبّ، ما جعله يهتف، في إحدى قصائده: "أيُّها الموت، لا وجودَ لك".

بيد أنّ الموت لم يهادنه، فقد سلبه، بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٧ زوجته، واثنين من أبنائه، وأباه، فغدا أشدّ تحسُّسًا لآلام الآخرين، واهتمامًا بها.

الوطنيّ المصلح

وكان لتكليفه بإدارة أراضي الأُسرة ومزارعها أثرٌ بالغٌ على نفسه وفكره. فهو، بادئ الأمر، كان قد تهيّب هذه المهمّة، من جرّاء مقته للأرقام والحسابات، غير أنّ اتّصاله المباشر بالفلاّحين والكادحين وعامّة الشعب البسطاء، والعلاقات الوثيقة التي عقدها معهم، قد فتحت ذهنه وقلبه على ما تنطوي عليه بساطتهم من سموٍّ وقربٍ من الله، ومن جهةٍ أُخرى، على معاناتهم، وبؤس عيشهم الناجم عمّا يرسفون فيه من قيود الجهل والحرمان من الحقوق الأساسيّة ومن مقوّمات الكرامة الأساسيّة، فوطّن العزم على مكافحة هذه الآفات الاجتماعيّة، بغيةَ انتشال أولئك المساكين المغبونين من المذلّة والفاقة.

وفي الآن عينه ولّدت لديه حياة الريف إعجابًا جمًّا بجمال طبيعة البنغال، وتناغم الأشياء في مسرحها الفسيح حيث الماء والسماء والغيوم والشمس تلعب الأدوار الرئيسة. وكان تعاقب المواسم، وإبداعات الطبيعة المتجدّدة، مصدر دهشةٍ دائمةٍ، انعكست انعكاسًا جليًّا وعذبًا على شعره.

عن هذا المفترق في مسيرته كتب، لاحقًا:

« أنا مخلوقٌ مدنيٌّ، مولودٌ في مدينةٍ، ويُعَدّ أجدادي من أوائل سكّان كلكتّا. ومن ثمَّ لم تخضع سنوات صباي لأيّ تأثيرٍ ريفيٍّ. ولّما كُلِّفت بالعناية بأملاكنا، توجّستُ خشيةً من مشقّة الواجبات التي ستفرضها عليّ هذه المهمّة، فأنا لم آلف مثل هذه الأعمال: المحاسبة، وجمع الغلال وتخزينها، وتبيان ما لنا وما علينا. وبدت لي تبعة جهلي لهذه الأمور باهظةً. ولم أستطع تخيُّل قدرتي على البقاء إنسانيًّا، وأنا ذاتي، تحت عبء الأرقام والحسابات.

بيد أنّني، كلّما كنتُ أتوغّل في هذه المهمّة، كانت تستحوذ عليّ...

غالبًا ما كان المزارعون يأتون إليّ، وكان بابي مشرعًا لهم، ليلَ نهارَ. واتّفق أن أنفقتُ أيّامًا بطولها منصتًا إليهم، ذاهلاً حتّى عن مواعيد وجبات الطعام. وكنت أضطلع بهذا العمل باندفاعٍ، بعد أن قضيتُ أيّامي، منذ طفولتي، معزولاً، مفتقرًا إلى أيّ اختبارٍ لحياة الريف التي استمددتُ منها فيضًا من الدعم والرضى. وكانت هذه الدروب الجديدة المشرعة أمامي، تفعمني بهجةً.

كنتُ توّاقًا إلى الاطّلاع على أدنى تفاصيل حياة القرية، وكانت مهمّاتي تقودني إلى أبعد المطارح، عبر النهر، ومختلف السواقي. وقد وفّر لي ذلك فرصة الاطّلاع على مشاهد القرية الرائعة، دائمة التبدّل. وكانت مهامّ القرويّين اليوميّة، ودورة اهتماماتهم المتنوّعة تفعمني دهشةً. فقد نشأتُ في مدينةٍ، وإذ بي، بغتةً، وسط سحر الحياة الريفيّة، التي أخذت بمجامع كياني.

وشيئًا فشيئًا، تكشّف لي البؤس الذريع الذي يعانيه الشعب، وشرعتُ أتمنّى أن أوفّر له علاجًا ».

وعن الريف كتب:

« في القرى، كما في النساء، يكمن مهد الجنس البشريّ. فهي أقرب من المدن إلى الطبيعة، وإلى ينابيع الحياة. وهي تمتلك قوّةً شفائيّةً طبيعيّةً. إنّ دور القرية، على غرار دور النساء، هو أن توفّر للإنسان احتياجاته الأساسيّة، فضلاً عن السعادة والطعام، وشِعر الحياة البسيط، ومجالي الجمال التي تبدعها تلقائيًّا، وتكوّن فرحها ».

ولطالما أولى الريفَ الهنديَّ عنايةً كبرى، وجهدَ في سبيل بعث الديناميّة في

أوصاله، ومساعدة أهله على استعادة كرامتهم الذاتيّة، وتوفير التعليم ومرافق الصحّة، وسُبُل الازدهار لهم.

ومع أنّ السياسة لم تجتذبه، يومًا، غير أنّ آلام مواطنيه قد دفعته دفعًا إلى المشاركة في النشاط السياسيّ الوطنيّ، والنضال في سبيل الاستقلال. ولكنّه كان أشدّ رغبةً في تحرير أبناء جلدته من ربقة التقاليد البالية التي كانت تبقيهم راسفين في أغلال التخلّف.

كان قد ترعرع في جوٍّ أُسريٍّ مشبعٍ بالحسّ الدينيّ، متحرِّرٍ ومنفتحٍ على التيّارات المستنيرة الرافضة حتّى للتقاليد المقدّسة التي تمتهن كرامة الإنسان وتغتال حرِّيّته.

وقد أبدى، منذ صغره، كَلَفًا بالقيَم الإنسانيّة الغربيّة، ولكنّه لم يأخذ منها إلاّ ما يتوافق مع مبادئه الإنسانيّة الشموليّة، معارضًا كلّ مغالاةٍ في تبنّيها بلا تحفّظٍ. فلم يتحرّج من مواجهة تحدّيات الحداثة، مع الوفاء الصامد للتقاليد الهندوسيّة العريقة الملتزمة بالإنسانيّة والحقيقة. فاستطاع القرن بين التقليد ومقتضيات الواقع الراهن، وبين الفنّ والحياة. وكان قد ورث من والده نزعته الصوفيّة، واندفع في تيّار الصوفيّين الهنود، غير أنّ صوفيّته لم تُقصِه عن وقائع الحياة.

وكان وطيد اليقين بأنّ الدرب الوحيد إلى خلاص البشريّة هو تقبُّل الاختلافات بين الشعوب والأديان، بروح تواصلٍ وتفاهمٍ ومسامحةٍ متبادلٍ، فكان سفير نوايا حسنة إلى مختلف بلدان العالم شرقًا وغربًا، مبشّرًا بهذه الدعوة.

لقد ثار طاغور على الظلم والتعصّب اللذيْن كانا سائدَين في الهند، مُنتِجَيْن شتّى أصناف التخلّف. ومن ثمّ غلب الطابع الاجتماعيّ والإنسانيّ على كتاباته.

وكان من البدهيّ أن ينضوي إلى الحركة الوطنيّة التي انتفضت علــى طغيــان الاستعمار البريطانيّ، وإلى النضال في سبيل تحطيمه.

وعندما شرع المستعمرون يقسّمون البنغال، هبّ لمقاومة مشروعهم، فدعا إلى تأليف لجانٍ وطنيّةٍ في كلّ قريةٍ، يرأسها، معًا، هندوســيٌّ ومســلمٌ متضــامنَيْن، وأهدى الجميع شاراتٍ وطنيّةً، وكان القوم ينشدون قصائده الثوريّة الوطنيّة في الطرقات. غير أنّ مثيري النعرات الطائفيّة والمســتعمرين جهــدوا في إفشــال مساعيه، ولم يثبت في دعمه سوى حفنةٍ من المثقّفين الهنود.

ومع تأجّج الثورة على المستعمرين تفاقمت أعمال القمع، وأمعن البريطانيّون المستعمرون في تنفيذ أحكام شنقٍ جائرةٍ. وقد برهن بعض الثائرين الوطنيّين عن جرأةٍ نادرةٍ، فلم يتحرّجوا من إنشاد أناشيد طاغور الوطنيّة في المحــاكم، وبها واجهوا أحكام الإعدام.

وعندما أعلن غاندي حملة المقاومة السلميّة، وواجهتها السلطات المســتعمرة بمجازر رهيبةٍ، عبّر طاغور عن سخطه واستنكاره، بإعادته إلى الحكومة البريطانيّة وسامًا رفيعًا كانت قد كرّمته به قبل بضع سنواتٍ، غير آبهٍ بتأثير موقفــه هــذا على أصدقائه الأدباء البريطانيّين.

ولا بدّ من التنويه بأنّ علاقة احترامٍ متبادلٍ قد توثّقت بين طاغور وغانــدي، وقد بلغ إعجاب الشاعر بمحرّر الهند أن أطلق عليه لقب "مهاتما" أي "الــنفس الكبيرة". لقد اتّفقا، كلاهما، على الأهداف النهائيّة، ولكن ظهــرت، أحيانًــا، بينهما خلافاتٌ حول الأساليب والأولويّات، فقد كان غاندي أكثر واقعيّــةً في وطنيّته، فيما كان طاغور يتطلّع إلى عالمٍ بلا حدودٍ، ومؤمنًا بأنّ الهزيمة الحقيقيّــة هي التنكّر للحبّ والجمال.

غير أنّ اندفاع طاغور الوطنيّ لم يَحُلْ دون شجبه تقاليد راسخةً، عدّها هي علّة تخلّف الهند، ولا سيّما الحواجز القائمة بين طبقات المجتمع التي تؤدّي إلى تجزئته وإضعافه، فضلاً عن الشقاقات الناتجة عن تعدّد الديانات والمذاهب، فأكّد، بلا وَجَلٍ ولا مواربةٍ، أنّ افتخار الهندوسيّة بتقاليدها هو افتخارٌ باطلٌ، وأنّ تشبّثها بها هو سبب انحطاطها، ومعلنًا أنّ "الاستقلال الحقّ هو استقلال الفكر والنفس...". وعملاً بهذه القناعة، دعا إلى تأسيس أعيادٍ يُحتَفَلُ بها بمواسم الحياة اليوميّة، مثل عيدٍ للربيع، وأعيادٍ للزرع والغرس والحصاد، يُستعاضُ بها عن طقوسٍ دينيّة فقدت معناها ومبرّراتها. ووضع لهذه الأعياد المستحدثة أناشيد خاصّةً بها، ومسرحيّاتٍ مستوحاةً من رموزها.

المربّي

كان موقنًا أنّ إصلاح وطنه لا يتحقّق إلاّ بتعليمٍ سليمٍ، يضمن تنميةً كاملةً لكلّ مواهب الإنسان الذهنيّة والعاطفيّة والإراديّة والسلوكيّة، ويُعِدّه للانفتاح على جميع البشر الآخرين، في كلّ مكانٍ ومن كلّ مشربٍ، وعلى كلّ ما هو حقٌّ وجميلٌ في الكون وفي الكائن البشريّ.

ورأى أنّ الاتّصال الدائم بالطبيعة هو عنصرٌ أساسيٌّ من عناصر النموّ الإنسانيّ، وأنّ للطبيعة بأشجارها وسواقيها وحقولها، وسمائها، وآفاقها المشرعة، في ميدان التربية، مثل ما للكتب والدفاتر والأقلام والألواح السوداء، من شأنٍ.

ودعا إلى قرن الجمال بالأخلاق، وإلى رفد مبادئ الأخلاق بحسّ الجمال، ما يساعد على بلوغ الحقيقة، وإقامة ثالوثٍ جوهريٍّ مكوَّنٍ من الحقّ والجمال

والعطف. كما دعا إلى ممارسة نشاطٍ جسميٍّ بموازاة النشـــاط الأكـــاديميّ، وإلى ارتباط التعليم المدرسيّ بحياة الشعب الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

وفي سبيل نشر تطلّعاته الإنسانيّة وترسيخها، وبغية القضاء على آفات الجهل والفقر والبؤس في الهند، أَسَّس، في مطلع القرن العشرين، مركـــزًا تربويًّـــا، في موقعٍ كـــان والـــده قـــد اختـــاره وأطلـــق عليـــه اســـم "شـــانتينيكايتان" (shantinikitan)، أي "منْـــزل السلام"، على غرار مناسك الغابات الرائجـــة في الهند، والمعروفة باسم "أشرم". وكان والده قد جعل من ذلك المركز مكـــان استراحةٍ للحجّاج إلى جبال الهيمالايا، وما زال قسمٌ منه مُستَخدمًا لهذه الغايـــة. ولكنّ ابنه الشاعر، الحريص على جعل مركزه التربويّ منتزهًا للعـــين والقلـــب والفكر، معًا، ولكي يُضفي على ذلك المكان طابعَ البهجة والجمال، قارنًا فائدة التعليم بمتعة النظر والنفس، غرس محيط المدرسة بمئات الأشجار المتنوّعة وســـهر على سقايتها والعناية بها حتّى غدت جنّةً غنّاء، وسط أراضٍ قاحلةٍ باهتةٍ.

ولا ريب أنّ ذكريات مدرسة طفولته الكئيبة قد لعبت دورًا دافعًا في تأسيس ذلك المركز. وهذا ما باح به: "لقد راود شبحُ طفولتي آمـــالَ بـــدايات ذلـــك المركز، وحاول العيش في حياة أولادٍ آخرين، كي يُشيد لهم فردوسًا، لا يعرف سوى الأولاد بناء مثله... إنّ الأولاد، في نضارة مشاعرهم، ينفذون مباشرةً إلى عقد علاقاتٍ حميمةٍ مع العالم. هذه هي الهبة الكبرى الأولى التي يتلقّونها، وعليهم أن يتلقّوها ببساطةٍ، وألاّ يفقدوا، أبدًا، قدرة التواصل مع العالم... الحرّيّة تكمن في التناغم التامّ الذي نحقّقه مع هذا العالم، وفي تجاوبنا معه، لا بعقلنا فحسب، بل بكياننا كلّه... كي نبلغ الكمال ينبغي أن نكون، حيويًّا، متوحّشين، وعقليًّـــا، متحضّرين، وأن نبقى طبيعيّين مع الطبيعة، وإنسانيّين في مجتمع البشر".

وقد حرص على اعتماد مناهج تربويّةٍ تخدم شخصيّة الطلاّب، وتربطهم بمعلّمهم علاقةٌ شخصيّةٌ مبنيّةٌ على البساطة، والطبعيّة، والسجوّ الروحيّ، كما حرص على أن يرسّخ، لدى الناشئة، نزعةً عالميّةً منفتحةً، وكَلَفًا بالبحث عن الحقيقة، حيثما وُجدت، والتشبّث بها، والتمرّس بالتسامح، والإخاء البشريّ الشامل.

وفي هذا السياق، لا معدى عن التنويه بأنّ عالم الطفولة بكلّ ما يموج به من سذاجةٍ وبراءةٍ، وعبثٍ، ومرحٍ، وخيالٍ، قد ظلَّ، دائمًا، محطّ دهشة الشاعر طاغور، وتوقه، ومصدر إلهامٍ لأجمل قصائده وأعذبها، ولا سيّما تلك التي انطوت عليها مجموعته الشعريّة "القمر الفتى".

كان "رابندرانات طاغور" يأخذ على المدارس العامّة محاكاها لمصانع تُفتَح في ساعةٍ معيَّنةٍ، وتُغلَق في ساعةٍ محدّدةٍ، وتوزّع منتجًا واحدًا، لجميع التلاميذ، لا يراعي قدرات كلّ تلميذ الشخصيّة واحتياجاته وتطلّعاته، ويفتقر إلى تلاؤم العلم الموزَّع مع احتياجات المجتمع. فالمعلّم، في معظم الحالات، تاجر معلوماتٍ، لا همّ له سوى تسليمها وقبض أجره، وبذلك تنتهي علاقته بتلاميذه.

ولذلك أوْلى اهتمامًا يقظًا لانتقاء معلّمين مؤمنين برسالتهم، ومالكين لكفاءاتٍ رفيعةٍ، ويقرنون المناقبيّة المثاليّة بالكفاءة العلميّة، لأنّه كان مؤمنًا بأنّ التربية لا تبلغ غايتها إلاّ عندما يتحقّق تواصلٌ فكريٌّ وروحيٌّ بين المعلّم والتلميذ، على نحو ما تُضاء شمعةٌ من شمعةٍ أُخرى. ومع أنّ مركزه التربويّ كان معزولاً عن العالم، وإغراءاته المادّيّة ضئيلةً، ومرافق الرفاه فيه تكاد تكون غائبةً، إلاّ أنّ نفوسًا سخيّةً أُخذت بروعة رسالته وجِدّها وفرادها، وكانت المكافأة الكبرى التي تمتّع بها الذين تطوّعوا للتدريس في تلك المؤسّسة، أنّهم نعموا برفقة إنسانٍ فذٍّ، كان مجرّد حضوره يُغني وجودَهم.

ولكي يمكّن الطلاّبَ الصغارَ من إكمال دراساتهم، أضاف "رابندرانات طاغور"إلى الصفوف الابتدائيّة صفوفًا ثانويّةً، ثمّ جامعةً. وقد تخطّى المحظورات والأحكام المسبّقة، فأشرع أبواب مدرسته وجامعته للفتيات إلى جانب الفتيان، فاختلطوا، جميعهم، بلا تمييزٍ مبنيٍّ على الطبقات الاجتماعيّة التقليديّة، وعلى اللغات والأديان والمذاهب، وانصهروا في مناخٍ مفعمٍ انفتاحًا وتوادًّا وصداقةً، برعاية ذلك الشاعر الفذّ المفعم حسًّا إنسانيًّا رقيقًا الذي أكسبهم منعةً عقليّةً وأخلاقيّةً.

وقد أشاعت مبادرته هذه عدوى خيّرةً، وألهمت العديد من المقلّدين، فتكاثرت، في الريف الهنديّ، المدارس والمستوصفات، بدعمٍ من طاغور وتوجيهه.

ومن أجل دعم مؤسّسته التربويّة الوليدة، وإنجاحها، لم يتردّد طاغور عن بيع حلى زوجته وجواهرها، وعن السفر المطّرد، في كلّ اتجاهٍ، بحثًا عن منابع تمويلٍ تضمن استمرارها ونموّها، وكرّس لها كلّ كنوزه العاطفيّة والمادّيّة والأخلاقيّة.

وآتت جهوده ثمارًا شهيّةً. ففي عام ١٩٢١، تحوّلت مدرسة "شانتينيكيتان" إلى "جامعة الأُخوّة العالميّة"، وباتت مركزًا للثقافة يتألّف من مدرسةٍ ومختبرِ أبحاثٍ، ومحترفات فنٍّ وموسيقى، ومكتبةٍ تضمّ ستّةً وثلاثين ألف مجلّدٍ بكلّ اللغات، ومركز لقاءٍ بين الشرق والغرب، وجامعةً ناشطةً في السعي نحو عالمٍ أفضل. وقد وضع لها شعارًا: "الجميع هنا يقيمون في عشٍّ واحدٍ". وحرصًا منه على بقاء هذه المؤسّسة، أوكلها، قبل وفاته، إلى عناية غاندي، ثمّ تولّت الحكومة الهنديّة رعايتها، وغدا رئيس الوزراء هو مستشارها.

بيد أنّ انفتاحه، ونزعته التجديديّة لم يروقا للمحافظين، ولا لفئاتٍ واسعةٍ من الشعب الذي ترعرع على تقاليد دهريّةٍ عَلِق بها وقدّسها، مع أنّها كانت علّة شقائه.

ومن جانبٍ آخر، أثار تمرُّدُه على الاستعمار البريطانيّ، وانضمامه إلى التيّار الاستقلاليّ حفيظةَ السلطات التي شنّت عليه حربًا خبيثةً ، تمثّلت في ترويج أكاذيب عنه، وفي توقيف العديد من أتباعه.

وقد أحزنته هذه الحملات الماكرة، وأرهقته نفسيًّا وجسديًّا، فنصحه أطبّاؤه باغتنام فترة نقاهةٍ واسترخاءٍ.

وفي هذه الأثناء، كان طاغور قد أَلِف أن يُلقي على تلاميذ مؤسّسته التربويّة محاضراتٍ في مواضيع دينيّةٍ وأخلاقيّةٍ، وشرع ينشر نصوصها في كتيّباتٍ، تحت عنوان "شانتينيكيتان"، أسهمت في التعريف به ونشر شهرته، وضاعف نشر هذه الشهرة إصداره مجموعةً منتقاةً من قصائده، أطلق عليها عنوان "جيتانجالي" (Gitanjali)، أي "التقدمة الملحميّة" وهي تتألّف من مئةٍ وثلاث قصائد.

شهرةٌ عالميّةٌ

وعندما وطّن العزم على تنفيذ نصيحة أطبّائه، والشروع برحلةٍ نقاهيّةٍ، عمد إلى ترجمة هذه المجموعة الشعريّة وبعض قصائد أخرى إلى الإنكليزيّة، وقد أثبتت هذه المهمّة أنّها مزدوجة الجدوى، فكانت أُسلوبًا ناجعًا للترويح عن نفسه من سأم الرحلة البحريّة الطويلة، ووسيلةً لتعريف البريطانيّين والغربيّين عمومًا، بنتاجه الأدبيّ.

وكانت معظم هذه القصائد تلهج بنبرةٍ دينيّةٍ شاملةٍ، صافيةٍ، ومؤثّرةٍ، ولا سيّما أنّ مؤلّفها كان يؤنس حضور الله في داخله، وفي الخليقة جمعاء.

وقد لاقت هذه القصائد إعجابًا عارمًا من قِبَل الشاعر الإنكليزيّ، إيرلنديّ الأصل، "ييتس" (Yeats)، الذي عمد إلى نشرها، فكان لنشرها وقعٌ مدوٍّ ألهب حماس شعراء وأدباء مرموقين، مثل "برتراند راسّل".

وسرعان ما شاعت قصائد رابندرانات طاغور في شتّى أصقاع المسكونة، وكرّست شهرتَه جائزةُ "نوبل" للآداب عام ١٩١٣، مع أنّ بين المرشّحين لتلك الجائزة، في تلك السنة، تزاحم أعلامٌ، هم قِمَمٌ أدبيّةٌ شامخةٌ، أمثال: تولستوي، وإبسنِ، وييتس، وجورج برنار شو.

وسط عالمٍ مبتلى بالصراعات الدامية، وحمّى الحروب والدمار، والدعوات الزائفة، دوّت مجموعته الشعريّة في أجواء أوروپا، صادحةً بأنغام الحقيقة الناصعة الصافية، والإنسانيّة السمحاء، فمسّت بقوّةٍ، أوتار القلب البشريّ المتعب من مآسي الحروب. وتوسّمت أوروپا في ذلك الشاعر الهنديّ حكيمًا منقذًا، ونبيًّا مرشدًا إلى الخلاص.

ولا ريب أنّ هذه الجائزة أكسبت "رابندرانات طاغور"مزيدًا من الشهرة العالميّة، كما اتّضح في مختلف مدن العالم التي زارها الشاعر في تلك الفترة، ولا سيّما أنّه، في سبيل دعم تمويل مؤسّسته التربويّة "شانتينيكيتان"، جاب العديد من مدن العالم.

وقد خصّته مدينة "كوبي" (Kobe) اليابانيّة باستقبالٍ منقطع النظير، في حرارته واندفاعه، ومع أنّ ذلك الشاعر المرهف فتَن اليابانيّين بشعره، إلاّ أنّه لم

يتورّع عن شجب أعمال القمع التي كانت اليابان تمارسها في الصين. وأثار موقفه هذا حنق السلطات اليابانيّة التي أمرت بإلغاء كلّ برامج المحاضرات التي كان مخطّطًا له إلقاؤها في المدن اليابانيّة. بيد أنّ هذا الموقف نفسه قد أثار إعجاب الكاتب الفرنسي "رومان رولان"، وكان منطلق صداقةٍ متينةٍ بين الرجلين.

ثمّ باشر سلسلة محاضراتٍ منهكةً في الولايات المتّحدة، غير أنّ نقمة المخابرات البريطانيّة، ومؤامراتها الماكرة لاحقته إلى هناك، وأفلحت في إكراه اللجنة النيويوركيّة، المنظّمة لبرنامج محاضراته في أميركا، إلى التمنّع عن دفع مستحقّاته المادّيّة بحجّة الإفلاس.

ومن البلدان التي زارها: إيطاليا. وقد لاقى استقبالاً حارًّا في ميلانو، غير أنّ التعبَ والوهن حالا دون زيارته سائر المدن الإيطاليّة، ولكنّه عاد فزارها، في السنة التالية، تلبيةً لدعواتٍ ملحّةٍ موّهت فخًّا حكوميًّا نُصبَ له، بغرَض استغلال زيارته من قِبَل السلطات في سبيل الدعاوة الفاشيّة. وعندما اتّضحت له المؤامرة فضحها بعنفٍ ومرارةٍ، فردّت الصحافة الفاشيّة بوابلٍ من الشتائم.

ومع تعاقب المفاجآت المُحبطة، لم يتوقّف عن التجوال، فزار معظم المدن الأوروپيّة، وبلدان الشرق الأدنى، ومنها مصر.

وعام **١٩٣٠** جاب العديد من المدن الأوروپيّة حيث عرض لوحاته، وألقى محاضراتٍ؛ وختم جولته بزيارة موسكو. ومع إعجابه بثقافة الشعب الروسيّ، توجّس ريبةً من النظام التوتاليتاريّ، الساعي إلى ترسيخ جذوره، ومدّ فروعه.

وكانت شهرته المتنامية تستقطب إلى "شانتينيكيتان" زرافات كبار الضيوف والزائرين العالميّين، ما أوقعه في ضائقةٍ ماليّةٍ حاول معالجتها بنشر أعمالٍ أدبيّةٍ جديدةٍ.

عبقريّةٌ متعدّدة المواهب

كان "رابندرانات طاغور"شخصيّةً غنيّةً متعدّدة المواهب. فهو إلى جانب الشعر، الذي شرَعَ ينظمه في سنّ العاشرة، ألّف العديد من الروايات، ودبّج طائفةً وافرةً من الأبحاث والمقالات، ونعِم بإشعاعٍ عالميٍّ رحبٍ.

وكَلِف بالمسرح، فألّف عشرات المسرحيّات التي كان يخرجها بنفسه، ويُجسِّد، في بعض الأحيان، أحد أدوارها. في عام ١٩١٧، قدّم، في كلكتّا مسرحيّة "أمل ورسالة الملك"، التي كان بين مشاهديها الزعيمان الهنديّان غاندي وتيلاك. وقد لاقت تلك المسرحيّة نجاحًا باهرًا. بيد أنّ حلاوة هذا النجاح عكّرها اعتلال ابنة الشاعر الكبرى، التي كانت تصارع مرض السلّ، الذي قضى عليها، في العام التالي.

وكَلِف "رابندرانات طاغور"، أيضًا، بالموسيقى، فوضع نحو ألفين ومئتي نشيدٍ، لحّنها بنفسه، وهي ما زالت تنشد في الهند وفي بنغلاديش. وكانت معظم هذه الأناشيد إشادةً بكلّ وجوه القدسيّ والجمال. ويُلاحظ أنّ نزعته الإنشاديّة هذه قد انعكست على العديد من قصائده، حيث تنساب موسيقى داخليّةٌ أخّاذةٌ، وحيث يُردَّد أحد الأبيات، مثل لازمةٍ، في نهاية كلّ فقرةٍ.

وفي السّتين من عمره، جرّب طاغور وسيلة تعبيرٍ جديدةً، فاستعان بالفرشاة إلى جانب القلم، وجسّد خواطره وأحلامه في ألوانٍ ولوحاتٍ تميّز بعضها بالإدهاش، وبات عرض هذه اللوحات في شتّى مدن العالم، سببًا للعديد من أسفاره.

غير أنّ "شانتينيكيتان" ظلّت هي العشّ الدافئ الذي يرجع إليه دائمًا، ويستمدّ منه القوّة، والثقة والرجاء، ويسعد وسط جلبة التلاميذ الصغار، وضحكاتهم البريئة. وحتّى عندما تداعت صحّته، وشحّ بصره، ووهن سمعه، كان يُبقي باب غرفته مفتوحًا دائمًا، كي يدخل إليها أولئك الملائكة الصغار، كلّما شاؤوا، ويتناولوا، بلا حرجٍ، ما يضعه بتصرّفهم من حلوى.

وقد أحزنت صيفَه الأخير على هذه الأرض الحربُ العالميّة المستعرة، وما جرّته من آلامٍ وفواجع، فلم يقتصد في توجيه أقسى عبارات التنديد والاستنكار للغرب الذي عجز عن منع هذه المآسي.

وكانت، حينئذٍ، سلواه الوحيدة التطلّع إلى العلاء، والدعاء إلى "التجدّد الخالد"، بهذا التوسُّل، الذي ما زال أهل البنغال يرفعونه، كلّما احتفلوا بذكرى ميلاد "رابندرانات طاغور":

« فلتعتلنْ لنا، (يا الله)
مثلما تعتلن الشمس،
مبدّدةً السحب ».

وانطفأ "رابندرانات طاغور"، في كلكتّا، يوم السابع من آب ١٩٤١، في البيت الذي كان قد رأى فيه النور.

ولا ريب أنّه قد أدّى، في حياته المناضلة، خدماتٍ جُلّى للفكر الدينيّ، وللتربية والتعليم، وللإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ، وللنهضة الأخلاقيّة، عدا عن إثباته أنّه شاعرٌ عالميٌّ مجلٍّ فذٌّ.

طاغور الشاعر

استوحى "رابندرانات طاغور" إلهامه الشعريّ من نزعةٍ صوفيّةٍ، دفعته إلى محبّة كلّ إنسانٍ، وإلى نشدان الجمال أينما ثوى، حتّى في أكثر المواقع وضاعةً وهشاشةً. فقد كان يؤمن أنّ الجمال هو تجلّي الحياة، وأنّ الحياة تخلو من كلّ جاذبٍ ونكهةٍ إن لم تتناغم مع الجمال. وقد استوحى إلهامه، أيضًا، من دأبه على التوغّل في أسرار النفس البشريّة، والجهد في استكشاف خفاياها، استكشافًا لم يقتصر على العقل وحده، بل كان القلب رائده ونبراسه.

وإلى جانب النفس البشريّة سعى إلى استكشاف أسرار الكون، بسمائه وأرضه، فكان الساهر اليقِظ الدائم، المراقب لكلّ ظاهرةٍ وانبثاق زهرةٍ من التربة. جميع هذه الظواهر كانت تحمل له رسائل لا يجيد تفسيرها أحدٌ مثله، فيتمثّلها، ويجسّدها في عباراتٍ تتميّز بعذوبتها وسحرها.

ومن المحقّق أنّ أحد مصادر إلهامه الأخرى هو ما استقاه من "الأوپانيشاد"، وهي مجموعة نصوصٍ، تنطوي على الحكمة والأدب الهندوسيَّيْن العريقَيْن، وعلى نشدانٍ لمفهوم "البراهمان"، أي الحقّ الأبديّ المطلق، والروح الجامع المنزّه من كلّ ازدواجيّةٍ، الذي تمثّل معرفتُه غايةَ الوجود، وتمثّل النفس قبسًا منه، وما السبيل إلى هذه المعرفة سوى حبّه، أي حبّ الأرض، والمخلوقات الحيّة فيها، والطبيعة، واكتناه معنى الحياة والموت.

ولا ريب أنّ من العوامل التي دفعته في هذا المنحى فقدانه عددًا من أحبّائه، في حين كان يحلم بسعادةٍ هادئةٍ لا يعكّرها معكّرٌ، ما جعله يُقرّ: "معاناتي هذا الألم المضني، أَدخَل وجودي في مساحة الحرّيّة، إذ أدركتُ،

أخيرًا، أنّ رؤية وجه الحياة الحقّ يقتضي النظر إليها من نافذة الموت". ومن ثمّ عزم على ترويض فكرة الموت.

وقد افتُتن طاغور بالطبيعة ومواسمها وتجلّياتها، وقرأ رموزها ورسائلها، ورسمها ببراعةٍ وطلاوةٍ.

وبنفس الهوى أحبّ الله والإنسان، ووظّف كلّ مواهبه للدعوة إلى وحدةٍ كونيّةٍ، بلهجةٍ مسكونيّةٍ تمسُّ قلب كلّ إنسانٍ، استحقّت له لقب "الشاعر الكونيّ".

هذه العوامل، مجتمعةً، كانت المادّة التي صاغ منها طاغور شعره، ولوّن بها معانيه، مضفيًا على شعره الموسيقى والحسّ المسرحيّ النشط اللذين كان بهما كَلِفًا.

وبما أنّ الشعر ليس حلوى يتلذّذ بها المرء لحظة يلتهمُها، اعترف طاغور: "ليس الشعر مادّةً يتقبّلها الجميع، في الحال، بل هي تستلزم وقت إنضاجٍ".

ومع أنّ شعر طاغور ليس من الشعر الصعب الذي يقتضي جهدًا مضنيًا لتفسيره تفسيرًا مفتوحًا عل كلّ وجوه الخطأ والصواب، وهو من نوع السهل الممتنع الذي لا يصعب على أيّ قارئٍ الاستمتاع به، إلاّ أنّه، كلّما أُعيدت قراءتُه قراءةً متأنّيةً، تكشَّفت عن ينابيع متعةٍ جديدةٍ مكنونةٍ. فشعره يتّصف ببساطة الواقع وتنوّعه، وهو، على غرار الواقع في حركةٍ لا تفتر، ومثل أنهار الهند، دائم التدفّق، ناثرًا الحياة. وفيه تمتزج الرؤى الدهريّة، وموسيقى العوالم، ورقصة الكواكب. إنّه ينشد الكلّيّ، ناطقًا باسمه، جاهدًا في التقاط الأبديّ الخالد من قلب اللحظة العابرة. إنّه نشيد شاعرٍ لا يني ينشد القدسيّ.

وفي جميع كتاباته امتزج النفَس الملحميّ، بالنزعة التأمّليّة، والمحاكمة العقليّة. قصائده تخاطب قلب كلّ إنسانٍ، وتهزّ أوتار النفس، موقظةً السموّ الغافي في

أغوارها، ومضرمةً أحرّ ما فيها من صُبُوٍّ إلى الاتحاد الوثيق بالخالق، وملهبةً ظمأها إلى الجمال، والنقاء، والحبّ الأسمى، والخلود.

شعره دهشةٌ أمام روعة الطبيعة، ودورة الحياة المتجدّدة باستمرار. من خلال موسيقى أبياته نصغي، معه، إلى انبجاس الينابيع، وانبثاق الأعشاب، وحفيف أوراق الأشجار، وأناشيد الطيور؛ ونشهد ولادة كلّ فجرٍ نديٍّ، وتفتّح البراعم، ورقصات الكواكب، ونتنسَّم فوح الأزاهير، فتسري، في عروقنا، عدوى ما اعتراه، حيالَ كلّ هذه الإبداعات، من رعشة دهشةٍ وخشوعٍ، حوّلها إلى صلواتٍ، وأناشيد شكرٍ لربّ كلّ جمالٍ.

شِعر طاغور يوقظ خَدَرَ لامبالاتنا، ويدعونا إلى إمعان التأمّل في الجمال الذي نمرّ به ولا نشاهده أو لا نبالي به، ويشركنا في دهشته حيالَه، ويسرّب إلى نفوسنا مذاقًا مسبقًا للسعادة الأبديّة. إنّه يحوّل نظرتنا إلى الحياة، فيجعل من الهنات المألوفة، التي لا نعيرها اهتمامًا، جواهر نفيسةً، وينابيع متعةٍ صافيةٍ. إنّه يجرّد الحياة اليوميّة المنغمسة في الرتابة والرداءة من تفاهتها، ويُسبلُ عليها حلّةً أخّاذةً من بهاءٍ وفتنةٍ.

ولا عجب في ذلك، فالله هو الذي يشاهده في كلّ مفاصل الكون، وفي قلوب البسطاء الأنقياء من البشر.

بأبيات قصائده يرسم طاغور لوحةً للعالم المثاليّ الذي لا يكفّ يتطلّع إليه، عالمٍ حافلٍ بالفرح والجمال والحبّ.

هذا، وكان طاغور غزير الإنتاج، وقد صرّح أنّه كان ينظم، كلَّ يومٍ، قصيدتَيْن أو ثلاث قصائد، فضلاً عن كتاباتٍ أُخرى، وعن تأليف أناشيد وتلحينها، وعن رسم لوحاتٍ.

وكانت نتيجة هذا النشاط أثرًا فنّيًّا ثرًّا، يتألّف من نحو ثلاث مئة مؤلَّفٍ، منها خمسون مجموعةً شعريّةً، وما ينيف عن ألفي نشيدٍ موسيقيٍّ، وعشرات الروايات، والأبحاث الفلسفيّة والدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة.

وقد نظم طاغور أُمّهات قصائده باللغة البنغاليّة المحكيّة التي أغناها بحسّه الموسيقيّ، وأكّد الذين استمعوا إليه وهو يلقي بعض قصائده بهذه اللغة، أنّ إلقاءه كان يُشيع جوًّا ساحرًا حافلاً بالنشوة والانخطاف، يتعذّر نسيانه.

ولكنّ شعر طاغور عُرف عالميًّا من خلال ترجماتٍ قام هو نفسه بمعظمها إلى الإنكليزيّة، ومنها تُرجمت إلى مختلف اللغات. ولا ريب أنّ ما من ترجمةٍ بقادرةٍ على إسماع الموسيقى التي كانت تتردّد أنغامها في صدر الشاعر، والتي سكبها في طوايا أبياته بلغتها الأصليّة. ولكن، وإن أضاعت الترجمة موسيقى النصّ الأصليّة، إلاّ أنّها لا تفقده ما يزخر به من سحر المعاني، ورقّة المشاعر، وسموّ النظرة، ونكهةٍ فريدةٍ.

وحريٌّ بنا أن نورد في نطاق هذا التعريف برابندرانات طاغور، ما قاله عنه الفيلسوف ورئيس الدولة الهنديّ Radhakrishnan: "إنّه أحد قلائل ممثّلي الإنسان العالميّ الذي يخصّ مستقبل العالَم".

وقال هنديٌّ آخر: "إنّ طاغور هو أوّل قدّيسينا الذين لم يرفضوا الحياة، بل إنّه من صُلْب الحياة استمدّ إلهامه. ولهذا السبب، بالتحديد، نحن نحبّه".

وقال ألبير شفيتزر: "هذا المفكّر المُشبَع نبلاً وتناغمًا، والذي يُعدُّ "غوتيه" الهند، لا يخصُّ شعبَه فحسبُ، بل إنّه يخصّ البشريّة جمعاء".

وخير ما نختم به هو ما قاله الكاتب الفرنسيّ "رومان رولان"، في صديقه "رابندرانات طاغور" الذي وصفه بـ"الشاعر النبيّ":

« محيّا وقورٌ يلفّه السرّ. حديثُه الهادئ، حركاته المتناغمة، النور المنبعث من عينيه البنّيّتيَين المظلّلتين بحواجب جميلة، كلّ ذلك يشعّ سجوًّا مهيبًا. عندما يلتقيه المرء للمرّة الأولى يعتريه شعورٌ بأنّه يلجُ كنيسةً، فيتكلّم بصوتٍ خافتٍ. ثمّ، إن قُيِّض له تأمّله عن كثبٍ، يتبيّن تحت سجوّ الملامح وموسيقاها، ماضي أحزان تمّت السيطرة عليها، ورؤيةً محرَّرةً من الأوهام، وذكاءً منيعًا يواجه، بحزمٍ، صراعات الحياة، بمنأًى عن الاستسلام والاضطراب.

"وتطوف بالبال، حينذاك، قصائده الأثيريّة المنسوجة بظلالٍ وأضواءٍ تتفجّر، من خلالها، تعاليم "الـقـيدا" النيّرة، متّشحةً بالغلالات التي تتزيّا بها النفس الخالدة، الحاجّة الصوفيّة المرتحلة من عالمٍ إلى عالمٍ. وتتوارد إلى الذاكرة النبوءات العلنيّة الموجّهة إلى أُمم الأرض، منذرةً بالمخاطر التي تهدّد حضاراتٍ كانت تزدهي بمنعتها، وانهارت ».

ويشير "رولان" إلى أنّ ذلك الصوفيّ لم يفتقر – أُسوةً بحكماء الهند وصوفيّيها وشعرائها – إلى روح الفكاهة الذي يوفّر للمتأمّلين عامل التوازن. "فذلك الحالم المستغرق في تأمّلاته، يراقب، مبتسمًا، هزليّة العالم المأسويّة".

"ولد طاغور في حقبةٍ عصيبةٍ تتصارع فيها مصائر البشريّة، ولا سيّما مصير شعب الهند بأعداده الوفيرة. وأُوكلت إليه مهمّة إرشاد أبناء عصره الباحثين عن منفذٍ وسط لجّةٍ هائجةٍ. ومن ثمّ، فقد احتلّت كتاباته الشعريّة والنبويّة، ذات الصبغة التنويريّة، حيّزًا أساسيًّا".

* * *

لقد تجوّلتُ مسحورًا بين جنبات حدائق طاغور الفسيحة الغنّاء، المّوارة بكـــلّ رائعٍ فاتنٍ، وسعيت إلى نظم أُضمومةٍ من أزاهيرها المتنوّعة الألـــوان والعطـــور؛ ولئن احتلّت منها روائع الشعر المكانة الأثيرة، غير أنّها لم تستأثر بالمكان كلّه، بل فسحت مجالاً لائقًا للخواطر والحِكَم والتأمّلات الصوفيّة التي ارتقى منها طاغور قمّةً شمّاء شاهقةً.

ومع أنّ كثيرين سبقوني إلى ترجمة معظم أعمال طاغور الشعريّة، إلاّ أنّـــني لم أقِفْ، حتّى الآن، على ترجمةٍ لخواطره، وحِكَمه المأثورة وتأمّلاته، والتي يســـعدني زفّها إلى محبّي طاغور الذين ما برحوا يقرأون العربيّة.

ولا ريب أنّ هذه المجموعة ليست سوى غيضٍ من فيض الإرث الطـــاغوريّ الثرّ، ونموذجٍ مصغّرٍ لنتاج عبقريّته الفذّة.

الجُزءُ الأوَّل

باقاتٌ شعريّةٌ

من ديوان

"القمر الفتى"

من أيــن؟

"من أينَ أنا قدمتُ؟ أينَ وجدتِني؟ "هكذا سأل الطفل أمَّه.

فبكَتْ، وضحكَتْ معًا، وضمّتْ الطفلَ إلى صدرِها، وأجابتْ:

"كنتَ مختبئًا في قلبي، يا حبيبي، كنتَ أنتَ أُمنيَّتي.

"كنتَ كامِنًا في دُمى طفولتي، وعندما كنتُ، كلَّ صباحٍ، أصوغُ، من صلصالٍ، صورةَ إلهي، كنتَ، أنتَ، من لا أنفكّ أصنعُه وأُتلفه كي أعيدَ صنعَه.

"كنتَ على الهيكلِ، مع آلهةِ منْزِلنا، ومن خلالِ عبادتي لها، كنتُ أعبدُكَ،

"في كلّ ما خالجني، يومًا، من آمالٍ وحبٍّ، في حياتي، وحياةِ أُمّي، كنتَ أنتَ تحيا.

"إنّ الروحَ الخالدَ، الذي يبسط على منْزلنا سيادتَه، قد طالما داعبكَ في أحشائي منذ الأزل.

"في عهدِ مراهقتي، عندما تفتَّقتْ بتلاتُ قلبي، غمرتَها، أنتَ، عِطرًا فوّاحًا.

"نداوتُكَ الرقيقةُ أسبغتْ على أعطافي لمسةً مخمليَّةً، مثلَ الشفق الزهريّ الذي يتقدَّمُ الفجرَ،

"أنتَ، يا حبيبَ السماء، يا توأَمَ شعاعِ الصباح الأوّلِ، قد خطفتْكَ أمواجُ الحياةِ الشاملة، وحطّتْ بكَ، أخيرًا، على قلبي.

"وفيما أحدّقُ في محيّاكَ، تغمرُني موجةُ السرِّ: فأنتَ، مُلكُ الجميع، قد بتَّ نصيبي، أنا وحدي.

"وخشيةَ أن تُفلتَ منّي، أشدُّك إلى قلبي. تُرى أيُّ سحرٍ ذاك الذي أَودعَ، بين ذراعيَّ النحيلتَين، كنْزَ العالمِ؟"

نـزواتُ الطفــلِ

قد يطيرُ الطفلُ إلى السماءِ، في الحالِ، لو راودَتْه في ذلك رغبةٌ، ولكنّ لديه من الأسبابِ ما يُمسكُ به عن مبارحتِنا: ففي إلقاء رأسِه على صدرِ أمِّه، تكمنُ سعادتُه كلُّها، ولا شيءَ في الدنيا، يحملُه على نزعِ أبصارِه عنها.

* * *

يُعبّر الطفلُ عن حكمتِه بعباراتٍ بارعةٍ. ولكن ما أندرَ مَن يستطيعون استيعابَهَا!

ولئن هو أَمسكَ عن الكلام، فله، لذلك أسبابُه، فهو حريصٌ على أن يبدأَ فيتعلّم لغةَ أمِّه، من شفاهِ أُمِّه، دون سواها. ولذلك، هو يبدو على قدرٍ من البراءة جمٍّ.

* * *

مع ما كان يملكُ من أكوامِ الذهبِ واللآلئِ، غشى الطفلُ أرضَنا مثلَ المتسوِّل.

وكان لديه من الدوافعِ ما يحملُه على هذا التنكُّرِ.

فهذا الصغيرُ الحبيبُ، في عُرْيِه وتوسُّله، يصطنع الإملاقَ التامّ، كي ينتزع من أُمِّه كلَّ كنوز حنانها.

* * *

في بلادِ الهلالِ الرقيق، لا قيدَ كان يحدّ حرّيّة الطفلِ،

وكان لديه من الدوافع ما حَمَلَه على التخلّي عن استقلاله،

فهو يعرفُ أنّ ذلك العشَّ الصغيرَ، قلبَ أُمِّه، ينطوي على أفراحٍ لا تنضبُ
ويعلم أنَّ رقَّةَ ضمَّةِ ذراعَيْ أُمِّه، أعذبُ من الحرّيّةِ، بلا قياسٍ.

* * *

في بلادِ السعادةِ التامَّة، حيث كانَ يُقيمُ، كان الطفلُ يجهلُ البكاءَ، وكان له ما دفعَه على اعتيادِ ذرف الدموعِ،
فأحشاءُ أُمِّه تحرِّكُها بسمةُ محيّاه العذبِ، ولكنَّ صرخاتِه الصغيرةَ التي تثيرُها أكدارُ طفولتِه هي التي تنسجُ بينَها وبينَه وشائجَ مزدوجةً من حنانٍ وحبٍّ.

القـاضي

قولوا فيه ما يحلو لكم، فأنا على علمٍ بأخطاءِ ولدي.
لستُ، لأنّه هادئٌ ومُنتَظِمٌ، أحبُّه، بل لأنّه ابني الصغيرُ.
أيُّ علمٍ لكم بما هو يقوى على إيحائِه من حنانٍ، أنتم الذين تدّعونَ إثباتَ كلّ خصالِه ومثالبِه، على وجهِ الدقّة؟
عندما يتعيّنُ عليّ معاقبتُه، حينئذٍ يغدو وإيّايَ واحدًا،
وعندما أُفجّر نبعَ دموعِه ينتحبُ معه قلبي،
وحدي، أنا، أستطيع لومَه وعقابَه،
فوحدَه مَن يحبُّ يحقُّ له التأديب.

افتــراءٌ

علامَ هذه الدموعُ في عينَيْكَ، يا بنيّ؟

آه! ما أقبحَهم أولئكَ الذين لا ينفكّون يقرّعونَكَ من جرّاءِ هناتٍ تافهةٍ! لقد لطَّختَ بالحبرِ وجهَكَ ويدَيْكَ، وأنت تكتُبُ. أَوَمِن أجــل ذلــك، يتّهمونَــكَ بالقذارة؟

تبًّا لهم! أهل يجرؤون على وصفِ البدرِ بالقذارةِ لأنّ وجهَه ملطّخٌ بالحبر؟

من أجل هناتٍ سخيفةٍ يلومونكَ، يا بنيّ، ولا يتورّعون عن مضايقتِكَ لأسبابٍ تافهةٍ.

لقد مزّقتَ ثيابَكَ، وأنت تلعب: أَمِن أجلِ ذلكَ يصفونَك بالاستهتار؟ تبًّا لهم! ما قولُهم، إذن، في صباحِ خريفٍ يبتسمُ من خلال مِزَقِ الغيوم؟

لا تأبهْ لكلامِهم يا بنيَّ، ولا بما ينظِّمونَه من لوائحَ لا متناهيةٍ تعدِّدُ مثالبَكَ!

ليس مَن يجهلُ كلَفَكَ بالحلوى: أوَمِن جرّاءِ ذلك، يتّهمونَك بالنهَم؟

تبًّا لهم! بمَ سيرشقونَنا، إذن، نحن الذين يحبّونَك؟

النبـــع

الوَسَنُ الذي يحطُّ على عينَي الطفلِ، هل مَن يعرفُ مصدرَه؟

أجل، فهناك شائعةٌ ساريةٌ تقول إنّ في الغابةِ الظليلـــةِ قريـــةَ جـــنٍّ، تنيرُهـــا اليراعاتُ، وفيها بُرعُما خشخاشٍ مسحورٍ يتفتّحانِ في رعشةٍ، ومنـــهما ينطلـــقُ النعاسُ، كي يأتي فيقبّل عيونَ الطفلِ.

والبسمةُ التي تختلجُ على شفتَي الطفل، وهو نائمٌ، هل مَن يدري أين تولد؟

أجل، هناك شائعةٌ ساريةٌ تقول إنّ شعاعًا فتيًّا شاحبًا من البدر، قـــد لامـــسَ حاشيةَ غمامةِ خريفٍ تهمُّ بالتلاشي، وهناك، من ثنايا حلم صباحٍ مبلّلٍ بالنـــدى، وُلِدت البسمة التي تختلجُ على شفَتَي الطفلِ، في نومِه.

النداوةُ الرقيقةُ المخمليّةُ التي تزدهرُ على أعضاءِ الطفل، هل مَن يعلمُ أين هي قد طالما اختبأتْ؟

أجل! فعندما كانت أُمُّه شابَّةً، كانت النداوةُ الرقيقةُ المخمليّةُ، التي تزدهـــرُ اليومَ على أعضاءِ الطفلِ تُفعمُ قلبَها العذريَّ.

فيا لسرِّ الحبِّ الرقيقِ الصامتِ!

الموكـبُ اللامرئيُّ

آه! من ذا الذي صَبَغَ ثوبَكَ الصغيرَ يا بنيَّ؟
ومن ذا الذي وشّحَ أعضاءَك الرقيقةَ بهذا الثوبِ الأُرجوانيّ؟
في الصباحِ خرجتَ إلى فناءِ الدارِ كي تعبثَ وتركضَ، متعثّرًا تارةً، وواقعًـا، تارةً أُخرى.
ولكن من ذا الذي صبغَ ثوبَكَ الصغيرَ، يا بنيَّ؟

* * *

ما الذي يجعلُكَ تضحَكُ، يا بُرعُمَ حياتي؟
أُمُّكَ الواقفةُ عند العتبةِ تبتسمُ لكَ، وعلى إيقاعِ تصفيقِها، ورنَّاتِ أساورِها، أنت ترقُصُ، وبيدِكَ خيزرانَتُكَ، مثلَ راعٍ صغيرٍ.
ولكن مَن ذا الذي يجعلُكَ تضحكُ، يا برعمَ حياتي؟

* * *

أيُّها المتسوّلُ الصغيرُ، ما الذي تبتغيهِ من أُمِّكَ، ويجعلكَ تتشـبَّثُ بعُنقِهـا، بيَدَيْكَ كلتيهما؟

أيُّها النهِمُ الصغيرُ، هل تريدني أن أَمضي كي أقطفَ لك الأرضَ في المـدى، كما تُقْطَفُ الثمرةُ، وأضعَها على راحةِ يدِكَ الصغيرةِ؟

أيُّها المتسوّلُ الصغيرُ، ما الذي تطالبُ به؟
النسيمُ يمضي حاملاً رنّاتِ الجلاجل المعلّقةِ بكعبَيْكَ الصـغيرين، والشـمسُ ترقبُ اغتسالَكَ باسمةً،

السماءُ تنحني عليكَ عندما تغفو بين ذراعَيْ أُمِّكَ، والصباحُ يدنو من سريرِك خِلسةً، على مَهَلٍ، كي يقبّلَ عينَيْكَ.

وترنُّ أجراسُ خِلخالِ كعبَيْكَ النحيفَين، وتنْــزلق رنَّتُها الجذلى علـــى مـــتنِ النسيمِ.

* * *

إنّ الجنِّيَّة موزِّعةَ الأحلامِ تجتازُ الشفَقَ وهي طائرةٌ صوبَكَ،

والأُمُّ الكونيّةُ نصبتْ عرشَها بقربِكَ، في صميمِ قلبِ أُمِّكَ.

وذاك الذي لا تسمعُ موسيقاه سوى النجومِ قد انحدر نحوَكَ، وها هو ذا مـــع مزمارِه، عند نافذتِكَ،

والجِنِّيَّةُ، موزِّعةُ الأحلامِ، تجتاز الشفَقَ طائرةً صوبَكَ.

متى ولمـــاذا؟

عندَما آتيكَ بدمًى زاهيةِ الألوانِ، يا بنيَّ، أُدرِك مصدرَ الألوانِ المتموِّجةِ الــتي تغشى المياهَ والسحبَ، وسبَبَ زهوِّ الزهورِ بالأصباغِ؛ أجل أُدرِكُ هــذا الســرّ عندما آتيكَ بدمًى زاهيةِ الألوانِ، يا بنيَّ.

عندما أشدو كي ترقصَ أنتَ، أُدركُ سرَّ النغمِ بين الأفنانِ، ولمــاذا تنســابُ معزوفةُ الأمواجِ إلى أحشاءِ الأرضِ اليقظى؛ أُدركُ ذلك عندما أشدو، كي ترقُصَ أنتَ.

عندما أمدُّ نحوَ يديكَ المرتعشَتَيْن رغبةً، مُتعًا حلوةً، أُدرِكُ سرَّ العسلِ يملأُ كمّ الزهرةِ، وسرّ الرحيقِ العذبِ الذي به تنتفخُ الثمرةُ، أُدرِك ذلك، عندما أمدُّ نحو يديكَ المرتعشتَيْنِ رغبةً، مُتَعًا حلوةً.

عندما أقبِّلُ محيّاكَ كي ترتسمَ عليه البسمةُ، يا طفلــي العزيــز، أُدركُ إدراكَ اليقين، سرَّ المتعةِ التي تسكبُها السماءِ، مع الصباحِ المُشرقِ، وسرَّ اللذّةِ التي تلفُّ بها نسمةُ الصيفِ جسمي. أُدرِكُ ذلك، عندما أُقبِّلُ محيّاكَ، كي ترتســمَ عليــه البسمةُ.

ألعــابٌ

كم أنتَ سعيدٌ، أيُّها الولدُ، وأنتَ مفترشٌ الترابَ، تلهو سـحابةَ الصـبيحةِ كلّها، بطرَف غصنٍ مكسورٍ!

وكم أبتسمُ لرؤيتِك تلهو بهذه القطعةِ الخشبيّةِ!

أنا مشغولٌ بتنظيم الحسابات، وبجمع الأرقام مدى ساعاتٍ.

وربَّما أنتَ ترمقُني شزرًا، قائلاً: "يا لحماقة هدر ساعات الصـباحِ في هـذا العبث!".

أيُّها الولدُ، لم تعُد العصيُّ، وعماراتُ الترابِ تستهويني. فقد فقَدتُ هذا الفنّ.

إنّي أَنشُدُ أُلهياتٍ أبهظَ كلفةً، وأُكدِّسُ ذهبًا وفضَّةً.

أنت تعبثُ، فرحًا، بكلِّ ما تقعُ عليه يداكَ، وأنا أُنفقُ قواي ووقتي بحثًا عـن أشياءَ لن يتسنّى لي أبدًا الفوزُ بها.

بمركبي الهشِّ أجهد في اجتيازِ بحرِ رغباتي، ناسيًا أنّ عملي هذا لـيس سـوى عبثٍ ولهوٍ.

الفلــكيُّ

"آه! ليتَ أحدًا يستطيع الإمساك بالقمرِ، ذاتَ ليلةٍ، عندما تكتملُ دائرتُــه، ويكون عالقًا بأغصانِ الشجرة!". هذا كلّ ما تلفَّظْتُ به.

وسخرَ منّي أخي الأكبر، قائلاً: "أيُّها الصغيرُ، أنتَ أكبر أحمقَ عرفتُه، يومًا. إنّ القمرَ، هناكَ، بعيدٌ جدًّا، فما السبيلُ إلى التقاطِه؟".

قلتُ: "بل أنت الأحمقُ، يا أخي الأكبر، فعندما ترقبُنا أُمُّنا من النافذةِ، ونحــن نلعب في فناء الدارِ، وتبعثُ إلينا ببسماتها، هل يمكنكَ الزعمُ بأنّها بعيدةٌ جدًّا؟".

وأجابَ أخي: "أيُّها الجاهلُ الصغيرُ، أين يمكن الحصولُ على شبكةٍ قادرةٍ على احتواءِ القمرِ؟".

فقلتُ: "ما عليكَ سوى التقاطه بيدَيْكَ!".

ولكنّ أخي الأكبرَ أغرقَ في الضحكِ، وقال: "لم أرَ، قــطُّ، ولــدًا في مثــل سذاجتِكَ. انتظر حتّى يقتربَ القمر، وحينئذٍ ستتبيَّنُ كم هو كبيرٌ".

فقلتُ: "يا أخي، ما هذه الحماقاتُ التي يلقّنونكَ إيّاها في المدرســةِ! فعنــدما تنحني أُمُّنا علينا كي تقبِّلنا، هل يبدو وجهُها مفرطًا في الكبَر؟".

وكرّر أخي الأكبرُ قولَه: "إنّك لصغيرٌ أحمقُ!"

مدرسةُ الزهــورِ

عندما تزمجرُ السماءُ العاصِفَةُ زمجرةً مكتومةً، وينهمر وابلُ حزيران، تنطلــق الريحُ الشرقِيّةُ الرطبةُ وتجوسُ خلال حقولِ أزهار الخلنج البنفســجيّةِ، نافحــةً بمزاميرِها القربيّةِ، وسط نبتات البامبو.

حينئذٍ يتفتّح موسمُ الزهورِ بغتةً، ولا أحدَ يدري من أين تأتي، وتنظِّمُ حلقاتِ رقصٍ مجنونةً فوق العشب.

أُمّاه، أظنُّ أنّ للأزهارِ مدرسةً تحت الأرضِ.

عندما تكتبنَ وظائفهنَّ، توصَدُ عليهنّ الأبوابُ، وإن هنّ رغبنَ في الخروج قبلَ الأوانِ كي تلعبْنَ، يُكرِهُهُنَّ المعلّمُ على الانزواءِ في زاويةٍ. ولا تنعَمنَ بعطلتهنّ إلاّ عندما يحينُ موسمُ الأمطار.

حينئذٍ تصطفقُ الأغصانُ في الغابة، وترتعشُ الأوراقُ كلّما عصفَتْ بها الرياحُ الهوجاءُ، وتصفّقُ الغيومُ الجسيمةُ، وينبعثُ الأولادُ الزهورُ، مــزدانين بــأثوابٍ زهريّةٍ، وصفراءَ، وبيضاء.

هل تعلمينَ، يا أُمّاهُ، أنّ الزهورَ تقطنُ في السماءِ، في ديــارِ النجــومِ؟ أفلَــمْ تلحظي لهفتهنَّ إلى الصعود؟ ألا تعلمينَ ما الذي يدفعهنَّ إلى الصــعود دفعًــا لا يقاوَمُ؟

ولكنّني، أنا، أتخيَّل نحو مَنْ هنّ تمددْنَ أذرعتهنَّ: هنّ، نظيري، لهنَّ أُمٌّ.

غيـومٌ وأمـواجٌ

أُمّاه، إنّ قاطني العلاءِ، بين النجوم، يدعونَني قائلين:

"نحن نلهو منذُ يقظتِنا حتّى آخرِ النهارِ، عابثين بــالفجرِ الــذهبيّ، وبــالقمرِ الفضّيِّ".

وأسألهم: "ما السبيلُ للوصولِ إليكم؟".

فيجيبون: "تعالَ إلى حافّة الأرضِ، ثمّ ارفعْ يدَيْكَ نحو السماءِ، فتُرفعُ إلى النجومِ".

ولكنّني أعترضُ: "أُمّي تنتظرُني في المنْــزلِ، فكيف لي أن أتركَها وآتي؟".

وحينئذٍ يبتسمون، ويرفرفون، ويجتازون.

ولكنّني أعرف لعبةً أجملَ من تلك:

"سأكون أنا الغيمةَ، وأنتِ القمرَ، يا أُمّاه. وسأغطّي محيّاكِ بيديّ كلتيهما.

وسيصبحُ سقفُ بيتِنا سماءً زرقاءَ".

* * *

إنّ الذين يعيشونَ في الأمواج، ينادونَني قائلين:

"نحن نُنشِدُ منذ الصباحِ حتّى المساءِ، ونتقدَّمُ دائمًا، ولا ندري أيَّ مكانٍ نجتاز".

وأسألهم: "ما السبيلُ للانضمامِ إليكم؟".

فيقولون: "تعالَ إلى حافّةِ البحر، وقفْ، وأغمــضْ عينَيْــكَ، وســتحملكَ الأمواجُ".

وأُجيبُ: "ولكن عندما يحين المساءُ، لن تحتملَ أُمّــي غيــابي، فكيــف لي أن أهجرَها، وأمضي؟".

وحينئذٍ يبتسمون، ويرقصون، ويناَوْن.
ولكنّني أنا أعرف لعبةً أكثر مدعاةً للتسليةِ من تلك:

"سأكون أنا الأمواجَ، وستكونينَ أنتِ، يا أُمّاه، الشاطئَ البعيدَ، وسأزحفُ وأزحفُ، ومثلَ موجةٍ تتكسَّرُ، سترتمي ضحكتي على ركبتَيْكِ.
ولن يعلمَ أحدٌ في العالم مكانَنا، أنتِ وأنا".

تعـاطفٌ

لو لم أكُنْ طفلَكِ، أُمّي الحبيبة، بل كنتُ مجرّدَ كلبٍ صغيرٍ، ورغبتُ في أن آكلَ من صحفتِك، فهل كنتِ ترفضين؟
أتُراكِ كنتِ تنهريني قائلةً: "إليكَ عنّي، أيُّها الجروُ القبيحُ"؟
إذن، إليكِ عنّي، يا أُمّاه، إليكِ عنّي، لن أُلبّيَ، من بعدُ، نداءَك، يومًا، ولن أدعَك، أبدًا، تقدّمين لي طعامًا.
لو كنتُ مجرّدَ ببغاء خضراء صغيرةٍ، ولم أكُنْ طفلَكِ، أُمّي الحبيبة، هل كنتِ ستقيّدينني، لئلاّ أطير؟ أو كنتِ تتوعّدينني بإصبعِك قائلةً: "يا له من طائرٍ قبيحٍ، ناكرٍ للجميل، يقضمُ قيدَه ليلَ نهار!"؟
إذن، إليكِ عنّي، يا أُمّاه، إليكِ عنّي، سأفرُّ إلى الغابات، ولن أدعَكِ من بعدُ، تأخذيني بين ذراعَيْك.

زهـرةُ "الشامـپا"[١]

لو، في سبيل اللهوِ، أصبحتُ زهرةَ "شامـــپـــا"،
وترعرعتُ، عاليًا، فوقَ غصن إحدى تلك الأشجارِ،
وأَغرقتُ في الضحكِ، ورقصتُ بين الأوراقِ المتفتِّحةِ حديثًا، كلّمـــا هـــزّتْني الريحُ، فهل سيكون بوسعكِ أن تتعرّفيني، حينئذٍ، يا أُمّاه؟

لربّما كنتِ ستناديني: "أين أنتَ يا صغيري؟". ولكنتُ ضحكتُ بلا ضجيجٍ، ملتزمًا السكونَ.

ولكنتُ أشرعتُ، خلسةً، بَتلاتي، وراقبتُكِ، وأنتِ تعملينَ،
وإثرَ اغتسالِكِ، وإذ ما زالَ شعركِ رطبًا مرسلاً على كتفيكِ، وفيما أنت تعـــبرين، تحت ظلّ شجرة "الشامـــپـــا"، وشعرك الرطب مسترسلٌ على كتفَيْكِ، قاصدةً الفناءَ الصغيرَ، من أجل تلاوةِ صلواتِكِ، لكنتِ شَمَمْتِ أريجَ الزهرةِ، جاهلةً أنّه يتضوّع منّي.

وبعد الغداء، عندما تجلسين إلى نافذتِكِ، كي تطالعي كتاب "رامايانا" المقدَّسَ، ويطوف ظلُّ الشجرةِ على شعرِكِ، وعلى ركبتَيْكِ، سأُلقي طيفَ الزهرةِ النحيلَ على صفحةِ الكتاب، وبالتحديدِ على المقطع الذي تطالعينه، فهل سيجولُ ببالكِ أنّ ذاك هو ظلُّ صغيرِكِ النحيلُ؟

وفي المساء، عندما ستقصدين زريبةَ البقرِ، ممسكةً مصباحَكِ المُضاءَ، سأهوي، فجأةً، على الأرض، وأعودُ طفلاً، وأرجوكِ أن تروي لي حكايةً، فتسأليني:
– "أين كنتَ، أيُّها الولدُ الشقيُّ؟".
– "لا أُريد أن أُقرَّ لكِ بذلكَ، يا أمّاه!".
هذا ما سيقوله أحدنا للآخر.

---

[١] "الشامـپا" شجرةٌ كبيرةٌ، دائمة الخضرة، تعطي زهورًا جميلةً، وهي تنبت في الهند وجوارها.

هدايا التاجرِ المسافر

أُمّاه، لنتخيَّلْ أنَّكِ ستمكثينَ في البيت، فيما أنا أُسافر عبرَ بلادٍ مجهولةٍ.مركبي راسٍ في المرفأ، مجهَّزٌ ومُثقَلٌ بالبضائعِ.

والآن أعملي الفكرَ مليًّا، أُمّاه، قبل إفصاحِكِ عمّا ترغبينَ في أن آتيَكِ به.

أُمَّاه، هل تودِّينَ أن آتيَكِ بذهبٍ، ذهبٍ وفيرٍ؟

فهناك على ضفاف أنهارِ الذهبِ، الحقولُ زاخرةٌ ببيادرِ الذهب،

وفي ظلالِ الغابةِ، زهورُ "الشامـــپـــا" الذهبيّةُ تتساقطُ على الثرى، سأجمعُها كلَّها من أجلكِ، وأملأُ بها مئاتِ السلالِ.

أُمَّاهُ، هل تودِّينَ جواهرَ في مثلِ جسامة قطراتِ مطرِ الخريف؟

سأُبحرُ حتّى ضفافِ جزيرةِ اللآلئ؛ وهناكَ، في الصباحِ الباكر، على الزهـــورِ البرِّيَّة، تتأرجحُ لآلئُ خفيفةٌ، وتهمي، قطرةً قطرةً، على العشب. وينتشـــرُ زبـــدُ الأمواج اللعوبِ لآلئَ على رمالِ الشاطئ.

وسآتي لأخي بحصانينِ مجنَّحَيْنِ، يطيرانِ به إلى النجومِ.

ولأبي سآتي بريشةٍ سحريّةٍ تكتبُ تلقائيًّا، على غفلةٍ منه.

ومن أجلِكِ، يا أُمَّاهُ، ينبغي أن أحصَلَ على الجوهرةِ وصندوقِها،

اللذَيْن دفع سبعةُ ملوكٍ ممالكَهم، ثمنًا لهما.

ساعي البريدِ الخبيثُ

لماذا تظلّين على الأرضِ قابعةً، أُمّاهُ الحبيبة، في سكينةٍ وصمتٍ؟ أجيبيني.

المطرُ يتسرَّبُ من النافذةِ المشرعةِ، وقد غشاكِ البَللُ، وأنتِ عن ذلك في ذهولٍ. أتسمعين الصنجةَ تعلن الساعةَ الرابعةَ؟ إنّه موعد عودة أخي من المدرسة. ماذا دهاكِ؟ ولَمَ تبدين على هذا النحو الغريب؟

ألم تتلقَّي، اليومَ، من أبي رسالةً؟

لقد رأيتُ الساعي، يحمل في قمطرِه رسائلَ لمعظمِ أهلِ المدينة. أمّا رسائلُ أبي فيحتفظ بها، كي يقرأَها بنفسِه،

إنّني على يقينٍ بأنّ الساعي رجلٌ خبيثٌ.

ولكن، لا عليكِ يا أُمّاهُ الحبيبة،

غدًا سيكون في القرية المجاورة يومَ سوقٍ، فمُري الخادمةَ بشراء الأقلامِ والقرطاسِ، وسأكتبُ بنفسي جميعَ رسائلِ أبي، ولن تكتشفي فيها هفوةً واحدةً.

سأكتبُ من أ إلى ك:

ولكن لَمَ تبتسمين يا أُمّاه؟

ألا تظنّين أنّي قادرٌ على الكتابة كتابةً سليمةً، مثلَ أبي؟

سأُعنى بإصلاح القرطاسِ، وسيكون كلُّ حرفٍ جميلاً وكبيرًا،

وعندما، سأفرغ، أتظنّين أنّي سأكونُ في مثل غفلةِ أبي، فأقذف برسالتي في قمطرِ ذلك الساعي الزريّ؟

لا بل سآتيك بها بنفسي، ومن غير تلكُّؤٍ، وسأعينُك على قراءةِ ما كتبتُ لك، حرفًا حرفًا.

يا له من ساعٍ! إنّني أعلمُ أنّه يأبى موافاتَك بما تؤثرينَه من رسائل.

النهـــاية

أُمّاه، آنَ لي أن أرحلَ، وها أنا ماضٍ.

عندما ستنسابُ الظلمةُ المحتضِرةُ، ليحلَّ محلَّها الفجرُ المتوعّدُ، فتمدِّين، من سريرِك، ذراعَيْكِ صوبَ طفلِكِ، سأقول لك: "طفلُكِ ليسَ هنا". أُمَّاه، أنا ماضٍ، سأنقلبُ نسمةً رقيقةً، وسأداعبُك، وعندما تستحمّين، سأكونُ تموّجَ الماء، وسأُغطّيكِ بقُبَلٍ متتاليةٍ.

وعندما ينقرُ المطرُ على الأوراقِ، في الليالي العاصفة، ستسمعين، في سريرِك همساتي، وفجأةً، مع البرق، ستجتاز ضحكتي نافذتَكِ، وستتفجَّرُ في حجرتكِ.

وإذا ما راودتكِ ذكرى طفلِكِ، وأقصت النومَ عن جفنَيْكِ حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، فسأنشد من ذرى النجوم: "اُرقدي، يا أُمّاه، اُرقدي".

وسأتسلّلُ مع أشعّةِ القمر الشاردةِ، فوق سريرِكِ، وسأَتسرّبُ إلى أعماقِ نومِكِ، وستستيقظينَ مرتعِشةً، وفيما تتلفّتين من حولِك، سأنسلُّ بعيدًا، في طرفةِ عينٍ، كاليراعة.

وعندما سيأتي أولادُ الجيران، في عيد "بوجا" الكبير، كي يلهُوا في جوارِ المنْزل، سأذوبُ مع موسيقى المزاميرِ، وسأختلجُ في قلبِك طوالَ النهار.

وستقدم خالتي مثقلةً بهدايا "بوجا" وستقولُ لكِ: "أين طفلُنا، يا أُختاه؟" وأنتِ، يا أُمّاه، ستجيبينها بعذوبةٍ: "هو في حدقةِ عيني، في جسمي، وفي روحي".

بـركــةٌ

بارِكْ هذه النفسَ ناصعةَ البياض، التي اكتسبت، للأرض، قبلةَ السماء.

بارِكْ هذا القلبَ الرقيقَ، الذي يهوى نورَ الشمس، مثلما يهوى التأمّـــلَ في وجهِ أُمِّه.

لم يتعلّم ازدراءَ الغبارِ، ولا اشتهاءَ الذهبِ، فشُدَّه إلى قلبِكَ وبارِكْه.

لقد وافى هذه البلادَ ذاتَ المئة مفترقًا، ولكن، كيف، وسطَ الجمـــوعِ، هـــو اصطفاكَ دونَ سواكَ، وعندما انتهى إلى بابِك، استفسرَك عن الطريق بقبضةِ يدٍ صامتةٍ وسيتبعُكَ، متحدّثًا، ضاحكًا، لا تراودُ قلبَه أيّةُ ريبةٍ، فلا تُبدّد ثقتَه، قُدْهُ في الطريقِ السويِّ، وبارِكْه.

ضعْ يدَيْكَ على رأسه، واسألْ، في دعائِكَ، أن تنفخَ أشرعتَه ريـــحٌ علويّـــةٌ، لتقودَه إلى شاطئ السكينة، حتّى عندما تنتصبُ الأمواج شامخةً، متوعّدةً.

وإيّاكَ أن تذهلَ عنه، في زحمة انشغالك: بل أشرعْ له قلبَكَ، وبارِكْه.

عطـــاءٌ

أودُّ أن أنفحَكَ عطاءً، يا بنيَّ، فالحياةُ تجرفنا، على غير هُدًى.

ستفرّقُنا الأقدارُ، وسيصبحُ حبُّنا منسيًّا.

أنا، لا ريبَ، لستُ من السذاجةِ بحيثُ أتوهّمُ القدرةَ علـــى ابتيـــاعِ قلبِـــك بهداياي.

فعودُك ما زال طريًّا، والطريق أمامك متماديًا، وأنتَ، بجرعةٍ واحدةٍ، تتجرَّعُ ما نهبُه لك من حنانٍ، ثمّ تميلُ عنّا، وترتحلُ بعيدًا.

لك لهوُكَ وأترابُكَ، فلا بأس من ألاّ تكرّسَ لنا من الوقت والخاطر شيئًا.

أمّا نحن، فالشيخوخة توفّر لنا السانحة لنَعدَّ أيّام الماضي، ونداعبَ، بقلوبِنا، ما فقدَتْه أيدينا إلى الأبد.

النهرُ المتدفّقُ يجري منشِدًا، ويحطِّمُ أمامه، كلَّ الحواجز. ولكنَّ الجبل الراسي يرقبُه في حبٍّ، ويحضنُ ذكرى الماضي.

استدعاءٌ

عندما رحلتْ كان الليلُ حالكًا، والجميعُ نيامًا،
والآن أيضًا، الليلُ دامسٌ، وأنا أناديها:
"عودي، يا كنْزي، فالعالمُ غافٍ، وإن جئتِ برهةً، فيما تتبادلُ النجومُ نظراتٍ طويلةً، لن يتبيَّن أحدٌ الأمرَ".

رحلتْ، فيما كانت الأشجارُ ترسلُ براعمَها، وكان الربيع شابًّا،
والآن قد اكتملَ الإزهارُ، وأنا أناديها:
"عودي، يا كنْزي، الأولادُ يقطفونَ الأزاهيرَ أغمارًا، وفي حميَّا ألعابهم يرمونها، لامبالين. وإن أنتِ عدتِ كي تأخذي زهرةً واحدةً صغيرةً، لن يفتقرَ أحدٌ".

الذين كانوا، حينئذٍ يلعبونَ، ما زالوا، اليومَ، يلعبون، فما أكرمَ الحياةَ!
إنّي أسمع ثرثراتِهم، وأنادي:
"عودي، يا كنْزي! إنّ قلبَ أُمِّكِ يفيض حبًّا، وإن جئتِ كي تسرقي منه قبلةً واحدةً صغيرةً، فلن يلومَكِ أحدٌ".

نشــيدي

إنّ موسيقى نشيدي ستحيطُ بكَ، يا بنيَّ، إحاطةَ ذراعَي الحبِّ الشغوفَتَيْن.
وسيقبّلُ نشيدي جبينَكَ، قبلةَ البَرَكة.
في وحدتِكَ سيجلسُ إلى جانبِكَ، ويسكبُ في أُذنَيْكَ أناشيدَ رقيقةً، وفي زحمةِ الناس، سيضربُ من حولِكَ طوقًا، ويوفّرُ لك ملجأً عزلةٍ.
سيكون نشيدي أجنحةً لأحلامِكَ، وسيطيرُ بفؤادِكَ حتّى حدود المجهولِ.
سيتألّقُ، نجمةً وفيّةً، في العلاء، عندما يغشى الليلُ دربَكَ،
وسيتوهّجُ نورًا في أحداقِكَ، فينفُذ بصرُكَ إلى قلبِ الأشياءِ،
وعندما سيُخرِسُ الموتُ صوتي، سيظلُّ يتردّدُ نشيدي في قلبِكَ الطافح بالحياة.

المــلاكُ الطفــلُ

يصيحونَ، ويتصارعونَ، ويرتابونَ، ويقنطون، ولا نهايةَ لخلافاتهم.

فلتتجلَّ حياتُكَ وسطَهم، يا ابني، مثلَ شعلةِ نورٍ كثيفٍ وصافٍ، وليخرسوا، مذهولينَ.

إنّهم قساةٌ يفيضونَ جشعًا وحسدًا، وأقوالهم تحاكي خناجرَ مخفيّــةً، ظمــأى للدماءِ.

امضِ صوبَ قلوبهم المعذّبةِ، وقِفْ وسطَهم، يا بنيَّ، وليحطَّ علــيهم نظــرُك الساجي، مثلما يهمي سلامُ المساءِ على النهارِ، ويضعُ لصراعاتِه حدًّا.

فليشهدوا وجهَكَ، يا بنيَّ، ليُدركوا معنى كلِّ شيءٍ. فلْيُحبُّــوكَ، ولْيحبّــوا بعضُهم بعضًا.

تعالَ، وتبوَّأْ مكانَكَ، يا بنيَّ، في لانهائيَّة الأشياءِ. عند بزوغ الفجــر، افــتحْ قلبَكَ وارفعه، مثل زهرةٍ تتفتَّحُ،

وعندَ الغروبِ، اِحنِ رأسَكَ، وفي الصمتِ، اختتم النهارَ وعبادتَه.

العقـدُ الأخـيرُ

"إنّني مُعَدٌّ للإيجار، فاستأجروني"، هكذا كنتُ أصرخُ، وأنا أجتازُ الشارعَ المرصوف، صباحًا.

ومرَّ الملكُ بعربتِه، وقد استلّ سيفَه.

ووضَعَ يدَه في يدي قائلاً: "إنّني أستخدمُكَ؛ ومقابلَ ذلك سيكون لكَ في سلطاني نصيبٌ". ولكنّي لم أعبأ بسلطانِه. فتركتُه يمضي بعربتِه.

وفي ساعةِ الهجير، أُوصِدَتْ جميعُ المنازلِ، فهمْتُ في الدروب المتعرِّجةِ.

ودنا رجلٌ عجوزٌ يُقلُّ كيسًا مليئًا ذهبًا، وتوقّف، ساهمًا، ثمّ قال: "تعال، إنّني أستخدمُك. وبهذا الذهب، سأنقُدُكَ أجرَك". وراح يعدّ نقودَه، قطعةً قطعةً، ولكنّني ملتُ عنه.

وحلَّ المساءُ، وقد غمرت الزهورُ سياجَ الحديقةِ. ودنتْ فتاةٌ جميلةٌ، وقالت لي: "سأستخدمُك، وسأنقدُكَ أجرَك ابتسامةً".

إلاّ أنّ بسمتَها غاضتْ، فراحتْ تنتحبُ، وقفلتْ إلى الظلِّ، وحيدةً.

وتوهّجت شمس النهار على الرمالِ، حيثُ تتكسّرُ الأمواجُ عابثةً.

وعلى الشاطئ الرمليِّ، كان صبيٌّ يلهو بالأصدافِ. فرفعَ رأسَه، وبدا وكأنّه يعرفني، وقال: "إنّني أستخدمُكَ، من غير مقابلٍ"

ومُذْ أبرمتُ هذه الصفقةَ، وبتُّ ألهو مع الصبيِّ، أصبحتُ رجلاً حرًّا.

على الشواطئ اللامتناهيةِ

على شواطئ العالم اللامتناهيةِ، يجتمِعُ الأولادُ، وتنسحبُ السماءُ اللامتناهيةُ فوقَ رؤوسِهم،

الأمواجُ دائمةُ الاصطخابِ هائجةٌ، والأولادُ يجتمعون على شواطئ العالم اللامتناهي، ضاجّين، راقصين.

يبتنون بيوتًا من رمالٍ، ويعبثون بالأصدافِ الفارغةِ، ويصطنعونَ من أوراقٍ مثنّاةٍ مراكبَ ويواكبونها ببسمتِهم عائمةً فوقَ الأعماقِ الرحبةِ.

الأولادُ يمرحون على شواطئ عوالم لا نهايةَ لها.

لا يُجيدُ الأولادُ الغوصَ، ولا إلقاءَ الشباك.

صيّادو اللآلئ يغوصونَ بحثًا عن كنوزٍ مخبّأةٍ، فيما الأولادُ يجمعونَ الحصوات، ولا يلبثون أن يرموها. لا يبحثونَ عن كنوزٍ كمينةٍ، ولا يُجيدون إلقاءَ الشباك.

البحرُ يعلو ضاجًّا بالضحِكِ، ويلوِّنُ بشحوبِه بسمةَ الشاطئ.

أمواجٌ قاتلةٌ تُنشدُ للأولادِ أغاني لا معنى لها، تحاكي الأغاني التي تُنشدُها الأُمُّ وهي تهدهدُ طفلَها، والبحرُ يعبثُ مع الأولادِ، ويلوِّنُ بشحوبه بسمةَ الشاطئ.

على شواطئ العوالم اللامتناهية يجتمع الأولادُ. العاصفةُ تحومُ في سماءٍ امَّحت سُبُلُها، وبواخرُ تغرقُ في مياهٍ امَّحت آثارُها، والموتُ يجولُ، فيما الأولادُ لاهونَ.

وشواطئُ العوالم اللامتناهيةِ هي ملتقى الطفولةِ الأكبر.

من ديوان

"التقدمة الغنائيّة"

ملاحظة

إنّ عددًا وفيرًا من الأناشيد التي انطوى عليها هذا الديوان، أصلاً، (نحو ثلاثةٍ وأربعين نشيدًا) قد أدرجناه في الفصل الذي أفردناه لـ"صلوات شاعر"، من جرّاء اتّسامها بصبغةٍ روحيّةٍ لافتةٍ، وتميّزها بنفحةٍ صوفيّةٍ مضطرمةٍ.

وكانت أناشيد هذا الديوان، في الأصل، تحمل أرقامًا متسلسلةً استعضنا عنها بعناوين مستوحاةٍ من فحواها.

أهــلاً بالمـوت

أنت، يا غاية حياتي القصوى، أيُّها الموت، موتي، إهـــرع، وكلِّمـــني بجـــرسٍ خافتٍ. يومًا بعد يومٍ، سهرتُ مترقِّبًا قدومكَ، ومن أجلك احتملت أفراح الحياة وهواجسها. كلّ كياني، كلّ ما أملك، أملي وحبّي، كلّ ذلك سال نحوك ســـرًّا. مُنّ عليّ بنظرةٍ أخيرةٍ من عينيْكَ، وستكون حياتي لك إلى الأبد.

لقد ضُفِرت الزهور، وأُعدّ الإكليلُ للعريس، وعقب القران ستهجر العروس منْـــزلها، وستنطلق، وحيدةً، في الليل الموحش، من أجل لقاء سيّدها.

انتظـــارٌ

حتّى اليوم لم أُنشِدِ النشيدَ المتوجِّبَ عليَّ إنشادُهُ،

فقد أنفقتُ أيّامي في ضبطِ أوتارِ قيثاري، وإعادةِ ضبطِها، ولكنّني لم أعثرْ على اللحنِ السويِّ ولم تأتلِف الألفاظُ، وما بقيَ سوى احتضارِ الأماني في فؤادي.

وظلّت الزهرةُ لم تتفتّحْ أكمامُها، ووحدَها الريحُ تئنُّ بجوارِها.

ما قطُّ لمحتُ محيَّاهُ، ولا أصغيتُ إلى صوتِه، بل، وحدَها، خطواتُه الوئيدةُ تردَّد وقْعُها، على الطريقِ، أمام بيتي.

انقضى كلّ نهارِ حياتي الطويلِ، وأنا أُعدُّ في منْـــزلي له مجلِسًا، ولكنّ المصباحَ لم يُضَأْ، ولستُ قادرًا على دعوتِه إلى الدخولِ.

أعيشُ على رجاءِ لقائه. ولكنّ هذا اللقاء لم يَحِنْ، بعدُ.

تبًّـا للنعـاس!

لقد وافى، وجلسَ إلى جانبي، ولكنّني لم أُفِقْ من غفوتي. تبًّا لنعاسي البائسِ!
جاءَني وقد سجا الليلُ، وقيثارُه بيدِهِ، فنبضتْ أحلامي على إيقاعِ أنغامِهِ.
وا حسرتاه! لماذا تُهدَرُ ليالِيَّ هدرًا ذريعًا على هذا النحوِ؟ ولِمَ يتوارى، دائمًا عن بصري من تداعبُ أنفاسُه رقادي؟

لا أنتظـرُ سـوى الحبّ

لا أنتظر سوى الحبّ كي أُنكر ذاتي، وأُودعها بين يدي الله.
ولذلك فات الأوان، وارتكبتُ أخطاء إِهمالٍ ذريعٍ.
إنّهم يأتون بشرائعهم وقوانينهم كي يقيّدوني، ولكنّني، دائمًا أُفلت من قبضتهم، إذ إنّني لست أنتظر سوى الحبّ، كي أُنكر ذاتي وأودعها بين يدي الله.
يلومني الآخرون، ويأخذون عليّ إهمالي، ولستُ أشكُّ أنّهم محقّون في لومهم.
انقضى يوم السوق، وانتهت أعمال البيع والشراء، والذين يطالبوني عبثًا، ارتدّوا غاضبين.
وأنا لستُ أنتظر سوى الحبّ كي أنكر ذاتي أخيرًا، وأُودعها بين يدي الله.

وداعٌ

ها إنّي ماضٍ، فتمنّوا لي، يا إخوتي، رحلةً ميمونةً، ولكم منّي آيات الاحترام.
ها إنّ مفاتيحي على البابِ، وقد تنازلتُ عن كــلِّ حقــوقي علــى بــيتي.
فامنحوني، فقط، كلماتِ وداعٍ طيّبةً.
لطالما كنّا جيرانًا، وتلقّيتُ منكم أكثر ممّا كان بقدرتي أن أُعطيكُم.
وها قد بزَغَ النهارُ، وقد نفدَ زيتُ المصباحِ الذي كان يُضيءُ زاويتي المُعتِمة، وجاءَني النداءُ، وها أنا ماضٍ.

في ساعةِ رحيلي، تمنَّوا لي حظًّا سعيدًا، يا أصدقائي.
إنّ الفجرَ يخضّبُ الأُفقَ بالحمرةِ، والدربُ مشرَعٌ على الروعةِ.
لا تستوضحوا عمّا أستصحبُ، فأنا راحلٌ صفرَ اليدين، وقلبي مفعمٌ انتظارًا.
لم أرتدِ جلبابَ الحجّاج الأغبرِ، بل اعتمرتُ إكليلَ العُرسِ،
ومخاطر الطريقِ لا تسرِّبُ إلى نفسي أيّةَ خشيةٍ.
وفي غايةِ المطافِ ستتراءى نجمةُ المساءِ، وستنطلقُ أنغامُ الليلِ الحزينةُ من تحت الفُلْكِ الملكيّةِ.

اسـمي هو سـجني

اسمي نفسُه هو سجنٌ، يبكي فيه السجين الذي حبسه في داخله. إنّي لا أَكفُّ أرفعُ من حولي حاجزَه، وفيما يعلو هذا الحاجزُ، يومًا فيومًا، صــوبَ الســماءِ، أفقدُ، في ظلمتِه القذرةِ، القدرةَ على رؤيةِ كياني الحقيقيِّ.

إنّي أزهو اعتدادًا بهذا الحاجزِ المرتفعِ، وخشيةً من أيّةِ ثغرةٍ في جدارِه، أُعيــدُ طلاءَه بالجبسِ والرملِ، ويحرمُني اهتمامي باسمي رؤيةَ كياني الحقيقيَّ.

في الظــلام

غيومٌ تتكدّس فوق غيومٍ، والظلام سائدٌ.

أوّاه! أيّها الحبّ، لَم تتركني خارجًا أنتظر وحيدًا عند بابك؟

إنّني، في زحمة نهار العمل أختلط بالجموع، ولكنّني، في وحشة هــذا اليــوم المظلم، لستُ أتطلّع إلاّ إليكَ.

فإن حجبتَ عنّي وجهَك، وأقصيتني جانبًا، فلن أعرف كيف أجتــاز هــذه الساعات الماطرة المتمادية،

وسأظلّ أُراقبُ عتمة المساء اللامتناهية، وقلبي يحوم بأنّاته مع الريح، ولا يعهد للسكينة طعمًا.

استيقِظ!

ما برح الشجَنُ يرين على فؤادِكَ، والوَسَنُ يُثقلُ جفنيْكَ.

أفلم يبلغْكَ أنّ الوردة تتجلّى بكلّ سناها وسط الأشواك؟

استيقظ، إذن، استيقظ! عسى ألاّ تهدر الوقت سدًى. ففي نهاية الدرب المفروش حصًى، وفي بلاد الوحدة النقيّة، يقبع صديقي وحيدًا. فلا تخيِّب انتظاره.

استيقظْ، استيقظْ، حتّى لو التهب الجوّ بهجير الظهيرة، وحتّى لو بسطت الرمال الحارقة رداء الظمأ.

أفلا تخفق أغوار قلبِكَ بالفرح؟ أوَلن تصدح قيثارة الدرب، لدى كلّ خطوةٍ تخطوها، بموسيقى عناءٍ عذبةٍ؟

الولدُ المُثْقَلُ بالبهارج

الولدُ المرتدي زيَّ الأُمراءِ، والمطوَّقُ عنقُه بسلاسلَ ثمينةٍ، يفقُد متعةَ اللعبِ، فالبهارجُ تُعيقُ خطاه.

إنّه ينتحي جانبًا، ولا يجرؤُ على الحراكِ، خشيةَ خدْشِ زينتِه وتلويثِها بالغبارِ.

فيا أُمّاهُ، هل يسوغُ سجنُه في هذا البهرج، بمنأًى عن غبارِ طلْعِ الحياة الصحّيّ؟ ألا تسلبينَهُ، بذلك، حقَّه في الاندماجِ بعيدِ الحياةِ البشريّةِ المشتَركِ؟

أريــجٌ

يومَ تفتَّحتْ زهرةُ اللوتُس، وا أسفاه! كان فكري ساهمًا، فلم أعلمْ بأمرِهــا، فظلّتْ سلَّتي فارغةً، والزهرةُ مهجورةً.

غير أنّ شَجَنًا كان ينتابُني أحيانًا، وما برح يُراودني، فأَهــبُّ مــن حلمــي مذعورًا، متلمّسًا أثرًا عذبًا لعبيرٍ مبْهَمٍ، تأتيني به ريحُ الجنوبِ.

وكانت تلك العذوبةُ المُبهَمةُ تسكب في قلبي سَقَم الرغبة، فيُخَيَّــلُ إليَّ أنّــني أستشمّ فيها نفثاتٍ حرَّى، يُطلقها الصيف المتطلّع إلى غاية اكتماله.

ولم أكنْ، آنذاك، أُدرك أنّ كلّ ذلك كان على قربٍ وثيقٍ منّي، وأنّ تلــك العذوبة الفائقة كانت قد ازدهرت في أغوار قلبي.

تقـدمتي للموت

تُرى أيّة هديّةٍ أُقدّمها للموت، يوم يوافي ويطرق بابي؟

أنا لا أُطيق أن يعود الزائر صفر اليدين. فسأضع أمامه كأس حيــاتي المترعــة، وقطاف كلّ أيّام الخريف، وغلال كلّ ليالي الصيف، وحصاد عمري الكــادح، وما التقطتُه من مخلّفات الحصاد.

كلّ هذا سأُودعه، في خاتمة أيّامي، أمام المنيّة عندما ستوافي وتطرق بابي.

السجينُ

قُلْ لي، أيُّها السجينُ من الذي قيَّدَكَ؟

وأجابَ السجينُ: "هو سيّدي. توهَّمتُ التفوُّقَ على كلِّ إنسانٍ في العالمِ، ثروةً وسلطانًا. وكدّستُ، في خزائني، كلَّ المالِ الذي كان عليَّ أداؤُه لمليكي. وعندما غلبَني النعاسُ، تمدَّدتُ على السرير الذي كان مُعَدًّا لسيّدي. وعند استيقاظي ألفيتُ نفسي سجينَ كنْزي الخاصّ".

قلْ لي، أيُّها السجينُ، من الذي صاغ هذا القيدَ الذي يستعصي على التحطيم؟

وأجابَ السجينُ: "أنا هو مَن صاغَ هذا القيدَ بكلّ عنايةٍ. تخيَّلتُ أنّ سلطتي التي لا تُقهَر، ستُبقي العالمَ أسيرًا، موفِّرةً لي حرِّيَّةً لا يُعكِّرُ صفوَها معكِّرٌ. وهكذا دأبتُ، ليلَ نهارَ، على صوغِه، بنارٍ جبّارةٍ، وبطرقاتٍ جائرةٍ. ولّما اكتملَ العملُ، أخيرًا، حتّى الحلَقَةِ الأخيرةِ في السلسلةِ المستعصيةِ على التحطيمِ، وجدتُ نفسي أنا المقيَّدَ بها".

إنّــه، دائمًــا، يأتي

ألم تسمع خطواته المكتومة؟ إنّه يأتي، يأتي، دائمًا يأتي.

في كلّ لحظةٍ، وفي كلّ عمرٍ، كلَّ يومٍ، وكلَّ ليلةٍ، يأتي، يأتي، دائمًا يأتي.

لطالما أنشدت العديد من الألحان. وكلّ نغمةٍ منها كانت لا تني تردّد معلنةً: "إنّه يأتي، يأتي، دائمًا يأتي".

في أيّام نيسان المتألّق، الأيّام العابقة بالشذا، ومن خلال دروب الغابة، يـــأتي، يأتي، دائمًا يأتي.

وفي قلق ليالي تمّوز العاصفة، على متن مركبة السُحُب المدوِّية، يـــأتي، يـــأتي، دائمًا يأتي.

تضغط قدمه على قلبي، فيتراكم عليّ شَجَنٌ على شَجَنٍ، وتلمســـني قدمـــه الذهبيّة فيلتمع فرحي.

زيــارةٌ ملكــيّةٌ

حلك الليل يتكثّف، وقد فرغنا من مهمّاتنا اليوميّة. وخُيِّل إلينـــا أنّ آخـــر ضيوف تلك الليلة قد وافى، وأنّ كلّ أبواب القرية قد أُوصدت. ولكنّ أحـــدنا حذّر بأنّ الملك قادمٌ. فضحكنا قائلين: "لا، هذا محالٌ".

وخُيِّل إلينا سماع طرقاتٍ على الباب، فقلنا ما ذاك ســـوى عصـــف ريـــحٍ، وأطفأنا المصابيح، واستسلمنا للرقاد. بيد أنّ أحدنا قال: "هذا هـــو الرســـول". فضحكنا، وأجبنا: "كلاّ، بل هي الريح".

وتعالى ضجيجٌ من قلب الليل، وإذ كنّا مستغرقين في الكرى، ظننّا أنّه هـــزيم رعدٍ بعيدٍ. ثمّ اهتزّت الأرض، ومادت الجدران، واستحوذ علينـــا، في نومنـــا، القلقُ. بيد أنّ أحدنا قال: "إنّه دويُّ عجلاتٍ". وكنّـــا تحـــت تـــأثير الوَسَـــن، فهمهمنا: "لا، بل هو دويّ الغيوم".

وكان الليل ما برح حالكًا، عندما دقّت الطبول، وهتف صوتٌ: "استيقظوا، لا تضيعوا الوقت". فشددنا أيدينا على أفئدتنا، وارتجفنا هلعًا. وقـــال أحـــدنا: "انظروا: ها هي راية الملك". فهببنا مذعورين، وصحنا: "لا وقت لنا نضيعه".

وافى الملك، حقًّا. ولكن أين المشاعل، وأين الأكاليل؟ وأين العـــرش الـــذي سيجلس عليه؟ يا للعار! يا للفظاعة! أين القاعة، وأين الزينة؟ وهتف أحدنا: "ما نفع التأوّه؟ استقبلوه بأيديكم المصفرة، وفي حُجَرِكم العارية".

التي تسكن في أعماقي

يا الله، إنّي أُلفُّ بنشيدي الأخير تلك التي تسكن دائمًا في أعماق كيـــاني، في ظلّ نورٍ شاحبٍ، تلك التي لم تُمِطِ القناع، يومًا، في نور الصباح.

وإنّي أُقدّم لكَ هذا النشيد تقدمةً ساميةً.

لقد دغدغَتْها أقوالي، ولكنّها أخفقتْ في امتلاك قلبها، وعبثًا مـــدّت إليهـــا أساليبُ الإقناع ذراعيها الملتهبتَيْن توقًا.

لقد ذرعتُ الدنيا، قطرًا قطرًا، وأنا أضمُّها في صميم قلـــبي، ومـــن حولهـــا اصطفق مدّ حياتي وجزرها، تعاليًا وهبوطًا.

إنّها تبسط سلطانها على خواطري وأفعالي، على غفواتي وأحلامي، بيد أنّها تقيم منعزلةً وحيدةً.

كُثُرٌ هم الذين طرقوا بابي، مطالبين بها، وارتدّوا خائبين، ولم يشهد أحدٌ محيّاهـــا، يومًا. وهي ما زالت تنتظر أن تتعرّفها أنت.

نهـرُ الحـــياةِ

إنّ نهرَ الحياةِ الذي يسري في عروقي، ليلَ نهارَ، يسري عبرَ العالمِ، ويـــرقصُ على إيقاعِ نبضاتٍ متناغمةٍ.

هذه الحياةُ التي تُطلِعُ من غبار الطريقِ فرحَها، نبتاتٍ وأعشابًا لا تُحصى،
وتتفجَّرُ في عنفوان الأوراقِ والزهورِ،
هي عينُها التي تتأرجحُ في مدّ المحيط وجزره، مهدِ الحياة والموتِ.

إنّ ملامسةَ هذه الحياة الشاملةِ تضفي على أعضائي مجدًا، وتفرغ عليَّ زهوًا، فخفقانُ حياة الأجيالِ العظيمُ يرقصُ، الآنَ، في دمي.

إنّــه هــو

إنّه هو، ذلك الصديق الحميمُ، الذي يوقظ كياني بلمسته السرّيّة. هـــو الـــذي يسكب فتنته على عينيَّ، وبفرحه الغامر، ينتزع من قيثارة قلبي أنغامًـــا ممتعـــةً، مشوبةً بالأسى.

هو الذي ينسج هذه "المايا" بأصابعٍ متحوّلةٍ، ذهبيّةٍ وفضّيّةٍ، زرقاء وخضـــراء، ويسفر من خلال ثنايا النسيج عن قدمه التي تصيبُني لمستُها بالإغماء.

تكرّ الأيّام، وتعبر الأجيال، ويظلّ هو الذي يهزّ قلبي، بكلّ اسمٍ وشكلٍ، وبكلّ سورة فرحٍ وشَجَنٍ.

همسٌ

لا أقوالَ صاخبةٌ، بعد الآن، ولا أصواتَ جهيرةٌ، هذه هي مشيئة سيّدي. فلأكْتَفِ بالهمسِ، وليواصلْ قلبي حديثَه في وشوشة نشيدٍ.

يتدافع القوم إلى سوق الملك، حيث يختلط الباعة بالمشترين. أمّا أنا فقد اعتكفتُ في منتصف النهار، أوان احتدام النشاط، خلافًا للمألوف.

فلتتفتّح الأزاهير، إذن، في حديقتي، في غير أوانها، ولتملأ نحلة الظهيرة الأجواء بطنينها الرتيب الذي يحمل على الإغفاء.

لقد أنفقتُ ساعاتٍ عديدةً، أصارع الخير والشرّ، وها قد حان، الآن، أوان أن يتمتّع رفيق أيّامي الخاوية باستدعاء قلبي إليه.

ولست أُدرك معنًى لهذه الدعوة المباغتة، ولهذا التناقض الباطل.

لا تستغْطِ ذاتَك

أيُّها الأحمقُ، أنتَ من يحاولُ حملَ ذاتِه على منكبَيْهِ! أيُّها المستجدي أمامَ باب منْزلِه، ألا فارمِ حملَكَ بين يدَيْ مَن يقوى على حملِ كلِّ شيءٍ، ولا تُلْقِ، أبدًا، إلى الوراءِ نظرةَ نَدَمٍ. إنّ نسمةَ شهوتِك تطفئُ شعلةَ المصباح حالما تلامسُها. فرغبتُك مدنّسةٌ، ويداها بالرجسِ ملطّختانِ. فحذارِ أن تقبلَ منها هبةً تقدِّمها لكَ.

ولا ترضَ إلاّ بما يقدّمُه لكَ الحبُّ المقدّسُ.

كلـــمةُ رحيـــلي

عندما أرحلُ عن هذا الوجودِ، فلتكنْ هذي كلمةَ رحيلي: لا شيءَ يســـمو على ما رأيتُ.
لقد تذوّقتُ عسَلاً سرِّيًّا اشتَرْتُهُ من زهرة اللوتُس، التي تنتشر فـــوق محـــيط النور، وهكذا حلَّت عليَّ البركةُ. فلتكنْ هذه كلمةَ رحيلي.
لقد لهوتُ في قصرِ الأشكال التي لا نهايةَ لها. وهناكَ شاهدتُ من لا شكلَ له.
أعضائي وجسمي كلُّه، ارتعشتْ لدى لمسةِ من لا يطالُه لمسٌ. آه! إن كان لا بدَّ من نهايةٍ، فلتكنْ! ولتكُنْ هذه كلمةَ رحيلي.

أنـاشـــيدي

أنتَ من سعت إليه أناشيدي، طوال حياتي، وهي التي اقتادتني من بـــابٍ إلى بابٍ. ومن خلالها أحسستُ بمحيطي فيما كنتُ أتلمّسُ وأتقرّى عالمي.
أناشيدي هي التي لقّنتني كلّ ما تعلّمته، وهدتني إلى الدروب الخفيّة، وأظهرت لناظري مواكب الكواكب المتلألئة في أُفق قلبي.
أناشيدي هي التي اقتادتني سحابة النهار صوب مواقع المتعة والألم الســـرّيّة. والآن، في هذا المساء، وقد شارفت رحلتي غايتها، تُرى إلى بوّابة أيّ قصرٍ تمضي به أناشيدي؟

الضفّةُ الأُخـرى

لم أعِ لحظةَ تخطَّيْتُ عتبةَ هذه الحياةِ.

أيّةُ قدرةٍ تلك التي أنبتتني على هذا السرِّ الجمِّ، مثلما تتفتّحُ، في الغابةِ، زهرةٌ، في منتصفِ الليلِ.

وفي الصباحِ، فتحتُ عينيَّ على النور، وسرعانَ ما أدركتُ أنّني لم أكن غريبًا على هذه الأرض، وأنّ المجهولَ الذي لا شكلَ له، كان من خلال شكل أُمّـــي، يُقبِّلُني.

وهكذا، عندما سيتجلّى لي، في الموتِ، ذلك المجهولُ، سيبدو لي كـــأنّني قـــد عرفتُه دائمًا. وعلى نحو ما أُحبُّ هذه الحياةَ، أعلم أنّني سأُحبُّ الموتَ أيضًا.

الرضيعُ ينتحبُ عندما تنتزعُه أُمُّه عن ثديِها الأيمن، ولكن سرعان ما يلقـــى السلوى، في ثديها الأيسر.

من ديوان

"سلة الفاكهة"

ملاحظة

إنّ عددًا وفيرًا من أناشيد هذا الديوان أُدرجت في الفصل الذي أطلقتُ عليه عنوان: "صلوات شاعر".

وقد استعضتُ عن الأرقام المتسلسلة التي كانت تميّز الأناشيد، أصلاً، بعناوين مستوحاةٍ من فحواها.

خريفٌ

كانت حياتي، في فَجرِها، تحاكي زهرةً متفتّحةً تتخلّى عن واحدةٍ أو اثنتين من بتلاتِها، ولا تشعرُ بموتِها، عندما يوافيها نسيمُ الربيعِ، مستعطيًا عند بابِها.

أمّا اليوم، وقد ذبلَ، رُواءُ شبابِها، فقد غدتْ تُحاكي ثمرةً لم يعُدْ لـديها ما تحرصُ عليه، بل تنتظرُ أن تُقدِّمَ كلَّ ذاتِها، بكلِّ عبءِ حلاوتِها.

جَعَلَ منّي خادمَـهُ

أَلَم يوجدْ عيد الصيفِ إلاّ من أجل الأزاهيرِ المتفتّحةِ؟
أوَليسَ هو، أيضًا، عيدَ الأوراقِ الميتةِ، والزهورِ الذابلةِ؟
ألا يتناغمُ نشيدُ البحرِ إلاّ مع الأمواجِ الهائجةِ؟
أوَلا يُنشِدُ، أيضًا، مع الأمواجِ الساكنةِ؟
في السجّادةِ التي يقفُ عليها مليكي، نُسِجَت جواهرُ،
غير أنّ الأرضَ العاريةَ المتواضعةَ تنتظرُ، صابرةً، أن تلامسَها قدماه.
قلّةٌ هم الحكماء العظماءُ الذين يجالسونَ سيّدي،
ولكنّه قد ضمَّ البسطاءَ، بين ذراعَيْهِ، وجَعَلَ منّي، إلى الأبدِ، خادِمَهُ.

رسالةُ الصباحِ

استَيْقَظتُ، فوجدْتُ، مع الصباحِ، رسالتَه.
ولم أدركْ ما كانت تحملُ لي، في طيَّاتِها،
إذ ما تعلَّمتُ القراءةَ، قطّ.
سأدَعُ العالِمَ مُكبًّا على كتُبِه، ولن أطرحَ عليه سؤالاً،
فرُبّما هو لن يقوى على الفهمِ.
بل سأمسحُ بالرسالةِ جبيني، وأشدُّها إلى قلبي.
وعندَما سيخرسُ الليلُ، وتتراءى النجومُ، واحدةً واحدةً،
سأنشر الرسالةَ فوق ركبتيَّ، وأمكثُ صامتًا.
فتقرؤُها أوراقُ الأشجار، بصوتٍ مرتفعٍ، وتشدوها لي الساقيةُ،
وتنشِدُها لي، من أعالي السماءِ، نجومُ المعرفةِ السبعُ.

إنّني أُخفِقُ في العثورِ على ما أَنشُدُ، ولا أُدرِكُ ما أرغبُ في تعلُّمِهِ، بيدَ أنّ هذه الرسالةَ التي لم أقوَ على استجلاءِ مغاليقِها، قد خفَّفتْ عنّي عِبْئي، وحوَّلتْ أفكاري إلى معزوفاتٍ.

الغريبُ يدعوني

وا أسفاهُ! لا بدَّ من هجرِ بيتي،
فهو لم يعُدْ لي منْـــزلاً،
لأنَّ الغريبَ الأبديَّ يدعوني،
وأنا أسمعُ وَقْعَ خُطاه على الطريقِ.
كلُّ خُطوةٍ من خطواتِه تقرعُ بابَ قلبي، وتؤلمني؛
والريحُ تزمجرُ، والبحرُ يئنُّ.
سأعزفُ عن أعمالي، وهواجسي، لكي أتبعَ هذه القوّةَ التائهةَ،
فالغريبُ يدعوني، وأنا أسمعُ وَقْعَ خطاه على الطريقِ.

كنْ متأهِّبًا، يا قلبي، للانطلاق

تأهّبْ للانطلاقِ، يا قلبي، وخلِّفْ وراءَكَ المتقاعسين.
فسماءُ الصباح قد نادَتْ باسمِكَ،
ولا يحسُنُ بكَ أن تنتظرَ أحدًا.

البرعمُ يتطلَّعُ إلى الليلِ والنَّدى،
أمّا الزهرةُ المتفتِّحةُ، فتصبو إلى الضياءِ المُنقِذِ.
فحطِّم قيودَكَ يا قلبي، وانطلقْ.

سأهجر سجني

عندما كنتُ أتمالكُ وسطَ كنوزي المكدّسةِ، كان يخالجُني شعورٌ بأنّني أُشـــبِهُ دودةً تتغذّى، في الظلمةِ، من الثمرةِ التي منها وُلِدتْ.

ولكنّني سأهجرُ هذا السجن الفاني،

ولن أرضى، بعدُ، بسكينةٍ زائلةٍ، لأنّني ماضٍ أنشُدُ الشبابَ الأبديَّ، وسأنتبذ كلَّ ما لا يتناغمُ وحياتي، كلَّ ما ليسَ، مثلَ ضحكتي، رشيقًا.

إنّني أحلّقُ، عبرَ الزمنِ، وفي مركبتِك، يا قلبي، يرقصُ الشاعرُ مُنشِدًا، وهـــو يجوبُ دروبَ المدى.

تجــرُّدٌ

كان نهرُ "الجمنى" يتدفّقُ في الوادي سريعًا، صافيًا، وقد علاهُ جرفٌ متــوعِّرٌ، وأحاقتْ به هضابٌ ظليلةٌ، تكسوها الأشجارُ، وتشقُّ فيها السيولُ مجاريها.

وكان "كوفندا" واعظُ السيخ الكبيرُ، جالسًا على الصخر يطــالعُ أســفارَه، عندما وافاه تلميذُه "راغوناث"، المزهوُّ بثروتِه، فانحنى أمامَه، قائلاً: "هــا أنــذا آتيكَ بتقدمتي الوضيعةِ، غير اللائقةِ بك".

وألقى بين يديه بزوجِ دمالجَ ذهبيّةٍ، مرصَّعةٍ بجواهر جزيلةِ الثمن. وأخذ المعلِّمُ أحد الدملجَيْنِ، وأداره حول إصبعِه، فأشعَّت جواهرُه بروقًا من نــورٍ، وبغتــةً انساب الدملُجُ من يده، وكرّ على طول الجرفِ حتّى الساقيةِ.

وهتفَ "راغوناث": "وا أسفاه!"، وقفزَ نحو الماءِ المتدفِّقِ.

وحطّ المعلِّمُ عينيه على كتابه، فيما استمرّت المياه في تدفُّقِها، منطويةً علــى غنيمتِها، مُواريةً إيّاها في ثناياها.

كان النهارُ آخذًا في الانطفاءِ، عندما قفلَ "راغوناث" إلى المعلِّم، وقد نالَ منه النصَبُ والبلَلُ. وقال له لاهثًا: "ربّما أستطيع العثورَ على الدملجِ لو أنّكَ دلَلْتني إلى حيثُ هوى".

حينئذٍ تناول المعلِّمُ الدملجَ المتبقّي، وقذف به في الساقية قائلاً: "إنّه ها هنا"

ببَساطةٍ يتفتَّحُ البرعـمُ

لا، ليس بوسعِكَ جعلُ البرعمِ يتفتَّحُ.
قد توسعُه هزًّا وضربًا، ولكن لا قدرةَ لك على تفتيحه.
يداكَ تُدمِّرانه، وتمزِّقانِ بتَلاتِه، وتلقيانِها في التراب.
ولكن لا تُظهرانِ لها لونًا، ولا تنشرانِ لها أريجًا.
ولا طاقةَ لديكَ على إزهارِ البرعمِ.

إنّ الذي يُحقِّقُ تفتُّح الزهرة يعملُ ببساطةٍ فائقةٍ:
حسْبُهُ نظرةٌ يُلقيها، فيسري نسغُ الحياة في عروقها.
وبنَفَسه تبسطُ الزهرةُ أجنحتَها، وتتأرجحُ مع هبوبِ النسيم.
ومثلَ أُمنية قلبٍ، يتفجَّر لونُها، ويفضح شذاها سرًّا عذبًا.
ببساطةٍ فائقةٍ يعملُ مَن يفتّح البرعمَ.

ثمـن زهـرة اللوتُس

بعد أن قطف "سوداس" من بركته زهرة اللوتُس الأخيرة التي نجت من فتك الشتاء، وافى إلى سور القصر بُغية بيعها للملك.

وهناك التقى حاجًّا سأله: "ما الثمن الذي تطلبه لقاء زهرة اللوتُس الأخيرة هذه، فأنا راغبٌ في تقديمها للسيّد بوذا؟"

أجابه "سوداس": "أعطني "ماشا" ذهبيّةً، تصبحْ هذه الزهرة لك". وأدّى الحاجّ ما طُلِب منه.

وفي تلك اللحظة كان الملك خارجًا، ورغب في شراء الزهرة، إذ إنّه كان قاصدًا مقام السيّد بوذا للصلاة، وجال في خاطره: "ستكون زهرة اللوتُس هذه التي تفتّحت في عزّ الشتاء تقدمةً رائعةً، أُودعها عند قدميه".

وبما أنّ البستانيّ أعلن أنّ "ماشا" ذهبيّةً عُرضت ثمنًا لها، وعده الملك بعشر "ماشات"، ولكنّ الحاجّ سارع إلى مضاعفة قيمة عرض الملك.

حينئذٍ انحنى البستانيّ وقال: "لا أستطيع بيع هذه الزهرة"، إذ إنّ جشعه أوهمه أنّ السيّد بوذا نفسه سينفحه ثمنًا يفوق كثيرًا هذا المبلغ.

وانتصب "سوداس"، في فيء أشجار المانغا، خلف أسوار المدينة أمام السيّد بوذا الذي حطّ صمت الحبّ على شفتيه، وأشعّت عيناه بسلامٍ يحاكي ضوء نجمة الصبح، حين يغسل الندى أعطاف الخريف. ورفع "سوداس" ناظريْه نحوه، وأودع زهرة اللوتُس عند قدميه، وطأطأ رأسه حتّى الحضيض. فابتسم بوذا واستوضحه: "ما هي أُمنيّتك، يا بنيّ؟" وهتف "سوداس": "لمسةٌ صغرى من قدميْك".

المتسوّل

رفع المتسوّلُ القابعُ في داخلي يديْه النحيلتَيْن نحو سماءٍ أقفرت من النجـــوم، وصاح في أُذن الليل نداء جوعه.

وتصاعدت صلواته نحو العتمة العمياء المقيمة، مثل إلهٍ هوى عن عرشــــه، في سماءٍ خاويةٍ تقطنها آمالٌ ميتةٌ.

كانت أنّة الرغبة تحتضر هناك، على شفير هوّة القنوط، وكان طائرٌ ينـــوح، وهو يدور حول عشّه المهجور.

ولكن حين ألقى الصباح مراسيه على شاطئ الشرق، وثب المتسوّل القـــاطن فيّ، هاتفًا: "مباركٌ أنا، لأنّ الليل الأصمّ أنكرني، ولأنّ خزائن كنوزه خاويةٌ".

وأنشد أيضًا: "أيَّتُها الحياة، أيّها النور، كم أنتما ثمينان! وما أثمن فرح الـــذي عرفكما أخيرًا!"

الغنى الذي يزدري الثروات

كان "ساناتان" يكرّ حبّات سبحته، على ضفاف نهر "الغانج"، عندما بادره برهمان رثّ الأسمال، قائلاً: أغثني، فأنا فقيرٌ".

وأجابه "ساناتان": لم يبقَ لي سوى صحفة تسوُّلي، بعد أن وزّعتُ كلّ ما كان لديّ".

– ولكنّ السيّد "شيــڤـا" تراءى لي في الحلم، ونصحني أن أقصدَك. وفجأةً تذكّر "ساناتان" أنّه كان قد عثر على حجرٍ لا يُثمَّن بين حصيّات الضفّة، وأخبأه في الرمل، ظانًّا أنّه قد يعود بالفائدة على أحدهم.

وبإصبعه أشار إلى مخبئه، للبرهمان الذي نبشه مذهولاً.

وجلس البرهمان أرضًا، وراح يُعمل الفكر، وحيدًا، حتّى غابت الشمس خلف الأشجار، أوانَ يعود الرعاة بقطعانهم إلى حظائرها. وحينئذٍ هبّ واقفًا، ودنا، على مهلٍ، من "ساناتان" وقال له: "يا معلّمي، هبني أصغر جزءٍ من هذه الثروة التي تزري بكلّ ممتلكات الأرض".

قال هذا، وقذف إلى الساقية بالحجر الذي لا يُثمَّن.

المتسوِّلةُ الشُّجاعةُ

سأَلَ المعلِّمُ بوذا تلاميذَه عندما اجتاحت المجاعة البلاد: "من منكم سيتولّى إطعامَ الجياعِ؟"

فأطرقَ صاحبُ المصرف، وقالَ: "إنّ إطعامَ كلّ الجياعِ يستلزمُ ما يفوق ثرْوَتي بكثيرٍ".

وقالَ قائدُ الجيشِ الملكيِّ: "سأبذُلُ بفرحٍ، دمَ حياتي، ولكن ليسَ في منْزلي من الطعام ما يكفي".

وتنهّدَ مالكُ المراعي الشاسعةِ: "إنّ إلهَ الرياحِ قد جفّف حقولي، ولستُ أجد سبيلاً إلى تسديد الضرائب الملكيّة".

حينئذٍ هبَّتْ ابنةُ الشحّاذ واقفةً، وانحَنتْ أمامَ الجميعِ، وقالتْ بتواضُعٍ: "سأُطعمُ هؤلاء البؤساءَ".

وصاح الجميع بدهشةٍ: "كيف؟ كيف تزعمين القدرةَ على تحقيقِ نذرَكِ؟"

فأجابتْ: "أنا أكثرُهم فقرًا، وهذا هو مَكمنُ قوَّتي. سأجد كنْزي وبحبوحتي عندَ أبوابٍ كلٍّ منكم".

عنـدما عرفتُ مَلِـكي

كنتُ أجهلُ ملكي، وعندما فُرضتْ عليَّ ضريبتُهُ، خطرَ لي أن أختفيَ، وأنجوَ من سَدادِ ديوني.

ففرَرْتُ، وأَمعَنتُ في الفرارِ، إلى أبعد من كدِّ أيّامي، ومن أحلامِ لياليَّ.

وهكذا، علِمتُ أنّه يعرفُني، وأنَّ لا شيءَ ممّا لي يخصُّني.

والآنَ، لا رغبةَ لديَّ سوى إيداعِ كلِّ ما أملكُ عندَ قدَمَيْهِ، وبذلكَ أَكتسبُ مكانًا في ملكوته.

الشمسُ وقطـرةُ النـدى

"أيّ شيءٍ سوى السماء يقوى على احتواءِ صورتِك، أيَّتُها الشمسُ؟"

هكذا قالت قطرةُ الندى باكيةً. واستأْنفَتْ: "أنتِ حلمي، ولكن لا أملَ لي في القدرةِ على خدمتِكِ. فأنا من الصِّغرِ، بحيثُ أعجزُ عن عكس صورتِكِ، أيَّتُهـــا الملكةُ العظمى، وما حياتي سوى دموعٍ".

وأجابت الشمسُ: "إنّي أُنيرُ السماءَ اللامحدودةَ، ولكن لي القدرةُ، أيضًا، على منحِ ذاتي، في أصغر قطرةِ ندى. وهكذا سأُصبحُ مجرَّدَ قبَسِ نورٍ، جاعلةً حياتَكِ الصغيرةَ كأسًا تفيضُ فرحًا".

الربَّانُ العاشقُ

الربَّانُ، في الخارج، متأهِّبٌ لاجتيازِ البحرِ الهائج، ليلاً.
والصاري يئنُّ تحت ضرباتِ الريحِ الغاضبة التي تنفخُ كلَّ الأشرعةِ،
والسماءُ التي مزَّقَتْها مخالبُ الليلِ هوت على البحرِ، ناشرةً فيه سموم ظلماتِها وهواجسِها.
والأمواجُ تدفَعُ نواصِيَها صوبَ الظلمة الخفيّة،
والربَّانُ، في الخارجِ، متأهِّبٌ لاجتيازِ البحرِ الهائجِ.

الربَّانُ في الخارجِ، ولستُ أدري من أجل أيِّ موعدٍ، والليلُ واجفٌ حيالَ مفاجأةِ الأشرعةِ البيضاءِ.

لستُ أدري في أيِّ شاطئٍ سيرسي، سعيًا إلى بلوغِ حديقةٍ صامتةٍ، ومصباحٍ مضاءٍ، وإلى لقاء تلك القابعة فوق الترابِ، تنتظرُه.

ما الغايةُ التي يُبْحرُ نحوَها ذلك الزورقُ الذي لا يخشى عاصفةً ولا يهابُ عتمةً؟ هل هو مُثْقَلٌ بأحجارٍ كريمةٍ وجواهرَ؟

لا، فالبحّارُ لا يحملُ معه كنوزًا، إنّما يحمل وردةً بيضاءَ في يده، ونشيدًا على شفتَيْه، وحَسْبُ،

من أجل تلك الساهرةِ، وحيدةً، ومصباحُها مضاءٌ في الليلِ.
إنَّها تقيم عند حافّة الطريقِ،
وشعرُها المُرسَلُ يتطايرُ مع الريح، حاجبًا عينَيْها.

العاصفةُ تعوي من خلال أبوابها المحطَّمةِ، والنورُ يترجرجُ في مصباحِها الخزفيِّ، راسمًا أخيلةً على الجدرانِ.

ومن خلالِ صَخَبِ الريح، تسمعُه يُناديها باسمِها، اسمها المجهول.
وقتٌ طويلٌ كرَّ منذ أبحرَ الربَّانُ،
ولا بدَّ من انتظارِ انبلاجِ الصبحِ حتّى يُقرَعَ بابُها؛
وحينئذٍ لن تُقرعَ طبولٌ، ولن يعلمَ أحدٌ بمجيئِه،
بل وحدَه النورُ سيغمر البيتَ، وسيُبارَكُ الغبارُ، ويتهلَّلُ القلبُ،
وستتلاشى كلّ الريَبِ في الصمتِ، عندما يبلغ الربَّانُ الشاطئَ.

حيثُ يقيمُ الله

أخبرَ الخادمُ مَلِكَه: "سيّدي، إنّ "ناروتّام" القدّيسَ، لم يتنازلْ، يومًا، فيدخل معبدَكَ الملكيَّ. وهو يُنشدُ تسابيحَ الله، تحت الأشجارِ، على قارعةِ الطريقِ، في حين أنَّ المعبدَ مُقفِرٌ من المتعبِّدين الذين يتهافتون نحو "ناروتّام" تهافتَ النحلِ حولَ زهرةِ اللوتُس البيضاءِ، معرضةً عن صحاف الذهب المترعةِ عسلاً.

واستشاطَ الملكُ غيظًا، فوافى إلى حيثُ كان "ناروتّام" قابعًا على العشبِ، وسأله: "أبتِ، لَمَ أنتَ تصدفُ عن معبدي ذي القبَّةِ الذهبية، وتجلسُ في العراء على الترابِ، واعظًا بمحبَّةِ الله؟"

وردَّ "ناروتّام": "لأنّ اللهَ ليسَ هناك، في معبدِك"

وقطَّبَ الملكُ جبينَهُ وأجابَ: "أتعلمُ أنّ عشرين مليون قطعةٍ ذهبيَّةٍ قد أُنفِقتْ على إبداعِ هذه الرائعة الفنّيّةِ، التي كُرِّست لله، في طقوسٍ باهظة الكلفة؟"

وردَّ "ناروتّام": "أجل، أعلم، وقد جرى ذلك، سنة كان ألوفٌ من رعاياكَ الذين حُرِقت منازلُهم، يسألون عونًا أمام بابِكَ، فلا تجيب.

"وقد جال في خاطر الله: "ها إنّ ذلك المخلوقَ البائسَ، الذي يحجم عن توفير مأوًى لإخوتِه، يشيدُ لي مقامًا!"

"ولذا، فقد اختارَ له مسكنًا مع المشرَّدين، تحت أشجارِ الطريق.

"وأمّا فقاعةُ الصابون الذهبيَّةُ هذه، فهي صِفرٌ من كلِّ شيءٍ، خلا بخّورًا تفوحُ منه الكبرياء".

وصاح الملك غاضبًا: "عليكَ بهجر بلادي!"

وردّ القدّيس في رِفقٍ: "أجل، إنفِني، إلى حيثُ، من قبلُ، نفيتَ اللهَ".

لقـاءُ الأبـديِّ

تنسابُ أيَّامي الأرضيَّة، انسيابَ ساقيةٍ ضيِّقةٍ،
وتتشَبَّثُ نفسي بطوْفِ جسدي الحيِّ،
الذي سأتخلّى عنه في غاية الرحلةِ،
وحينئذٍ...؟
تُرى هل يتماثلُ النورُ والظلمةُ هناك؟
إنّ جوهر الذي لا يُدرَكُ هوالحرِّيَّةُ الأبديَّةُ،
ولا عهدَ لحبِّه بالرأفة.
إنّه يسحق القوقعةَ كي يستخرجَ اللؤلؤةَ الصمّاء في سجنِها المظلم.
إنَّكَ تذكُرُ أيّامَكَ الخوالي وتنتحبُ، يا قلبي المسكين،
والأحرى بكَ أن تبتهجَ لأنَّ هناكَ أيَّامًا مُقبلةً.
أزفت الساعة، أيُّها الحاجُّ،
وها قد حانَ لكَ أن تودِّعَ الطرقاتِ.
وسيتجلّى لك وجهُهُ من جديدٍ، وستلتقيانِ وجهًا لوجهٍ.

أوْهــامُ المـوتِ

لقد قبَّلتُ هذا العالَمَ بعينيَّ، وبكلّ أعضائي،
وطويتُه في قلبي طيّاتٍ لا تُحصى.
وسكبتُ على أيّامِه ولياليه جمًّا من الخواطرِ،
حتّى أضحى العالَمُ وحياتي واحدًا.
أحبَبْتُ الحياةَ لأنّي أعشقُ نورَ السماء الثاوي بأكملِه فيَّ.
ولئن تساوتْ، قُوَّةً، حقيقةُ هجر العالَمِ وحقيقةُ حبِّه، فلا ريب أنّ للقــاءات الحياة وفراقاتِها مغزًى.
وإن كان الموتُ علّةَ خيبةٍ للحبِّ، فإنّ دودَ الوهمِ كفيلٌ بنَخْرِ كلِّ الأشــياءِ، وبجَعْلِ النجومِ تذبُلُ، وتُظلِمُ.

انطـــلاقٌ

لقد حطَّمتُ قيودي، وسدّدتُ ديوني، وأشرعتُ بابي، وأنا مــاضٍ إلى كــلِّ مكانٍ، وهم ما زالوا في زاويتِهم قابعين، يحيكون نسيجَ ساعاتهم الباهتةِ، ويعدّون ذهبهم في الترابِ، ويدعونني إلى الإيابِ.
ولكنَّني قد صِغتُ سيفي، وارتديتُ دروعي، وحصاني يقرع الأرض، نافــدَ الصبرِ، وها أنا ماضٍ لغزو ملكوتي.

ربّي في قلبي

كان الشاعرُ "تولسيداسُ" مستغرقًا في أفكاره، على مقربةٍ من نهر "الغانج"، في ذلك المكان الموحِش حيثُ تُحرَقُ جُثَثُ الأموات.

فشاهدَ امرأةً قابعةً عند أقدامِ جثمانِ زوجها، مرتديةً أفخرَ ثيابها، وكأنَّها قاصدةٌ حفلة زفافٍ.

لدى رؤيته، هبَّت واقفةً، وسجدت أمامَه قائلةً: "اسمح، يا معلِّمي، أن أواكبَ زوجي إلى السماءِ، مزوَّدةً ببركتكَ".

وأجاب "تولسيداس": "علامَ العجلةُ، يا ابنتي؟ أوَليست هذه الأرضُ، أيضًا، لخالقِ السماوات؟"

فأجابت المرأةُ: "أنا لستُ إلى السماءِ توّاقةً، بل إلى زوجي".

ابتسم "تولسيداسُ" وقال: "عودي إلى بيتِكِ، يا ابنتي، وقبل انقضاء شهرٍ، ستكونينَ قد التقيتِ زوجَكِ".

وعادت المرأةُ تضجُّ أملاً وفرحًا. وكان الشاعر يزورُها كلَّ يومٍ، ويقدِّمُ لها أفكارًا عميقةً، داعيًا إيَّاها إلى تمعُّنِها، إلى أن امتلأ قلبُها، وفاض حبًّا إلهيًّا.

وشارف الشهرُ نهايتَه، فجاءَها جيرانُها مستوضحين: "هل التقيتِ زوجَكِ، يا امرأة؟"

فأجابت الأرملة باشَّةً: "أجل التقيتُه"

فاستفسروا بلهفةٍ: "أين هو؟"

فأجابت: "إنّ سيّدي في قلبي، وقد غدوتُ معه واحدًا".

نفـــادُ صبرٍ

هتفَ أريجُ البُرعمِ: "ها إنّ النهارَ ينقضي، ويا له من نهارٍ ربيعيٍّ سعيدٍ!، وأنا مازلتُ أسيرَ البتلاتِ".

لا تقنطْ، أيُّها الشيءُ الصغيرُ المتواضعُ.

ستُفَكُّ قيودُكَ، وسيتفتّق البرعمُ عن زهرةٍ، وعندما ستذبلُ، وأنت في مقتبلِ العمرِ، سيستمرُّ، من بعدِكَ، الربيع.

تَمَلْمَلَ الأريجُ قلقًا في برعمه، هاتفًا: "ها إنّ الساعات تكرُّ، وأنا مابرحتُ أجهلُ إلى أين أمضي، وعمّا أبحثُ".

لا تقنطْ، أيُّها الشيءُ الصغيرُ الوضيعُ.

فقد استبقَ النسيمُ الربيعيُّ رغبتَكَ، ولن ينقضي النهارُ قبلَ تحقيقِ مصيرِكَ.

بدا المستقبلُ للأريجِ مُبهَمًا، فهتفَ:

"آه، لا معنًى لحياتي، فمَن المُخطئُ؟ مَن يستطيعُ أن يبيّنَ لي علَّةَ وجودي؟"

لا تقنطْ، أيُّها الشيءُ الصغيرُ الوضيعُ.

فالفجرُ الكاملُ باتَ وشيكًا، وفيه ستمتزجُ حياتُكَ بالحياةِ الأبديَّةِ، وحينئذٍ ستُدرِكُ، أخيرًا، سببَ وجودكَ.

عَروسُ المستقبلِ

يا سيّدي، إنّها ليستْ، بعدُ، سوى فتاةٍ صغيرةٍ،

تعدو حولَ قصرِكَ، لاهيةً، وتسعى أن تجعلَ منكَ، أيضًا، إحدى دُماها.

لا تعبأْ بفوضى شعرِها المشعَّثِ المتدلّي، ولا بثيابِها المهملة التي تجرجرُها في التراب.

إنّها تغفو عندما تكلِّمُها، ولا تجيبُ، والزهرةُ التي قدَّمتها لها في الصباحِ، تنْزلق من يدِها، وتسقطُ على التراب.

عندما تنفجرُ العاصفةُ في السماءِ المربَدَّةِ، تستيقظُ، وترمي دُميَتَها أرضًا، وتتشَبَّثُ بكَ مرتعبةً،

وتخشى إغضابَكَ،

وأنت ترمُقُها مبتسمًا، وهي تلعبُ،

لأنّكَ عالمٌ بدخيلةِ نفسها.

إنّ هذه الفتاةَ الصغيرةَ، القابعةَ على الترابِ، مُعدَّةٌ لتكونَ لك زوجةً،

وألعابُها، بعد أن تهدأَ وتنضج، ستتحوَّلُ حبًّا.

إرثُ الحقيقةِ

كانت الشمسُ قد توارَت خلفَ ضفَّةِ الساقيةِ الغربيّةِ، وسطَ الغابةِ الكثيفةِ، وكان التلاميذُ الشبّانُ قد عادوا بالقطعانِ إلى زريبتِها، وتحلَّقــوا حــولَ النــارِ، لسماعِ المعلِّمِ "غوتاما"، عندما دنا منه غريبٌ، وانحنى حتّى قدَميْه، وقــدّم لــه زهورًا وثمارًا، وقال، بلهجةٍ عذْبةٍ، تحاكي زقزقةَ عصفورٍ:

"سيِّدي جئتُكَ كي تقودَني على درب الحقيقةِ السُّمْيا. اسمــي "ســاتيكاما". وأجاب المعلِّم: "البركةُ على رأسِكَ. من أيّةِ طبقَةٍ أنتَ يا بــنيَّ؟ فالمنتســبون إلى طبقة البرهمان، وحدَهم، يحقُّ لهم التطلُّعُ إلى الحكمةِ القصوى".

فقالَ الفتى: "لا علمَ لي بطبقَتي الاجتماعيّةِ، وسأعودُ كي أستوضحَ أُمّي".

وفي الحالِ، استأذَنَ "ساتياكاما" بالانصرافِ، واجتاز معبرَ الساقيةِ، عائدًا إلى كوخِ والدتِهِ، الجاثمِ في طرفِ الصحراءِ الرمليّةِ، عند حاشيةِ القريةِ الغافيةِ.

كان المصباحُ ينوسُ في الحجرةِ، ووالدتُه جالسةٌ عندَ الباب في العتمةِ، تنتظــرُ عودةَ ابنِها، فضمَّتْهُ إلى صدرِها، وقبَّلَتْ رأسَهُ، واستوضحَتْ عن مــآلِ زيارتِــه للمعلِّم، فسألها: "ما اسمُ أبي، يا حبيبَتي؟ فالمعلِّم "غوتاما"، أنبأَني أنّ المنــتمين إلى طبقةِ البرهمان، وحدَهم، يحقُّ لهم التطلُّعُ إلى الحكمةِ السُّمْيا".

فأطرَقَت المرأةُ، وأجابَتْ، بصوتٍ خفيضٍ: "كنتُ فقيرةً في صباي، وكان لي أسيادٌ كُثُرٌ، وجئتَ، أنت، إلى ذراعَيْ أُمِّكَ "جبالا"، يا حُبِّي، ولم يكــن، قــطُّ، لأُمِّكَ زوجٌ".

التمعتْ أُولى أشعّةِ الشمسِ على ذُرى أغصانِ غابة المَنْسكِ. وجلس التلاميذُ تحت الشجرةِ المقدَّسةِ، أمامَ المعلِّم، فيما لم تزَلْ رؤوسُهم مبلَّلةً بالاغتسالِ الصباحيِّ. ومثُلَ الفتى "ساتياكاما"، وانحنى، عميقًا، حتّى قدَمَي الحكيم، ملتزمًا الصمتَ. فسأله المعلِّم: "قُلْ لي من أيَّةِ طبقةٍ أنتَ؟" وأجاب الفتى: "يا سيّدي، لستُ أدري. فلمّا استوضحتُ أُمّي، أجابتْ بقولها: "خدمت أسيادًا كُثُرًا في صباي، وجئتَ، أنت، بين ذِراعَيْ أُمِّكَ "جبالا"، التي لم يكنْ لها زوجٌ".

وتعالت همَساتٌ تحاكي دويّ نحلاتٍ هائجاتٍ، أُقلِقْنَ في خليَّتهنَّ. وشرع التلاميذُ يشتمون قِحَةَ ذلك الفتى المنبوذِ.

أمّا المعلِّمُ "غوتاما"، فنهضَ من مقعدِه، وبسطَ ذراعَيْه، وضمّ الفتى إلى صدرِه، وقال: "أنت خيْرُ برهمان، يا بُنيَّ، لأنّكَ تمتلِكُ الإرثَ الأنبل: إرثَ الحقيقةِ".

الحرّيّــةُ الإلهيّــةُ

هل تسمعون، بعيدًا، جَلَبَةَ الموتِ، ونداءً منطلقًا من خلالِ أمواجِ النارِ والغيومِ المسمومةِ؟

إنّه نداءُ الربّانِ إلى النوتيّ كي يدفعَ بالسفينةِ صَوْبَ مرفأٍ لا اسمَ له، لأنّ زمنَ الرقادِ الآسنِ في المرفأ قد ولّى،

في ذلك المرفأ، حيثُ البضاعةُ القديمةُ تُشرى وتبــاعُ، في دورةٍ لا تنتـــهي، وحيثُ الأشياءُ الميتةُ تائهةٌ، لأنّ الحقيقةَ استُهلِكتْ وأصفَرَتْ.

استيقظَ البحّارةُ مذعورين، وقد استحوذَ عليهم رعبٌ مفاجئٌ، وسألوا:
"أيُّها الرفاقُ، ما هي الساعةُ الآنَ، ومتى سيُشرِقُ النهارُ؟"
فالغيومُ قد محَت النجومَ كلَّها، وليسَ من قادرٍ على تبيُّنِ إصبعِ الفجرِ وإشاراته.
وأمسكَ البحّارةُ مجاذيفَهم، وانطلقوا، هاجرينَ أسرَّتَهم، وأُمَّهاتِهم المصلّيات، وزوجاتِهم المراقباتِ عند الأبواب.
وتعالَتْ آهةُ وداعٍ صوب السماءِ، وهتفَ صوتُ القبطانِ:
"هلمّوا، يا بحّارةُ، فزمنُ الأمانِ قد ولّى".

لقد حطَّم جميعُ شياطينِ الأرضِ السُّودِ سدودَهم،
ومع ذلك، اتّخذوا، أيُّها البحّارةُ، أماكنَكم، مع الألمِ المباركِ الضاجِّ في صدوركُم.
ومَن عَساكم تلومون، يا إخوتي؟
بل بالحريِّ طأطئوا رؤوسَكم، فالخطيئةُ هي خطيئتُكم، وخطيئتُنا، أيضًا.
إنّ الغضبَ المتنامي في قلبِ اللهِ مدى قرونٍ، من جرّاءِ جُبْنِ الضُّعفاءِ، وصَلَفِ الأقوياءِ، وجَشَعِ الغارقين في البحبوحةِ، وضغينةِ المُحبَطين، وزهــوّ المفــاخرين بمحتدِهم، وإهانةِ الإنسانِ.

هذه كلُّها قد فجَّرتْ سلامَ الله عاصفةً هوجاءَ.

كما تلفظُ قشرةُ الثمرةِ الناضجةِ لُبَّها، فلينشقَّ قلبُ العاصفة، ويسْكبْ صواعقَه!

أقلعوا عن الضجيجِ بلومِكم وبمديحكم، وجذِّفوا نحوَ الشاطئ الذي لا اسمَ له، مصحوبينَ بسلام الصلاةِ الصامتةِ، المسكوبةِ على جبينِكم.

في كلِّ يومٍ بَلَوْنا الشرَّ والخطيئةَ، وعَهِدنا الموتَ.

وكانت كلُّها تحومُ حولَ عالِمنا حَوْمَ سُحُبٍ ساخرةٍ، بضحِكِها الوامض كالبرقِ.

ويا للمعجزةِ! هدأت العاصفةُ، فجأةً، وانتصبَ الرجالُ حيالَها، وصاحوا:

"لسنا نخشاكم، يا وحوشُ، فنحن نُحرِزُ، كلَّ يومٍ، عليكم نصرًا، وسنموتُ أوفياءَ لإيمانِنا بحقيقة السلامِ، والعطفِ، والكائنِ الأزليِّ.

فإن لم يكن الخلودُ كامنًا في صميم الموتِ، وإن لم يكن فرحُ الحكمةِ يتفجَّرُ من غمد الألمِ، وإن كانت الخطيئةُ لا تموتُ بمجرَّدِ فضحِها، وإن لم تكنْ الكبرياءُ تتهاوى تحتَ عبءِ كلِّ مهازِلِها، وأباطيلها،

فمن أينَ ينبعُ الرجاءُ الذي يُكره جميعَ البشر على هجر منازلهم، مثل النجومِ التي تسعى إلى موتها في نور الصباحِ؟

وهل تفقدُ دماءُ الشهداءِ، ودموعُ الأُمّهاتِ كلَّ قيمتِها في ترابِ الأرضِ؟

أوَليستْ هي ثمنَ الفردوسِ؟

وساعةَ يحطِّمُ الإنسانُ قيودَ الموتِ، ألا تتجلّى له، في الحال، الحُرِّيَّةُ الإلهيّةُ؟

كلامك بسيطٌ

بسيطٌ كلامُكَ، يا سيّدي، على نقيض كلام تلاميذك الناطقين باسمك.
إنّي أفهم صوت النجوم، وصمت الأشجار،
أعلم أنّ قلبي راغبٌ في التفتّح مثل الزهرة، وأنّ حياتي قد امتلأت من نبعٍ خفيٍّ.
أناشيدك، مثل الطيور القادمة من بلاد الثلج الكئيبة، قد حطّت على قلبي لكي تبني فيها عشّها، وتحتمي فيه من هجير نيسان، وأنا، أترقّب، راضيًا، حلول الفصل السعيد.

ألوانُ الحبِّ

أيُّها الحبُّ، لقد لوَّنتَ خواطري وأحلامي، بذيولِ انعكاساتِ مجدِكَ،
فتجلّت حياتي ببهاءِ موتي الوشيكِ.
وكما تعلّلُنا شمسُ المغيبِ بشيءٍ من فردوسٍ،
حوَّلتَ، أيُّها الحبُّ، ألمي إلى نشوةٍ قصوى،
وبسِحْرِكَ غدا لي الحياةُ والموتُ
إدهاشًا واحدًا بلا حدودٍ.

انتصـارُ النـورِ

يزحفُ الليلُ الشرِسُ خلسةً،
مقتحِمًا باب جسدي الهشِّ،
ويتسلَّلُ إلى داخلي، عُنوةً،
دائبًا على استلابِ الصورةِ التي يزدهي بها كياني،
فيستسلمُ روحي لهجمةِ الظلامِ.
وما إِن تُدخِلُني الهزيمةُ في العارِ والوهَنِ،
حتّى تتراءى، في البعيدِ، رايةُ النهارِ متألِّقةً،
وتتعالى، من بُعْدٍ، مثلَ همسةٍ، صيحةٌ تقولُ:
"كذبٌ، كذبٌ"
وفي ضوءِ المصباحِ الساجي،
على قمّةِ قلعةِ جسدي المدمَّر،
أرى، فيَّ، ذاك الذي انتصرَ على الألمِ.

مصباحي الأرضيّ

حملتُ مصباحي الأرضيّ، وخرجتُ هاتفًا: "تعالوا، يا أولاد، فأنير دربكم!" وكان الليل ما زال حالكًا حين عدتُ أدراجي، هاجرًا صمت الليل وهاتفًا: "أنرني، أيّها الضوء الإلهيّ، فمصباحي الأرضيّ قابعٌ محطّمًا في الرغام".

مسافرٌ

إنّي المسافرُ الذي لا يتطلّعُ إلاّ إلى الأمامِ،
فما جدوى دعوتي إلى العودةِ القهقرى؟
أنا لا أمكثُ في بيتي، يحيقُ بي جاذبُ الموتِ،
بل علّقتُ طوقَ الزهورِ في عُنقِ الكائنِ الشابِّ،
وحملتُ في يدي هدايا اتّحادي به.
وها إنّي أُلقي عنّي أحمالي القديمةَ، وأكوام شيخوختي الثمينة،
وها إنّ السماءَ الرحبةَ ضاجَّةٌ بنشيد المسيرةِ البهيجِ.
وأنتِ، يا نفسي،
في عَرَبتِكِ يُنشِدُ اللهُ، شاعرُ العالمِ،
والشمسُ والقمرُ والنجومُ تغنّي من حولِنا.

من دواوين

"الهاربة"؛ "بجع"؛ ومتفرّقات

جزيـرةُ الحبِّ

مصيرُنا يرتحلُ على متنِ بحرٍ بكرٍ، لا تني أمواجُه تتلاحقُ في عبثٍ لا ينتهي.
إنّه بحرُ التغييرِ القلقِ الذي لا يكفُّ يفقدُ قطعانَه، مُصفِّقًا لسماءٍ لا تتبدّلُ.

ووسطَ هذا البحرِ الهائجِ، بين الفجرِ والليلِ، أيُّها الحبُّ، أنت الجزيرةُ المُخْضلَّةُ حيثُ تُقبِّلُ الشمسُ الظلَّ الشفّافَ، وحيثُ العصافيرُ هي منشدةُ الصمتِ العاشقةُ.

الأوتـارُ المقطّعةُ

العشّاقُ يأتونَكِ، يا مليكتي، ويودعونَ كنوزَهم، بكبرياءٍ، عند قدَمَيْكِ. وما تقدِمتي سوى أوهامٍ.
لقد تسرَّب الحزنُ إلى قلبِ عالمي، وسادَت الظلمةُ على أفضلِ ما لديَّ.
السعداءُ يسخرون ببُؤْسي، وأنا أرجوكِ أن تبكي عليه، فيكتسبُ بؤسي ثمنًا رفيعًا.
إنّي آتيكِ بآلةٍ لا صوتَ لها، فقد قسوتُ على أوتارِها لعلّي أستخرجُ منها النغمةَ القصوى، فتحطّمت أوتاري.
وفيما يهزأ السادةُ بأوتاري المقطّعةِ، أرجوكِ أن تأخذي أوتاري بيَدَيْكِ، وتملئي الصمتَ بنشيدِكِ.

الهـاربَةُ

تتسلّلين تحت جنح الظلام، أيَّتُها الهاربةُ، ويخلِّفُ حضورُك الهيوليُّ وراءَه علامةً مضيئةً.

هل تاقَ قلبُكِ إلى العاشقِ الذي يناديكِ، من أعماقِ وحدةٍ لانهائيّـــةٍ؟ وهـــل سرعةُ هروبكِ هي التي بسَطَتْ فوقَ كتفَيْكِ فوضى جدائلِكِ الهائجة؟

قدماكِ اللتانِ تقبِّلان غبارَ العالم، تطبعان عليه بصمةَ رقَّةٍ.

إنّكِ من وهادِ الموتِ تنتزعينَ كلّ حياةٍ، وكلّ إزهارٍ.

وعندَما يستوقِفُكَ التعبُ، فجأةً، يتوقَّفُ الكونُ عـــن الوجـــودِ. إنّ وقـــعَ خطواتِكِ اللامرئيّةِ يُثيرُني، ونشيدُ اللجَّة المتدَفِّقةِ ينبضُ فيَّ، وأنت ترتحلينَ بي من عالمٍ إلى عالمٍ، ومن مَشهدٍ إلى مشهَدٍ، فأتلقَّى أفراحًا، وآلامًا، وأغاني.

الأمواجُ صاخبةٌ، والريحُ عاصفةٌ، والمركبُ يتراقصُ مثلَ رَغَباتِ نفسي.

سأودِعُ على الشاطئ كنْـــزي، وسأرحلُ في ليلَةٍ لا قرارَ لها، صوبَ الأنـــوار التي لا تخبو.

غنـــاءُ العصـفورِ

ماذا كنتَ تفعَلُ بأناشيدِكَ، يا عُصفوري، عنـــدما كنـــتَ مُكـــوَّرًا في دفءِ عشِّكَ؟

ألستَ تجدُ فيه كلَّ فرحِكَ؟ وأيُّ توقٍ يدفعُكَ إلى إفراغِ نَفْسِكَ في الفضـــاءِ اللامحدودِ؟

– في دفْءِ العشِّ تخرَسُ سعادتي، وفي الفضاءِ اللامحدودِ، اكتشفتُ أنّني أُجيدُ الغناءَ".

مسـيرةُ وردةٍ

استيْقَظتُ، صباحًا، ورأيتُ وردةً في إناءٍ،
فاستوضَحَها فكري عن الدافعِ
الذي اجتازَ بها آلافَ السنين،
كي يبلغَ بها هذه المرتبةِ من الروعةِ،
متفاديةً، عند كلّ مفترقٍ،
ضرباتِ التشويهِ والبشاعةِ.
وهل يمكنُ أن يكونَ هذا الدافعُ أعمًى، أو لامباليًا؟

نـداءُ الربيـعِ

كنّا معًا، عندما قرعَ الربيعُ بابَنا هاتفًا: "دعوني أدخُل!"
وزفَّ إلينا همسَ أسرارِ فرحِه، ورعشةَ النبتات الوليدةِ.
كنتُ، أنا، مأخوذًا بأفكاري، وأنتِ كنتِ عاكفةً على مغزلِكِ،
ونأى الربيعُ؛ وشهدناه يتلاشى، بغتةً، مع ورودِهِ الأخيرةِ.

والآنَ، وقد غِبْتِ عنّي، يا حبيبتي، يقرعُ الربيعُ البابَ، ويقــولُ: "دَعــوني أَدخُلْ!"
ويقدِّمُ لي رِعشَةَ أوراقِ الأشجار اليابسةِ، وصدى هديل الحمامِ.
وأنا جالسٌ عندَ النافذةِ، وبقربي طَيْفٌ يغزلُ رؤًى حزينةً.
والأبوابُ كلُّها مشرعةٌ للربيعِ الذي لم يعُدْ له ما يقدِّمُه سِوى آلامٍ خفيَّةٍ.

فـرحُ العطـاء

قالت الصحراءُ للسحابةِ:
"ما أتعسني! فأنا أتلقّى منكِ فيضَ ماءٍ،
فما عساني أُقابلُ به جميلَكِ؟"
فأجابَت السحابةُ: "لا يترتّبُ عليكِ، يا صحراءُ، تقديمُ أيِّ شيءٍ، فحســبي فرحُ العطاءِ الذي أنْعمُ به".

الحيـاةُ والمـوتُ

لقد أحببتُ هذا العالَمَ،
وتعلَّقتُ به بكلِّ وَترٍ من أوتارِ كياني، مثل النَّبتَةِ المتسلِّقةِ،
وطافَ في وجداني نورُ القمرِ وظلمتُه، الممتزجان بالمساءِ، وذابا فيه،
بحيث أمست حياتي والكونُ واحدًا، في نهاية حياتي.
إنّي أُحبُّ نورَ العالمِ، وأُحبُّ الحياةَ في ذاتِها.
ولكن، ليس أقلَّ حقيقةً أنَّ الموتَ واجبٌ عليَّ.
فذاتَ يومٍ، ستتوقّفُ كلماتي عن الإزهارِ في المدى،
وستكفُّ عيناي عن الاستسلامِ للضياءِ،
ولن تسمعَ أُذنايَ، بعدُ، رسائلَ الليلِ السرِّيَّةَ،
ولن يهرعَ قلبي مستجيبًا لدعوةِ شروقِ الشمس الصاخبةِ،
ولا مفرَّ لي من الانتهاءِ بنظرةٍ أخيرةٍ، وبكلمةٍ أخيرةٍ.
وإن كانت الرغبةُ في الحياةِ حقيقةً كبرى،
فالوداعُ النهائيُّ هو حقيقةٌ كبرى أُخرى،
ومع ذلك، فلا معدى عن قيامِ تناغمٍ بينهما،
وإلاّ لما احتملت الخليقةُ، طويلاً، وببسمةٍ، فظاعةَ الخديعةِ،
وإلاّ لكان النورُ قد اسودَّ، مثلَ زهرةٍ التهمَها الدودُ.

المرتحـلِ

إنّني ما دمتُ أقبع ساكنًا، بلا حراكٍ،
فإنّما أنا أكدّس أكوام الأشياء، وألتهم هذا العالم، بقَضَماتٍ صغيرةٍ، نظير الحشرات.
وهكذا يتضاعف وِقْرُ آلامي بهظًا،
وترين، تحت عبء الهموم، حياتي التي هرمت، وشابت بفعل شتاء الشكوك.

ولكن، إن انطلقتُ جاريًا مع تيّار الحركة الجارف،
ومع كتلة هذا العالم المشدودة،
وقد تمزّقت ثيابي كلّها، وتقطّعت،
فحينئذٍ ستتبدّد شتّى أعباء الألم،
وسأكتسب طهرًا، وسأستحمّ في تيّار السير.
وأرتشف عصير الجري الخالد.
وسيستيقظ شبابي على حياةٍ قشيبةٍ،
وسيعهد، في كلّ لحظةٍ، تجدّدًا.

وها أنذا المرتحل الذي لا يتطلّع إلاّ إلى الأمام،
فلا جدوى من دعوتي إلى العودة القهقرى.
لستُ أمكث في بيتي، وقد استحوذ عليّ جاذب الموت.
بل ها قد علّقتُ قلادة الزهور في عنق الكائن الشابّ،
وحملتُ في يدي هدايا اتّحادي به.

وها إنّي أُلقي عنّي حملي القديم، وأكوام شيخوختي الثمينة،
وها إنّ السماءَ الرحبة ضاجَّةٌ بنشيد المسيرة البهيج.
وأنتِ، يا عربةَ نفسي، يُنشِدُ فيكِ اللهُ، شاعر العالم،
والشمس والقمر والنجوم تغنّي من حولنا.

جئـتُ

عندما كنتَ وحيدًا، منكفئًا على ذاتك،
لم تقوَ على اكتشاف حقيقة ذاتك.
حينئذٍ لم تكن تملك قلق النظرة، الساهر على النظرة،
ولم تعهد صيحة الآهةِ، ولا اصطخاب الريح من ضفّةٍ إلى ضفّةٍ.
وجئتُ، فانتهى سباتكَ.
ورَدَم ازدهار الفرح والنور فراغَك، بعد سيادة الفراغ.

جعلتني أتفتّح براعمَ وزهورًا،
وأرجحتني في هدهدة الجمال الجمّ،
ونشرتني نجومًا، ثمّ اقتطفتني في أحضانك،
أخفيتَني، ردَحًا، في طوايا الموت،
لكي تبتهج بالعثور عليَّ، عل شكلٍ قشيبٍ.

جئتُ فاهتزّ فؤادُك، جئتُ فوُلِدَ فيك الألم.
جئتُ فجاء معي فرحك المفعم نارًا،
وربيعُك الوحشيّ، مثيرًا عاصفة الحياة والموت.
جئتُ، وجئتَ أنت أيضًا، وحدّقتَ إلى وجهي،
وارتجفتَ عندما لمستُك، إذ أحسستَ بلمسة ذاتك الحقّة!

في عينيّ يكمن الخجل، وفي قلبي يثوي الخوف،
ويخفي قناعٌ وجهي دائمًا.
والدموع تلي الدموع، حائلةً دون مشاهدتِك مشاهدةً حقيقيّةً.
ولكنّني موقنٌ، يا سيّدي، أنّ رغبتك في رؤيتي، لا يحدّها حدٌّ.
وإلاّ، فعلامَ أبديّة الشموس والكواكب هذه؟

عطـاءاتك

ستعطي، ستعطيني.

انقضت أيّامي في ترقُّبٍ متّصلٍ.

وعلى مدى حركة الأفراح والمِحَن المستمرّة، والتي لا تنفكّ تأتي وتؤوبُ،

مددتُ يديَّ، ليلَ نهار، موقنًا أنّك ستظلّ تعطي.

وها أنذا أسألك، الآن أيضًا، عطاءً.

لطالما أعطيت، ولم تكفّ عن العطاء،

أحيانًا مِزَقًا، وأحيانًا بعد لأيٍ وانقطاعٍ، وأحيانًا في طوفانٍ مباغـتٍ دافـقٍ بأنفس الهبات.

ولقد تلقَّيتُ عطاياك وبعثرتُها، وحِكتُ حلقات شبكةٍ أطبقتْ علـى يـدي، وقيّدت قدميَّ.

ومن جرّاء لامبالاتي، وإهمالي، وخَدَر نفسي، اتّخذتُ منها دُمًى، أضـفتها إلى دماي المحطَّمة.

غير أنّك أعطيتَ ولم تكفّ عن إغداق عطاياك.

إلى أن ملأت كأس عطاياك العالم.

وها أنذا، اليومَ، أنوء بوقر كلّ عطاياك المكدَّسة الباهظة، التي بتُّ عاجزًا عن حملها.

لا طاقة لي، بعدُ، على احتمال ترقُّب قلبي المستعطي، المألوف، وهذا الدخول والخروج، إلى ما لا نهاية، من بابكَ،

ودأبي على السؤال، كلّما أُعطيتُ.

إنّ تلقّيَّ واستعطائي ينموان معًا. ولم تعُدْ لديّ طاقةٌ على احتمال هذه الضرورة التي لا تنتهي، والتي تملأ صباح حياتي ومساءَها بتسوّلٍ كلّيٍّ.

فمتى ستأخذني، متى ستقبض عليّ، يا سيّدي؟

متى ستستجيب لدعائي هذا؟

ومتى ستقذف بهذه الكأس المترعة ظمأً باطلاً؟

متى ستطفئ مصباح انتظاري الذي يظلّ مشتعلاً في حلَك الليالي،

أنتَ، يا من تطوّق باقةُ حياتي عنقَه؟

متى ستطلق سراحي، بعيدًا عن أكوام عطاياكَ المقدّسة المائتة، في سنى ضياء سمائك الرحبة، العارية، الصافية؟

ديـوني

كنتُ أَجهل مليكي،
ولذلك، عندما طولبتُ بما يحقُّ له من مكوسٍ،
زيَّنتْ لي حماقتي أن أخدعه،
فلذتُ بالفرار، مُعرضًا عن تسديد ديوني.
ولكن حيثما فررتُ، ومهما احتطتُ بالسرّيّة والكتمان،
ما انفكّ نداؤه يُلاحقني، كلّما تنفّستُ،
محترقًا كدّ النهار، وأحلام الليالي.
وهكذا أدركتُ أنّني لستُ نكرةً عند الله،
وأنّني فقدتُ حتّى ملاذي الأخير،
من جرّاء ديوني اللامحدودة.
فلا مناص من أن أُودع كلّ ما أملك،
عند قدمَيْه، من خلال حياتي وموتي.
وعندئذٍ فقط سأعثر على مسكني الحقيقيّ، وعلى ملكوته،
وسأنال قوَّتي الخاصّة، وأظفر بحقّي.

من ديوان

"بستانيّ الحبّ"

إنّي من جميع الأعمار

......

ما همّ إن دبّ المشيبُ في رأسي؟

فأنا دائمًا في مثل شبابِ أكثرِ شبّانِ القريةِ صبًا، وفي مثل شيخوخةِ أكثر شيوخِ القريةِ طعنًا في السنّ.

تفترُّ شفاهُ بعضِهم عن بسمةٍ صريحةٍ رقيقةٍ، وفي عيونِ بعضِهم يلتمعُ المكرُ.

بعضُهم يذرّفون الدموعَ في وضحِ النهارِ، والآخرون يُخفون دموعَهم تحت جنح الظلام.

جميعُهم يحتاجون إليَّ، وليس لي من الوقتُ متّسعٌ للتأمُّل في الحياة الآتية.

إنّي من جميع الأعمار، وما همَّ إن دبَّ المشيبُ في رأسي؟

لا أجدُ ما أنشُدُه

إنّني أطفر، مثلما يطفر في ظلال الغابة، أيّلٌ عابقٌ بالمسك، منتشٍ بطيبِه.

الليلُ ليلُ أيّار، والنسمةُ، تهفُّ من الجنوبِ،

وأنا ضللتُ طريقي، فشردتُ: أنشدُ ما لا قِبَلَ لي على الظفر به، وأعثرُ على ما لا أنشد.

من قلبي يَطْفرُ طيفُ رغبتي، فأراه يتراقصُ أمامَ ناظريَّ.

ثمّ تختفي الرؤيا المتوهّجة. أهمّ بالقبضِ عليها، فتتملّصُ، وتدعُني تائهًا.

أبحث عمّا لا قِبَلَ لي على الظفرِ به، وأعثر على ما لا أنشدُ.

صيدٌ لا فائدة منه

صباحًا ألقيتُ شبكتي في اليمِّ،

وانتزعتُ من الهوّةِ القاتمةِ روائعَ غريبةً. بعضُها كان يلتمع التماعَ بسمةٍ، وبعضُها يتلألأُ لألأَةَ دموعٍ، وبعضُها كان مُضرَّجًا بحمرةٍ تحاكي خدودَ العروس.

ولّما عدتُ إلى البيتِ مُثقَلاً بحملي الثمين، كانت حبيبتي مستلقيةً، في الحديقةِ، مسترخيةً، دائبةً على انتزاع بتلات زهرةٍ.

تردَّدتُ بُرهةً، ثمَّ ألقيتُ عند قدَميْها كلَّ ما انتشلتُه من البحر، معتصمًا بالصمت، فألقت نظرةً، وقالت: "ما هذه الأشياءُ الغريبةُ، وما نفعُها؟"

فأطرقتُ خجلاً، وجال في خاطري: "أنا لم أكدَّ في الحصولِ على هذه الأشياءِ، ولم أبتَعْها من السوق، وهي ليست هدايا تليقُ بها".

وأنفقتُ الليلَ كلَّه ملقيًا هذا الكنْزَ على قارعةِ الطريق.

وفي الصباح، وافى رحّالةٌ، فلملموا تلك الأشياءَ، ومضوا بها إلى بلادٍ بعيدةٍ.

بستانيّ الحبّ

الخادم: أيّتها الملكة، ارأفي بخادمِكِ.

الملكة: لقد ارفضّ المجلس، وانصرف جميع خدّامي. فما بالك تأتيني في هذه الساعة؟

الخادم: ساعتي تحين عندما تنقضي ساعة الآخرين. فهل لك أن تخبريني أيّ عملٍ يتعيّن على آخر خدّامك القيام به؟

الملكة: ماذا تأمل عمله، في هذا الوقت المتأخّر؟

الخادم: اجعليني بستانيّ حديقة زهورك.

الملكة: يا لك من مأفونٍ!

الخادم: سأعزف عن كلّ مهمّةٍ أُخرى، وسأُلقي في التراب رماحي وسيوفي. وأرجوك ألاّ توفديني إلى ممالك نائيةٍ، وألاّ تكلّفيني بفتوحاتٍ جديدةٍ. بل اجعليني بستانيّ حديقة زهورك.

الملكة: وعلامَ تقوم خدمتك؟

الخادم: تحقيق ما يُرضيكِ. سأُبقي عشب الطريق الذي تخطرين عليه، صباحًا، دائم النداوة، بحيث تبارك الزهور التوّاقة إلى الموت، لدى كلِّ خطوةٍ تخطينها، القدَمَ التي تدوسها.

وسأهزّ أُرجوحتك بين أغصان شجر "السپتاپارما"، فيما يسعى القمر الذي طلع باكرًا في المساء، إلى تقبيل ثوبك من خلال أوراق الأشجار،

وسأملأ المصباح المشعل قرب سريركِ زيتًا عطرًا، وسأزيّن موطئ قدمَيْكِ برسومٍ رائعةٍ مصنوعةٍ من الصندل وعجينة الزعفران.

الملكة: وأيَّة مكافأةٍ ترجو؟

الخادم: أن تأذني لي بأن أُمسكَ بين يديَّ كفَّيكِ اللتين تحاكيان براعم اللوتُس الطريّة، وأن أُطوّق ذراعيْكِ بسلاسل زهورٍ، وأن أطليَ رجلَيْكِ بعصير بتلات "الأشوكا" الأحمر، وبأن ألتقط، في قبلةٍ، ذرَّة الغبار التي تكون قد تاهت والتصقت بهما.

الملكة: يا خادم، طلباتك مستجابةٌ. ستكون بستانيّ حديقة زهوري.

عينـاكِ

إنّ قلبي، عصفور الصحراء، قد وجد سماءَه في عينَيْكِ،
إنّهما مهد الصباح، ومملكة النجوم.
وفي هوَّتهما تغوص أناشيدي.
فدعيني أحلّق في هذا الفضاء الرحب الموحش، دعيني أمزّق سحبَه،
وأبسط جناحيّ في ضياء شمسه.

كم نداء نايك موجعٌ!

لستُ أجدُ إلى الدعةِ سبيلاً،
فأنا في ظمإٍ إلى اللانهاية،
ونفسي المضنّاةُ تصبو إلى المجهولِ النائي.
كم نداءُ نايِكَ موجعٌ، أيُّها اللامرئيُّ الأكبرُ!
إنّني أنسى، أبدًا أنسى، أنّي أفتقرُ إلى أجنحةٍ كي أطيرَ، وأنّ الأرضَ تشدّني بوشائجَ أبديّةٍ.

نفسي مضطرمةٌ، والنومُ يجفوني، فأنا غريبٌ في بلادٍ غريبةٍ.
إنّك تهمسُ في أذني أملاً مستحيلاً،
ويعرفُ قلبي صوتَك، وكأنّه صوتُه.
كم نداءُ نايِكَ موجعٌ، أيّها المجهولُ الأكبرُ!
إنّني أنسى، أبدًا أنسى، أنّي أجهلُ الطريق، وأفتقرُ إلى حصانٍ مجنّحٍ.

إنّني عاجزٌ عن الظفر بالسكينة، وغريبٌ حتّى عن قلبي.
من خلالِ ضبابٍ تضيئُه الشمسُ، كم من ساعاتٍ تكرّ كئيبةً! وكم تتجلّى رؤياكَ جمّةً على زرقةِ السماء،
وكم نداءُ نايِكَ موجعٌ، أيُّها العظيمُ الذي يندُّ عن الإدراك!
إنّني أنسى، أبدًا أنسى أنّ الأسوارَ مُحكمةُ الإغلاقِ، في المنْزل الذي أُقيمُ فيه وحيدًا.

القفص والفضاء

كان عصفورٌ أليفٌ في قفصٍ، وعصفورٌ برّيٌّ في الغابة.

وجمعتهما الصدفةُ، فهتَفَ العصفورُ البرّيُّ: "آه! يا حبيبي، فَلْنَطِرْ صوبَ الغاباتِ".

فهمسَ العصفورُ الأليفُ: "بل تعالَ أنتَ، ولْنَعِشْ معًا في القفص".

وأجابَ العصفورُ الحرُّ: "أنّى لجناحيَّ أن ينبسطا بين هذه القضبانِ؟".

وتأوّهَ العصفورُ السجينُ: "وأنا لن أجدَ مجثمًا في الفضاءِ".

– "تعالَ، يا حبيبي، كي ننشدَ أناشيد الغاباتِ".

– "امكثْ على مقربةٍ منّي، فأُلقِّنَك فنَّ الموسيقى".

– "لا، لا سبيلَ إلى تعلُّمِ الأناشيدِ، أبدًا".

– "وا أسفاه، أنا أجهلُ أناشيدَ الغاباتِ".

كلاهما عَطِشٌ إلى الحبِّ، ولكن لن يتسنّى لهما، أبدًا، أن يطيرا جناحًا لجناحٍ. من خلال قُضبانِ القفَص يتأمّلُ أحدهما الآخر، وسدًى يرغبان في التعارف. يخفقان بأجنحتهما وينشدان: "اقتربْ منّي، يا حبيبي".

ويقرّ العصفورُ الحرُّ: "لا أستطيعُ، فأنا أخشى أبوابَ القفصِ الموصدة".

ويجيبُ العصفورُ السجينُ: "وا أسفاه! جناحاي عاجزانِ، بل ميتانِ".

يتوارى خلف الأشجار

عندما تقصدُ الشقيقتان امتياحَ الماء تأتيان إلى هنا مبتسمتَيْنِ، وقلبُهما يحدّثهما بأنّه يتوارى خلفَ الأشجارِ، كلّما وافَتَا لامتياحِ الماء،

تتهامسُ الشقيقتان كلّما مرّتا من هنا، فقد اكتشفتا سرّ ذاك الذي يتوارى خلفَ الأشجارِ، كلّما جاءتا إلى هنا لامتياح الماء.

جرّتاهما تنحنيان بغتةً، والماءُ يتدفّقُ عندما تحضرانِ،

وقد اكتشفتا أنّ قلبًا يخفقُ خلفَ الأشجارِ، كلّما جاءتا لامتياح الماء.

ترنو الأختان إحداهما إلى الأُخرى، وتبتسمان عندما تقدمان إلى هنا، ويبدو أنّ أقدامَهما الصغيرة والسريعة تضحكُ.

ويستولي الخجلُ على ذاك المختبئ خلفَ الأشجارِ، كلّما جاءتا لامتياحِ الماءِ.

فاتحيني بسرِّكِ

لا تحتفظي لنفسكِ بسرِّ قلبِكِ، يا صديقتي. فاتحيني به، وحدي، سرًّا.
أنتِ، يا صاحبةَ البسمةِ الفائقةِ العذوبةِ، اهمسي لي بسرِّكِ، وسيسمعُه قلبي وحدَه، ولن تسمَعَه أُذناي.
الليلُ سحيقٌ، والصمتُ يلفُّ المنْزلَ، ووكنات العصافيرِ محفوفةٌ بالنعاس. ففاتحيني بسرِّ قلبِكِ، من خلالِ دموعِكِ المتردِّدةِ، وبسماتِكِ المضطربةِ، وخَفَركِ العذبِ، وغمِّكِ.

لم يعُدْ قلبي ملكي

هل تودّين تطويق عنقي بعقد زهوركِ النديّةِ، يا جميلتي؟
حسنٌ! ولكن اعلمي أنّ الإكليل الوحيد الذي ضفرتُه، مُعَدٌّ للواتي يتجلَّينَ في أشعّة النور، ويقطنَّ بلادًا لم تُكتشَف بعد، ويحيينَ في أناشيد الشعراء.
لقد فات أوانُ تطلبين قلبي لقاء قلبك.
فات زمانٌ كان فيه كلّ شذى حياتي، ولكأنّه محصورٌ في برعم زهرةٍ واحدةٍ.
فقد انتشر الآن بعيدًا، على جناح كلّ ريحٍ.
وهل من يملك سحرًا كفيلاً بالتقاطه واحتوائه؟
لم يعُدْ قلبي ملكي، فأهبه لمحبوبةٍ واحدةٍ، بل هو يخصّ كثيراتٍ.

عبءُ قلبي

– قلْ لنا، أيُّها الشابُّ، لِمَ عيناكَ تفيضانِ جنونًا!

– لستُ أدري أيّةَ خمرةِ خشخاشٍ شربتُ، فامتلأت عيناي جنونًا.

– يا لعارِكَ!

– ثمَّةَ حكماءُ ومجانينُ، حَذِرون ومُستهترون، عيونٌ تبتسمُ وعيــونٌ تبكــي، وعيناي مترعتان جنونًا.

– أيُّها الشابُّ، لِمَ تقبعُ ساكنًا في ظلِّ هذه الشجرةِ؟

– أنّ قدمَيَّ مُثْقَلتانِ بعبءِ قلبي، وأنا أرتاحُ في ظلِّ هذه الشجرةِ.

– يا لعارِكَ!

– البعضُ يسلكون الطريقَ، والبعض يتسكّعون، البعضُ أحــرارٌ والــبعضُ راسفون في القيود، وقدماي مُثْقَلتانِ بعبءِ قلبي.

المستعطي الطامع

– ما تقدِّمُهُ لي بطيبةِ خاطرٍ أَتقبَّلُهُ، ولا أطلبُ شيئًا سواه.

– أجل، أجل، إنّي عليمٌ بك، أيُّها المستعطي اللجوجُ، وأعلمُ أنّكَ طـــامعٌ في كلِّ ما أملك.

– هل لي أن أنالَ هذه الوردةَ التائهةَ، فأحمِلَها على قلبي؟

– وماذا لو كانت مدرّعةً بالأشواك؟

– سأحتمل وخزَها!

– أجل، أجل، إنّي عليمٌ بك، أيُّها المستعطي اللجوجُ، الطامعُ في كـــلِّ مـــا أملكُ!

– حسبي نظرةٌ عاشقةٌ من عينيْكَ، كي تسعدَ حياتي إلى الأبدِ.

– وماذا لو كانت نظرتي قاسيةً؟

– سأحتفظ بجرحِها في قلبي.

– أجل، أجل، إنّي عليمٌ بك، أيُّها المستعطي اللجوجُ، الطامعُ في كـــلِّ مـــا أملكُ!

أقوالك عويصةٌ

– آمني بالحبِّ، حتّى إن كان منبعَ ألمٍ، ولا تُغلقي قلبَكِ.
– لا، يا صديقي! أقوالُكَ غامضةٌ، ولا أقوى على فهمِها.

– لم يُخلَقِ القلبُ إلاّ لكي يبذلَ ذاتَه بدمعةٍ وأغنيّةٍ، يا حبيبتي.
– لا، يا صديقي، أقوالُكَ غامضةٌ، ولا أقوى على فهمِها.

– الفرحُ هشٌّ مثلَ قطرةِ الندى، التي تموتُ عندما تبتسمُ. ولكنّ الكمدَ قويٌّ وعنيدٌ، فدعي حبًّا موجعًا يستيقظُ في عينيْكِ.
– لا، يا صديقي، أقوالُكَ غامضةٌ، ولا أقوى على فهمِها.

– إنّ زهرةَ اللوتُس تؤثر الإزهار في الشمس، إزهارًا يعقبُه الموتُ، على أن تحيا بُرْعُمًا أبديًّا في شتاءٍ لا ينتهي.
– لا، يا صديقي، أقوالُكَ غامضةٌ، ولا أقوى على فهمِها.

ولكنّه حبٌّ

نظرتُكِ القلقةُ حزينةٌ، وتوّاقةٌ إلى اختراق خاطري.

هكذا يبتغي القمرُ اختراقَ البحر.

أنتِ محيطةٌ معرفةً بحياتي كلِّها، فأنا لم أُخفِ عنكِ شيئًا، ولذلك أنت تجهلين كلَّ شيءٍ عنّي.

لو كانت حياتي حجرًا كريمًا، لكنتُ حطّمتُه إلى مئة قطعةٍ، ونظمتُ من هذه الشظايا قلادةً أطوّقُ بها جيدَكِ.

لو كانت حياتي مجرَّد زهرةٍ رقيقةٍ صغيرةٍ، لاقتطفتُها من جذعها، وزيَّنتُ بها شعرَكِ.

ولكنّ حياتي هي قلبٌ، يا حبيبتي. وهل للقلب حدودٌ؟

إنّكِ تجهلين حدود هذه المملكة، مع أنّكِ مليكتُها.

لو لم يكن قلبي سوى مُتعةٍ، لرأيتِه يزهرُ ابتسامةً رقيقةً، ولاخترقته في لحظةٍ.

ولو لم يكن سوى ألَمٍ، لذاب دموعًا صافيةً، فاضحًا سرَّه من غير أن يتفوَّهَ بكلمةٍ.

ولكنّه حبٌّ، يا حبيبتي.

متعتُه وكمدُه بلا حدودٍ، وحياته ببؤسِها وغناها أبديّةٌ.

إنّه قريبٌ منكِ، مثل قربِ حياتِكِ منكِ. ولكنَّكِ لن تحيطي به، أبدًا، معرفةً كاملةً.

أعرف خِدَعَكِ

مخافةَ أن أستسهل معرفتَكِ، تعبثينَ معي.
إنّكِ تُدهشينني بقهقهاتكِ الصاخبةِ، كي تخفي دموعكِ،
وأنا أعرف خِدَعَكِ.

لا تنطقين أبدًا بالكلمة التي ترغبين في التفوّه بها.
ومخافةَ أن أُقيِّمكِ، تلوذين بمئة أسلوب مراوغةٍ.
ومخافة أن أخلطَ بينك وبين الجماهير تنتحين زاويةً، وحيدةً.
وأنا عليمٌ بخِدَعكِ.

إنَّكِ تقتضين منّي أكثر ممّا تطلبين من سواي، ولذلك تعتصمين بالصمت.
وبلامبالاةٍ لعوبٍ تتحاشين عن قبول هداياي.
وأنا عليمٌ بخِدَعِكِ.
فأنتِ لا تأخذين أبدًا ما ترغبين في أخذه.

الوقت قصـيرٌ

لقد هجرتِني، وتابعتِ دربكِ.

ظَنَنْتُ أنّي سأبكيكِ، وأن أُرصِّعَ قلبي بصورتك المنسوجة بأُغنيةٍ من ذهـب خالصٍ.

ولكن وا حسرتاه! ولسوء الطالع، الوقت قصيرٌ.

والشباب يذوي، عامًا فعامًا، وأيّام الربيع تكرُّ خاطفةً.

وأوْهى حدَثٍ كفيلٌ بالقضاء على الزهور الهشّة. والحكيم يُنذرني بأنّ الحياة، إنْ هي إلاّ قطرةُ ندى حطَّت على وُرَيقة لوتُس...

فهل يسوغ أن أنسى كلّ ذلك، كرمى لتلك التي انصرفت عنّي؟

سيكون ذلك ضرب جنونٍ، فالوقت قصيرٌ.

تعاليْ، أيّتها الليالي الماطرة، بأقدامك المبلّلة، وابتسم يا خريفي الذهبيّ.

تعالَ يا نيسان الكسول، الذي ينثر قبلاته بعيدًا.

هلمّوا جميعكم.

ويا أحبّائي، تعلمون أنّنا فانون، فهل من الحكمة أن يحطّم المرء قلبه، من أجل تلك التي أخذت قلبها ومضت؟

كلاّ، فالوقت قصيرٌ.

قد يكون عذبًا أن ينْــزوي المرء وحيدًا، ويستسلم للأحلام، ويقول، شعرًا، إنّك حياتي كلّها.

وقد يكون بطوليًّا أن يحبّ المرءُ ألَمه، ويأبى عنه عزاءً.

ولكنّ محيًّا فتيًّا يترقّب عند بابي، ويرمقني بطرْفِه، ولا حيلة لي سوى كفكفة دموعي، وتغيير لحن نشيدي.

فالوقت قصيرٌ!

زهرةٌ موقوفةٌ على الروح

أمسكُ بيديها وأضمُّها إلى قلبي،
أحاولُ ملءَ ذراعيَّ من جمالِها، وجنيَ بسمتها الرقيقة بقبلاتي، وارتشاف نظرِها الداجي، بِنَهمٍ.
وا أسفاه! أين منّي كلّ ذلك؟ ومن يقوى على اغتصابِ لازورد السماء؟
أودّ احتضان الجمال، فيفلتُ منّي، ويبقى، وحدَه، الجسدُ بينَ يديَّ، فأستأنف دربي، وقد نال منّي الإحباطُ والنصَبُ.
وأنّى للجسد ملامسةُ زهرةٍ ملامستُها موقوفةٌ على الروح؟

تواصلٌ كاملٌ

حبيبتي، ليلَ نهار يتحرّقُ قلبي إلى وصالِكِ، وصالَ الموت الملتهم،
انقضّي عليّ انقضاضَ العاصفة، وانتزعي منّي كلَّ ما أملكُ، هدّمي نومي، واخطفي أحلامي بل اسلبيني حياتي؛
وبفضل هذا الدمارِ، بتجريدِ نفسي هذا التجريد المطلق، فلنصبحْ كائنًا موحَّدًا من جمالٍ.
أوّاه! باطلٌ هو رجائي، فلا رجاءَ بتواصلٍ كاملٍ، إلاّ فيكَ، يا إلهي.

لـــمَ؟...

لِمَ انطفأَ المصباحُ؟

لقد أحطتُه بمعطفي، لأقيَه من الريحِ، لذلك انطفأَ المصباحُ.

لِمَ ذَوت الزهرةُ؟

ضمَمتُها ضمًّا شديدًا إلى قلبي، خشيةً وحبًّا، ولذلك ذبلت الزهرة.

لِمَ نضبت الساقيةُ؟

لقد أقمتُ فيها سدًّا، كي أُفيدَ منها وحدي. لذلك نضبت الساقيةُ.

لِمَ انقطعَ وترُ القيثار؟

لقد حاولتُ أن أعزفَ عليه نَغَمًا أعلى من مداه. لذلك انقطعَ وتر القيثارِ.

تمثـــالٌ

في حَوْمة إعصار الحياة وضجيجها، أيّها الجمال المنحوتُ في الصخر، تمكـــث صامتًا، ساكنًا، وحيدًا، بعيدًا.

عند قدَمَيْك يتمتم الحبّ: "تكلّم، تكلّم، يا معبودي، تكلّم، يا حبيبي!"

ولكنّ الكلمات تبقى جامدةً في الصخر، أيّها الجمال، فاقد الإحساس.

إلى أيـن...؟

إلى أين تسعَيْن بسلّتك، وقد أُغلق السوق، وارتدّ جميع المشترين إلى بيوهم، وطلع القمر على أشجار القرية؟

إنّ صدى الأصوات التي تنادي المركب يجتاز المياه القاتمة حتّى البحيرةِ البعيدةِ، حيث يرقد البطّ البرّيّ.

إلى أين تسعَيْن بسلّتكِ، وقد أُغلق السوق؟

لقد أطبقت أصابع النعاس عيون الأرض، وخرست وكنات الغربان، وصمت حفيف أوراق الخيزران.

الفلاّحون عادوا من حقولهم، وبسطوا حصائرهم في فناء مزارعهم.

وأنتِ إلى أين تسعَيْن بسلّتكِ، وقد أُغلق السوقُ؟.

الزهـرة العميـاء

ذاتَ صباحٍ، جاءَت إلى الحديقةِ، فتاةٌ عمياءُ،
وقدّمَت لي قلادةَ زُهورٍ على ورقةِ لوتُس،
فطوَّقتُ بها عنقي، واغرورقتْ عينايَ بالدموعِ.
قبَّلتُ الفتاةَ، وقلتُ لها: "أنتِ زهرةٌ، والزهورُ عمياءُ،
ولن تدركي كم جميلةٌ هي هديَّتُكَ".

وجعُها مستمرٌّ

أيُّها العالَمُ، لقد اقتطفتُ وردتَكَ،
وضمَمْتُها إلى قلبي، فوخزَتني شوكتُها.
وفي عتمةِ الغروبِ ذبلت الوردةُ، ولكنّ وجعَها باق.
أيُّها العالَمُ ستعود إليكَ ورودٌ كثيرةٌ، فوّاحةٌ، مزهوًّةٌ، ولكنّ ساعةَ اقتطافي ورودًا قد ولّت، والليلُ مدلهمٌّ.
وأنا فقدتُ وردتي، ولكنّ وجَعَها مستمرٌّ.

ساعة الفراق

هدّئ من روعكَ، يا قلبي، ولْتكُنْ ساعةُ الفراقِ حلوةً،
ولا تَكنْ موتًا، بل اكتمالاً.
فلنحيَ بذكريات حبِّنا، وليتحوَّل ألمُنا أناشيدَ،
ولْيَنتهِ تحليقُنا إلى السماءِ، بانكفاءِ الجناحَيْن على العشِّ،
ولتتّسمْ ضَمَّةُ يدَيْنا الأخيرةُ برقَّةِ زهرةِ الليلِ.
وتمهَّلي، يا نهايةَ حبِّنا، كي تبلّغينا، بصمتٍ، أقوالَكِ الأخيرةَ.
إنّني أنحني، رافعًا مصباحي، كي أُضيءَ دربَكِ.

المرأة التُحْـفة

لستِ، أيَّتها المرأةُ، تحفةَ الله فحسب، بل أنت تحفةُ البشـر، أيضًـا: فهـم يزيّنونك بجمال قلوبهم.

الشعراء ينسجون حُجُبَك بخيوط خيالهم الذهبيّة، والرسّامون يخلّـدون شـكل جسدكِ.

يجودُ البحرُ بلآلئه، والمناجم بذهبها، والحدائق بأزاهيرها، كي يضفوا عليـك جمالاً، ويجعلوكِ أغلى ثمنًا.

رغبةُ الرجل توشّح بالمجد شبابَك،

وأنت نصفُ امرأةٍ، ونصف حلمٍ.

أيُّهـا الغنيُّ

في قصْرِ العالَمِ، تمتزجُ عشبةٌ مفرطةُ الصغر، بأشعَّةِ الشمسِ، وبنجوم الليـلِ، على بساطِ الخضرة الواحد.

وكذلك، في قلبِ الكونِ، تحتلُّ أناشيدي مثلَ ما تحتلُّه موسيقى الغيومِ والغاباتِ.

ولكنّ غِناكَ، أيُّها الإنسانُ الثريُّ، لا يُشارِكُ لا في سكينةِ جـلالِ الشـمس الذهبيّةِ الفرِحةِ، ولا في رقّةِ أشعَّةِ القمرِ الحالم.

وبرَكَةُ السماءِ التي تشمل الأشياءَ كلَّها، لا تفيءُ عليـكَ. وعنـدما يـوافي الموتُ، تذبلُ ثروتُكَ، وتتناثرُ هباءً.

حجر الفلاسفة

كان مجنونٌ متشرِّدٌ، مُشَعَّثُ الشعرِ، دائبًا على البحث عن حجرِ الفلاسفة، وقد لوَّحَت الشمسُ وجهَه، وغشاه الغبارُ، واعتراه الهُزالُ، فدقَّ جسمُه كالخيال، وسُكَّت شفتاه، مثل قلبِه الموصَدِ، واتّقدت عيناه، اتّقادَ مصباحٍ يراعةٍ تبحثُ عن قرينها.

أمامَه كان المحيطُ يصطخبُ، هادرًا، وأمواجُه الثرثارة تروي حكاياتِ الكنوزِ الدفينةِ في أحشائِه، ساخرةً من الجاهل العاجزِ عن إدراكِها.

أمّا هو فما انفكَّ ماضيًا، بلا أملٍ ولا هوادةٍ، في بحْثٍ باتَ هو حياتَه، نظيرَ محيطٍ لا يني ينهد صوبَ السماء، جاهدًا في بلوغِ ما لا سبيلَ إلى بلوغِه، ومثلَ النجوم التي لا تني تدورُ، ساعيةً إلى هدفٍ لا يُطال.

وعلى الشاطئِ المقفرِ، كان المجنونُ، ذو الشعر الأجعدِ المغبرِّ، يهيمُ باحثًا عن حجرِ الفلاسفةِ.

وذاتَ يومٍ، دنا منه أحدُ صبيةِ القريةِ، سائلاً: "من أين لك هذه السلسلة الذهبيّة التي بها تتمنطقُ؟". وارتعشَ المجنونُ، فحزامُه الذي كان، قبلُ، من حديدٍ، قد تحوَّل ذهبًا! لم يكن يحلُمُ، ولكن كيفَ تمَّ التحوُّل؟

لطمَ الرجل جبينَه، لطمًا عنيفًا وحشيًّا: أينَ، أينَ إذن؟ كان قد حقّق حلمَه، من حيثُ لم يدرِ. وكان قد ألِفَ اختبارَ ما يلتقطُ من أحجارٍ، فيقرع بها سلسلتَه الحديديّةَ، ثمَّ يقذف بها آليًّا، غير ملتفتٍ إلى أيّ تبدُّلٍ قد يكون طرأ.

وعلى هذا النحو، كان المجنونُ المسكينُ، قد عثرَ على حجرِ الفلاسفةِ، وأضاعَه.

كانت الشمسُ تميلُ إلى المغيبِ، وقد تلوّنت سماءُ الغروب بالذهبِ.

واستأنف المجنونُ البحثَ عن الكنْزِ المفقودِ، متهالكًا، محطَّمَ الجسدِ والروح، مثل شجرةٍ اقتُلِعتْ من جذورِها.

ما زال لـديّ الكثير

لم ينقضِ النهارُ بعدُ. ولم ينتهِ المهرجانُ عندَ ضفَّةِ الساقيةِ. وساورتني خشيةٌ من أن أكونَ قد هدرتُ وقتي، وخسرتُ حتّى الفلسَ الأخيرَ. ولكن، لا يا أخي، فما زال لديَّ بعضُ مالٍ، ولم يسلبْني مكرُ القدرِ كلَّ شيءٍ.

انتهت معاملاتُ البيعِ والشراءِ، وسُوِّيَت الحساباتُ، وحان أوانُ إيابي إلى البيتِ.

ماذا، يا حارسَ الحدودِ، أتطالبُني برسمِ العبور؟

لا تخشَ شيئًا، فما زال لديَّ بعضُ مالٍ، ولم يسلبْني مكرُ القدرِ كلَّ شيءٍ.

الرياحُ الغافيةُ تهدِّدُنا بالعاصفةِ، وغيومُ الغربِ لا تنبئُ خيرًا، والمياهُ الصامتةُ تنتظرُ هبوبَ الريحِ.

وأنا أحثُّ الخطى لاجتيازِ الساقيةِ، قبل أن يدهمني الليلُ.

وأنتَ، يا ربّان العبَّارةِ، تقتضي أجرَكَ،

أجل، يا أخي ما زال لديَّ ما أدفعُه، فمكرُ القدَرِ لم يسلبْني كلَّ شيءٍ.

المتسوِّلُ قابعٌ تحتَ الشجرةِ، عند حافّةِ الطريقِ، ويرمقُني بأمَلٍ خجولٍ، وربّما يظنُّ أنّ أرباحَ النهارِ قد أغنتني.

أجل، يا أخي، ما زال لديّ ما أنفحُكَ إيّاه، فمكرُ القدَرِ لم يسلبْني كلَّ شيءٍ.

لقد احلَوْلكَ الليلُ، وأوحشَ الطريقُ، والتمعت اليراعاتُ بين أوراقِ الأشجارِ، ومَن أنتم يا مَن يقتفونَ خطاي خلسةً، وبصمتٍ؟

إنّي أدري أنّكم راغبون في سلبي مكتسباتي،

وأنا لن أخيِّبَ رجاءَكم، فمكرُ القدَرِ لم يسلبْني كلَّ شيءٍ.

انتهيتُ إلى منْــزلي، عندَ منتصفِ الليلِ، صفرَ اليدَيْنِ،

وكنتِ تنتظرينني، ساهرةً، صامتةً، عند الباب، وقد امتلأتْ بالقلق عينــاكِ،

ومثلَ عصفورٍ خجولٍ طرتِ إلى قلبي يا عاشقتي.

أجل، أجل، يا الله! ما زال لديّ الكثيرُ.

تحــرُّرٌ

طيلةَ أيَّام كدٍّ، بَنَيْتُ معبدًا، لا أبوابَ له ولا نوافذَ، وجدرانُه صفيقةٌ، مشادةٌ بأحجارٍ صمَّاءَ.

أغفلتُ كلَّ ما سواه، وتخلَّيتُ عن العالمِ كلِّه. ولبثتُ أتأمَّلُ صــورةً نصــبتُها فوق الهيكلِ. دخانُ البخورِ دائم التضوّع كان يغلِّفُ قلبي بسُــحُبه الكثيفــة. وأسهاري كانت مشغولةً بحفري على الجدرانِ متاهاتٍ من الأشكال الخياليّــة: خيولٍ مجنّحةٍ، وأزهارٍ بوجوهٍ بشريّةٍ، ونساءٍ بأشكال أفاعٍ.

لم أتركْ ثغرةً يتسرَّبُ منها تغريدُ العصافير، وهمساتُ أوراق الأشجارِ، ودويّ نشاط القرية.

وحدَه صدى تعزيماتي كان يترجَّعُ في قمّةِ القبّةِ المظلمةِ.

وأضحى فكري حادًّا مثل شفرة لهبٍ حادّةٍ وصامتةٍ، وفي الانخطاف ذابــت مشاعري.

ولم أشعر بمرور الوقت حتّى ضربَت الصاعقةُ المعبدَ، وأيقظتْ وجــعَ قلــبي. وعلى ضوءِ النهارِ، شحبَ المصباحُ، ولكأنّه انتابَه الخجلُ. وعلى الجدرانِ باتــت المنحوتاتُ، تلك الأحلام الجامدةُ، التي أُفرغت من معناها، تتفادى نظراتي.

ورمقتُ الصورةَ المنصوبةَ على الهيكلِ، فإذ بها تبتسمُ منتعشةً باتّصالها المحيــي بالله.

والليلُ الذي كنتُ قد سجنتُه فَرَدَ جناحَيه ولاذ بالفرار.

الأرض الأُمّ

أيَّتُها الأرض، يا أُمًّا صبورًا كئيبةً، إنّ لغناكِ حدودًا.
إنَّكِ تجهدين في إطعامِ أبنائكِ، ولكنّ الطعامَ زهيدٌ،
والأفراحُ التي تقدِّمينها لنا ليست أبدًا كاملةً.
والدمى التي تصنعينَها من أجل أبنائكِ، هشّةٌ، سريعةُ العطبِ،
وستظلّين عاجزةً عن إرضاءِ آمالِنا التي لا ترتوي
فهل أُنكِرُكِ، من أجلِ ذلكَ؟

إنّ بسمتَكِ التي يُلقي عليها الألمُ ظلاًّ قاتمًا، عذبةٌ في نظري،
وحبُّكِ الذي لا عهدَ له باكتمال، غالٍ على قلبي.
أحشاؤكِ غذّتنا بالحياة، ولم تغذِّنا بالخلودِ، ولذلكَ أنتِ تسهرين علينا.
منذ قرونٍ تؤلّفين معزوفاتِ ألوانٍ وألحانٍ، ومع ذلك ليس فردوسُكِ سوى مشروعٍ بائسٍ.
وإبداعاتُكِ الجماليّةُ محفوفةٌ بغمام الدموع.
سأسكبُ أناشيدي في قلبِكِ الصامتِ، وسأسكبُ حبّي في حبِّكِ، وسأعبدُك بعملي.
لقد شهدتُ رقّةَ محيَّاكِ، وأنا كلِفٌ بترابِكِ البائسِ،
أيّتُها الأرضُ الأمّ.

الناسـكُ

عزمَ رجلٌ على التنسُّكِ، فهتفَ، ذاتَ ليلةٍ رائعةٍ: "ها قد حانتْ ساعتي كي أهجرَ منْــزلي، وأنشُدَ اللهَ.

آه! مَن ذا الذي أمسكني هنا، طويلاً، رهينَ الأوهامِ الخلاّبةِ؟".

وهمسَ اللهُ: "أنا"؟؛ ولكنّ الرجلَ لم يُدركْ.

وقال الرجلُ: "أينَ أنتَ، يا مَن عبثَ بي طويلاً، طويلاً؟".

إلى جانبِه، كانت زوجتُه مضطجِعةً بسكينةٍ، على السرير، تحتضنُ طفلاً نائمًا.

وردَّ الصوتُ: "إنّه اللهُ، إنّه هنا أمامَكَ"، ولكنّ الرجلَ لم يسمع.

وبكى الطفلُ، وهو يحلم، وازدادَ بصدرِ أمِّه التصاقًا،

وأمرَ اللهُ الرجلَ: "توقَّف، أيّها الأحمقُ، لا تبارحْ منْــزلَكَ"، ولكنّــه، مــرّةً أُخرى، لم يسمع.

وتنهّدَ اللهُ، بأسًى، قائلاً: "لِمَ يتوهَّمُ عبدي أنّه يَنشُدني، وهو ينأى عنّي؟".

طفل الإنسان وصغير الحيوان

العامل وزوجته، القادمان من الغرب، يحفران الأرض، كي يصطنعا من ترابها لَبِنًا يبنيان به موقدًا.

وابنتهما الصغيرة تقصد ضفّة الساقية، وتدأب، بلا هوادةٍ، على غسل الآنية والقدور، فيما يستلقي على الضفّة أخوها الأصغر، بسمرته القاتمة، عاريًا، مكسوًّا بالوحل، منتظرًا، صابرًا، أن تناديه.

تعود الفتاة إلى المنْزل، وعلى رأسها الجرّة الملأى ماءً، وبيدها اليُسرى إناءٌ نحاسيٌّ يلتمع، فيما يدها اليمنى ممسكةٌ بأخيها الصغير.

وذات يوم، شهدتُ الصبيّ عاريًا مستلقيًا على العشب، فيما كانت أُخته غاطسةً في الماء، تفرك بواسطة حفنة رملٍ إبريقًا لا تني تديرُه بين يديها.

وعلى مقربةٍ منهما كان حملٌ ناعم الصوف يرعى على امتداد الضفّة، وبغتةً دنا من الطفل، وثغا ثغاءً جهيرًا، ارتعش له الطفل، وأخذ يبكي.

فأهملت الفتاة غسيلها، وخفّت مسرعةً إليه، وطوّقت أخاها بذراعٍ، والحمل بالذراع الأخرى، مداعبةً كليهما بالسواء، جامعةً برباط عطفٍ واحدٍ طفل الإنسان، وصغير الحيوان.

الإنسان والحيوان

لطالما تساءلتُ عن مدى تعارف الإنسان والحيوان الأبكم، وخلال أيّ فردوسٍ بدائيٍّ، في صباح الخليقة القصيّ، امتدّ الدرب الذي التقى فيه قلباهما.

ومع أنّ أواصر قرباهما طالما أُغفلت، لم تمّحِ آثار وحدتهما الدائمة.

ففي تناغمٍ خالٍ من الكلام، تستيقظ، بغتةً، ذكرى مبهمةٌ، فيرمق الحيوان وجه الإنسان بثقةٍ رقيقةٍ، ويُلقي الإنسان عينَيْه على الحيوان بعطفٍ مشوبٍ بشيءٍ من العبث.

ويبدو أنّ الصديقين يلتقيان مقنَّعَيْن، ويتعارفان معرفةً مُبهمةً من خلال تمويه تنكّرهما.

الجسدُ والروح

أمسكُ بيديها وأشدُّها إلى قلبي

أحاولُ ملءَ ذراعيَّ من جمالِها، وجنى بسمتها الرقيقة بقبلاتي، وارتشاف نظرِها القاتم، بِنَهمٍ.

وا أسفاه! أين منّي كلّ ذلك؟ ومن يقوى على اغتصابِ لازورد السماء؟

أودّ احتضان الجمال، فيفلتُ منّي، ويبقى، وحدَه الجسدُ بينَ يديَّ، فأستأنف دربي، وقد نال منّي الإحباطُ والنصَبُ.

وأنّى للجسد النيلُ من زهرةٍ موقوفةٍ على الروح؟

المرأة الفاضلة

بنظرةٍ من عينيكِ، أيّتها المرأةُ الحسناءُ، تقوَيْنَ على استلابِ كنْزِ الأناشيدِ المنبعثةِ من قيثارةِ الشعراء،

ولكنّكِ لا تُعيرين تقريظَهم أُذُنًا، ولذلك أنا جئتُ أمتدحُكِ.

قادرةٌ أنتِ أن تجعلي أعتى رؤوسِ العالمِ، وأكثرَها شموخًا، تطأطئُ عند قدمَيْكِ صاغرةً،

ولكنّكِ تؤثرينَ، من عابديكِ، أولئكَ الذين تجاهلَهم المجدُ.

لذلك أنا أعبدُكِ

كمالُ روْعةِ ذراعَيْكِ قد يُكسِبُ البهاءَ الملكيَّ سنًى، إنْ أنتِ لمستِه، ولكنّكِ تحرصين على استخدامِ ذراعَيْكِ في نفض الغبارِ عن منْزلكِ الوضيعِ، ونشرِ النظافةِ في زواياه،

وهذا ما يُفعمني لك إجلالاً.

صلواتُ شاعرٍ

تمهيد

عُرف "رابندرات طاغور" بنـزعته الإنسانيّة الشاملة، وبانتمائه إلى البشريّة جمعاء. وقد تأثّر بالحكمة البوذيّة العريقة، وبتعاليم يسوع السامية، وانتدب ذاته لمهمّة تأكيد تفوّق الروح، ووحدة البشر ومساواقم، وإيقاظ وعيهم على كونهم ملك الله، كلّيّةً، ما يوجب عليهم عبادته وخدمته من خلال أبنائه، إخوتهم في الإنسانيّة.

وهو، مع معاناته سلسلةً من الفواجع المؤلمة، أفلح في الانبعاث من رمادها، وظلّ واثقًا بالحياة، مؤكّدًا أنّ فرح الوجود هو أحد مقوّمات الحياة الأساسيّة.

وقد جسّد طاغور هذه القناعات في عدّة دواوين شعريّة، ولا سيّما في الديوان الذي أطلق عليه عنوان "جيتنانجالي" (Gitanjali) ومعناها: "التقدمة الملحميّة"؛

وكان قد نظم هذه الدواوين باللغة البنغاليّة، ولّما طُلِب منه وضعها بمتناول العالم الغربيّ، قام بترجمتها، بنفسه، إلى الإنكليزيّة. وقد وضع الشاعر البريطانيّ الكبير "ييتس" (G. B. Yeats) مقدّمةً لهذه الترجمة التي لاقت من التقدير ما استحقّ لها جائزة "نوبل" للآداب، عام ١٩١٣.من هذه المجموعات الشعريّة، اخترنا هذه الباقة من الصلوات، وهي مناجاةٌ لله، طواها الشاعر على خلجات قلبه، وتوسّلاته، وتمنّياته للبشريّة، وهي، في الآن عينه إشادةٌ ببساطة الحياة اليوميّة، ودعوةٌ إلى تقديسها، والسموّ بها.

قد شبّه البعض هذه الصلوات بالمزامير، غير أنّها، على نقيض المزامير، منـزّهةٌ من العنصريّة، والعدوانيّة، ونزعة الانتقام الشرسة. وشبّهها آخرون بـ "اعترافات" القدّيس أوغسطينُس، ولكن، مع أنّها دونها عمقًا لاهوتيًّا وصوفيًّا، هي أكثر منها انفتاحًا على جمالات الوجود، ومباهجه البريئة.

ولا ريب أنّها، في بساطتها وعذوبتها، ترقى بالنفوس إلى منبع كلّ نورٍ وبهاءٍ، وتهزّ الأذهان دهشةً وتأمّلاً، وتشيع في القلوب دفئًا إنسانيًّا منعشًا.

تقبّلني، يا الله

تقبَّلْني، يا الله، يا عزيزًا على قلبي،
رحِّبْ بي، وتقبّلْني،
كما أنا، في هذه اللحظة،
وأنسِني الأيّامَ التي تيتّمتُ فيها عنكَ.
واحملني، يا إلهي، في هذه اللحظة،
بين ذراعَيْكَ، لاطيًا فيكَ،
في مساحة نورِك الحميمةِ والرحبةِ.
لقد هِمْتُ في العالم، شريدًا، متعقّبًا صوتًا فَتَنَني نشيدُه،
ولكنّه أفضى بي إلى التيهِ، ولم يبلغْ بي، يومًا، أيَّ مرفإٍ.

أرجوك أن تتيحَ لي الإقامة في سلامكَ،
ودعني، اليوم، أرتشف أقوالَكَ،
وأُغذّي نفسي بالصمت.
ولا تُعرِض عنّي،
ولا تُشحِ أنظاركَ عن الأسرارِ الكامنةِ في طوايا قلبي،
بل طهّرْها بلهيبِكَ، وأضرِمْها، عسى أن تستضيءَ بنورِكَ.

سؤالٌ مطروحٌ على الله

منذُ الأزَل، يومًا فيومًا، وعامًا فعامًا، أوفدتَ رسلَكَ إلى العالمِ الذي لا يرحَم، فنشروا أقوالَك هذه:
"إصفحوا عن كلّ شيءٍ؛ أحبّوا بعضُكم بعضًا،
"طهّروا قلوبَكم من لوْثاتِ الحقدِ القاتلة".
هذه الأقوالُ الموقّرةُ إلى الأبدِ، لا يمكنُ أن تُنْسى.

غير أنّني، في يومٍ شيطانيٍّ،
طردتُها من باب العالمِ الخارجيِّ، ولم أدركْ سببَ خيانتي،
وانصرفتُ عنها بلا سببٍ.

ألم أشهد الخبثَ الدفينَ الذي يصعقُ المُعْدَم بحجّة الحقّ، وبدافع الرِّياءِ؟
ألم أسمع صوتَ العدلِ الوحيدَ، مذرّفًا دموعًا صامتةً على الإهانات التي يرتكبُها ذوو السُّلطانِ؟
ألم أرَ الاحتضارَ المريعَ الذي هدرتْ فيه الشبيبةُ حياتَها، وكيف ارتطم جنونُها بجدرانِ قلوبٍ من حجرٍ، مُصْفِرةٍ من الإحساس؟

إنّ صوتي يختنقُ، اليومَ، وأناشيدي تخرسُ،
فهنا يرقدُ عالمُ أحلامي، مُقيَّدًا، مدمّرًا، وسطَ دوّامة الأراجيفِ السوداءِ.

وإنّي ألتفتُ إليكَ،
والدموعُ تزدحمُ في مآقيّ، متوسِّلاً، طارحًا هذا السؤالَ البغيضَ:
"هل غفرتَ لهم، بل هل أحببتَهم، يومًا،
أولئك الذين دنّسوا هواءَك، وأخمدوا نورَكَ؟".

تحيّـاتٌ

تحيّةٌ لكَ، يا رفيقَ الدربِ،
إنّ المسافر، في طريقه، يحيّيك؛
تحيّةً لك، يا إلهَ قلبي المحطَّمِ،
يا إلهَ المغادرات، والدروبِ المهجورةِ،
إلهَ الخسائر والنقْصان،
إلهَ الفراغِ، والصمتِ الرماديّ المُنبَعثِ من النهارِ المائل إلى المغيب.
إنّ صاحب البيت المتداعي يحيّيك.
تحيّةً لكَ، يا ضياءَ الصبح الوليد،
ويا شمسَ النهار الذي لا ينتهي.
يا لحظةً أبديّةً، إنّ الإنسان الذي لا يموتُ له رجاءٌ يحيّيكَ.
تحيّةً لكَ، يا دليلي،
منّي، أنا عابر السبيل.
إنّ السائرَ على دربٍ لا نهايةَ له يُحيّيكَ.

المـوت

الموتُ، خادمُك، عند بابي. لقد اجتاز البحر المجهول، وأتاني بدعوتك.
الليلُ حالكُ الظلام، وقلبي مُفعمٌ رعدةً.
ومع ذلك، سأنهض، وآخذ مصباحًا، وسأفتح بابي،
كي أرحّب به،
فرسولك هو الذي يقرع بابي، اليومَ.
سأُكرِّمُه، ضامًّا يديَّ، والدموعُ تغمرُ وجهي؛
سأكرِّمُه، وسأطرحُ، عند قدَميْه، الكنْــز الثاويَ في قلبي.
وسيؤوب بعد تبليغ رسالته، مخلّفًا على صباحي طيفه الكالح. وفي منْـــزلي المهجور لن يبقى شيءٌ سوى ذاتي أُقدِّمها لك تقدمةً سامية.

يا صـديقي

جئتُكَ كي تَلْمسَني، قبلَ مباشرةِ نهاري،
وكي تُلهبَني بنظرتِكَ، بضعَ لحظاتٍ.
إسمح لي أن أستصْحبَ إلى عملي يقينَ وجودِكَ الدائمِ إلى جانبي،
يا صديقي، واملأْ بموسيقاكَ روحي، كي يُرافِقَني نَغَمُها في صحراء النشاز.
ولتُدْفِئْ أشعّةُ حُبِّكَ ناصِيةَ جبَل أفكاري، وتستقرَّ في وادي حياتي، حيثُ ينضجُ الحصادُ.

أتوسّـلُ إليـكَ

أتوسَّلُ إليكَ (يا إلهي) أن تَهَبَني جرأةَ الحبِّ القصوى.
هَبْني جرأةَ القولِ، والعملِ، والمعاناةِ، وفقَ مشيئتِك.
هبني جرأةَ التخلّي عن كلِّ شيءٍ، أو أن أعانيَ التخلّي.
وقوّني بضلالاتي، وبالأخطار المُحدقةِ بي، وكرِّمني بالألم.
وساعدْني على تسنّم القمّة، صوبَ حالة الوجود،
حيثُ كلَّ يومٍ يقدِّم لمشيئتك ضحيّةً.
هبني ثقةً ترى في الموتِ حياةً، وفي الهزيمةِ انتصارًا،
وتستشفّ القوّةَ الكامنة في الجمال الزائل،
والكَرامة المتجلّية في المعاناةِ،
والتي تتقبّل الضربة، ولا تساوِرُها رغبةٌ في الردِّ عليها بمثْلها.

أَمسك بيـدي

أنقذْني من أشباحي،
أنقذْني من الغرقِ، ومن فوضى أيّامي،
يا إلهي.
فالليلُ حالكُ العتمةِ،
وحاجُّكَ مُبْتلًى بعمًى صفيقٍ.
فأرجوكَ أن تمسكَ بيدي.
أنقذْني من القنوطِ،
وأنعشْ، بنارِكَ، شعلةَ عنائي النائسةَ.
أيقظْ قوايَ الخائرةَ، التي خدّرَها النعاسُ،
ولا تدعْني أدأبُ على اجترارِ خسائري.
إِجعل الطريقَ يُنشِدْ،
والدربَ يشدو،
لعلَّ كلَّ خطوةٍ أخطوها تحدِّثُني عن الغدِ،
وعن البيتِ الذي ينتظرُني هناك، في غايةِ المشوار.
فالليلُ حالكُ العتمةِ،
وحاجُّكَ مبتلًى بعمًى صفيقٍ،
فأتوسّلُ إليكَ أن تُمْسكَ بيدي.

أشـدّهم فقـرًا

هنا هو موطئ قدمَيْكَ
حيث يُقيم الأشدُّ فقرًا، وضِعةً، وضياعًا.

عندما أُحاول السجود أمامكَ،
لا أجدُ سبيلاً إلى التصاغُر بقدرِ ما أنت تتصاغرُ،
حتّى الوهادِ التي تضع فيها قدَميْكَ،
وحيث يقيمُ الأشدُّ إملاقًا، وضعةً، وتيهًا.

تعجزُ الكبرياءُ حتّى عن وطءِ الطريقِ الذي أنت تسلكُه،
في زيّ التواضعِ،
حيث يُقيمُ الأشدُّ فقرًا وضعةً، وضياعًا.
ولا يجدُ قلبي السبيلَ إليكَ،
في المكان الذي تقيمُ فيه مع الوحيد،
وحيث يعيش الأشدُّ فقرًا، وضعةً، وضياعًا.

حانتْ ساعةُ الجلوسِ بجانبِكَ

تعطَّفْ، يا الله، وأتِح لي هُنَيْهةَ راحةٍ وجلوسٍ بجانبِكَ،
فبوِسعِ العملِ الجاري أن ينتظرَ.
عندَما يغيبُ وَجهُكَ عن نظري، لا يعهدُ قلبي راحةً، ولا هدنةً؛
ويغدو عمَلي كدًّا مفروضًا، في صحراءَ من الجهدِ، لا نهايةَ له، ولا هدَفَ،
ولا وعدَ باكتمالٍ.

وها قد راودَني الصيفُ، اليومَ، من النافذة، بغمْزَةِ همساتِه وتنهّداتِه،
وها إنّ أسرابَ النحلِ دائبةٌ على مغازلةِ أزاهيرِ الحديقةِ وانتزاعِ مؤُونَتِها من رَحيقِها،
وها قد حان أوان الاستكانةِ، والإنشادِ، والجلوسِ بجانبِكَ، وجهًا لوجهٍ،
وتقديسِ حياتي، في هُدوءِ هذا الصمتِ الغامر.

حبّةُ القمـح الصُّغرى

كنتُ ماضيًا أستعْطي، من بابٍ إلى باب، في أحياء القريةِ،
عندما لاحتْ، من بعيدٍ، عربةٌ مذهَّبةٌ، مثلَ حلمٍ بهيٍّ.
فذُهِلتُ بحضورِ ملكِ الملوكِ،
وتوهّجتْ آمالي وأحلامي، ظانًّا أنّ أيّامَ بُؤسي قد ولّتْ،
متوَقّعًا هباتٍ عفويّةً، وثرواتٍ منثورةً في ترابِ الطريق.

وتوقّفت العرَبةُ أمامي، وحطّ نظرُكَ عليّ، وانحدَرْتَ باشًّا، وقد افترَّتْ شفتاكَ عن بسمةٍ. وخُيِّلَ إليَّ أنّ فرصة حياتي قد سنَحتْ أخيرًا، ولكنّكَ، على حينِ غرّةٍ، مددتَ يمناكَ، وقُلْتَ: "ماذا لديكَ تعطينيه؟"

ويا لتلك اللفتةِ الملكيّةِ المدهشةِ: أن تستعطيَ شحّاذًا!

اضطرَبتُ، وحِرتُ، قبل أن أوطّنَ عزمي، وأُخرِجَ، بتؤدةٍ، من جرابي، حبّةَ قمحٍ موغلةً في الصغَر، وأعطيكَ إيّاها.

وكم كانت دهشتي، في غاية النهارِ، عندما أفرغت جرابي، فوجدتُ، بين كنوزِه الهزيلة، حبّةَ ذهبٍ موغلةً في الصِّغر، فذرّفتُ دموعًا مريرةً، ندَمًا، لأنّي لم أجرؤْ على إعطائكَ كلَّ ما أملك.

نجمتي القطْبيّةُ

اتّخذتُ منكَ نَجمةَ قطْبي، فلن أُضيع طريقي أبدًا، أثناءَ رحلةِ حياتي.
حيثُما اتّجهَتْ خُطايَ، أنتَ حاضرٌ، ناثرًا عطاياكَ من حوْلي.
وفي كلِّ حينٍ، أرى وجْهَكَ نُصْبَ عيْنيَّ.
ولَئِنْ ضَلَلتُ، وفقدْتُ الرُّشدَ،
وإنْ راوَدَتْ قلبي تجربةُ الشُّذوذ،
فحسبُ نظرةٍ منكَ أن تجعَلَه يخجلُ من انحرافِه.

هبْني...

هذا هو دعائي:

هبْني (يا الله) زاد الحبّ، زادًا يؤهِّلني لأن أتكلّم، وأعمل، وأتألّم، وفقًا لمشيئتك، وللتخلّي عن كلِّ شيءٍ، لكيلا يتخلّى عنّي كلُّ شيءٍ.

قوّني في المخاطر، وكرّمني بالالم، وآزرني على ارتقاء دروب التضحية اليوميّة الوعرة.

وهذه هي صلاتي:

هبْني ثقةً عظمى بالمحبّة: ثقةً بالحياة تتحدّى الموت، وتحوّل الوَهَن قدرةً، والهزيمة انتصارًا.

واسمُ بي كي تتقبّل كرامتي الإهانة، وتأنف مقابلتها بمثلها.

حضـورُكَ

لسْتُ أدري، مُنذُ متى تقْتَربُ، أنتَ، منّي كي تَلْتَقِيني،
فشمسُكَ ونجومُكَ عاجزةٌ عن إخفائِكَ،
لطالَما سمِعْتُ، في الصباحِ وفي المساءِ، وَقْعَ خطواتِـكَ، ووافى رسـولُكَ إلى قلبي، سرًّا، كي يدعوَني.
ولستُ أدري أيَّ اضطرابٍ ينتابُ حياتي، اليومَ،
ولِمَ تجتاحُ قلبي رِعشةُ فرحٍ.
ولكأنّه قد حانَ أن أُنهيَ عمَلي، فقد تنسَّمتُ، في الجوِّ،
أريجَ حضوركَ المُشبَعَ خفرًا وعذوبةً.

حكمةٌ

تسنّمتُ القمّةَ، ولكنّني لم أجدْ ملاذًا على مُرْتَفَعات الشُّهرة الشاحبةِ والعاريةِ،
فاقتدْني، يا دليلي، قبلَ أن يغيبَ النورُ عن وادي السكونِ، حيـثُ ينضُـجُ حصادُ الحياةِ، حكمةً ذهبيّةً.

كنـــوزٌ

أعلمُ أنّه سيَحينُ يومٌ تُغمِضُ فيه عينايَ عن مشهدِ هذا المنْـــــزلِ الأرضـــيِّ، وتهجُرني الحياةُ، بصَمتٍ، مُسْدلةً الستارَ عن عينيَّ.

وفي العلاءِ، ستبقى النجومُ ساهرةً، مُواصلةً تألّقَها، في قِبّةِ السماءِ، وسيواصلُ الفجرُ انبلاجَه كلَّ صباحٍ، والساعاتُ تُواصلُ تدافُعَها تدافعَ أمـــواجِ البحـــرِ، جارفةً المسرّاتِ والشدائدَ، والهجماتِ وردودَها.

وما إن تراوِدُني هذه الخواطرُ، حتّى يتحطّمُ سدُّ اللحظاتِ، ويتراءى، علـــى ضوْءِ الموْتِ، عالُمكَ الخاصّ، وكنوزُه المنثورةُ،

فأتبيَّنُ كم فاخرةٌ هي أوْضعُ منازلِ عالِمكَ، وكم ثمينٌ هو أتعسُ وجودٍ فيـــه، وكمْ باطلةٌ هي خيراتُ هذه الدنيا التي اشتهَيْتُها واقتنَيْتُها.

فلتذهبْ كلُّها،

ولأَعْلَقْ، كَلَفًا، بعدَ الآن، فقطْ، بكلّ ما سَهَوتُ عنه هنا، بل بما ازدَرَيْتُه!

كلـمتي الأخيـرةُ

فلْتَكُنْ كَلِمتي الأخيرةُ هي هذه: إنّي أُومنُ بحُبِّكَ، يا اللهُ!

كَـرَى

فِي لَيْل التّعب، هَبْني أن أستسلمَ للوَسَن، بلا جهدٍ، مرتاحًا فيكَ، وواثقًا.
هبْني ألاّ أُجهدَ فكري المُضنّى، في إعداد طقوسٍ سخيفةٍ لعبادتِك.
فأنت من يُسدِلُ غطاءَ الليلِ على عيونِ النهارِ الكليلةِ،
كي يُعيدَ له عند استيقاظه صفاءَ رؤْيَتِه، ونضارةَ هناءٍ قشيبٍ.

تحيّــةٌ

أُحيّيكَ، يا إلهي، ولْتُسْفَحْ كلُّ مشاعري من خلالِ هذه التحيّةِ حتّى تلْمَــسَ قدَمَيْكَ!

مِثلَما تعنو سحابةٌ مُثقَلَةٌ بالمطر، تحْتَ وِقْرِ العاصفةِ القادمةِ، فلْيَنْحَنِ روحــي، عندَ بابِكَ، كي يُحيّيكَ!

ولْتتجمّعْ أناشيدي، وتَتّحدْ في ساقيةٍ واحدةٍ، تَتَدفّقُ صَــوْبَ بحــرِ صــمْتٍ يُحيّيكَ، يا إلهي!

وكما ترحَلُ أسرابُ الطيورِ المهاجِرَةِ، ليلَ نهارَ، صَوْبَ موْطِنها الجَبَليِّ، فَلْتَكُنْ حياتي كُلُّها رِحلةً واحدةً، قاصدةً مسكنَها الأبديَّ. ولْتَكنْ مسيرةً كُبْرى تحيّيك، يا إلهي!

اللهُ هنــا

دَعْ عنكَ إنشادَكَ، وترانيمَكَ الرّتيبةَ، وكرّ حبّات سُبْحَتِكَ! فمنْ ذا الــذي تزعَمُ تكريمَه، في هذه الزاويةِ المنعزِلةِ من مَعبَدٍ موصد الأبواب؟

افتحْ عيْنَيْك، تَرَ أنّ اللهَ ليس هنا أمامَك.

بل إنّهُ هنا، حيثُ يحرُثُ الفلاّحُ أرضَه الصّلبةَ، وعند حافّة الطريقِ حيث يكدّ النحّاتُ في نَحْتِ الحَجَرِ. إلى جانبِ هؤلاءِ يُقيمُ الله، تحتَ شمسٍ من هجــيرٍ، أو تحتَ وابلٍ مِدرارٍ، وحيثُ يلوِّنُ ثوْبَه العرقُ والترابُ.

فاخلَعْ، أنتَ أيضًا، مِعْطَفَ الوَرَع، وانحدِرْ مثلَهُ إلى تراب الأرض.

الخلاصُ؟ أينَ تزعَمُ وجودَ الخلاصِ؟ فقد ارتبَطَ الله، طوْعًا، بقيودِ الخليقــةِ، وتعلّقَ بنا إلى الأبد.

فانْسَلخْ عن تأمّلاتِكَ، وأَعْرِضْ عن الزهور والبَخورِ. ولا بــأسَ إن تمزّقــت ثيابُكَ وتلوَّثَتْ. فبكدِّكَ وعرقِكَ ستلتقي الله، وتمْثُلُ أمامَه مثولاً كريمًا!

اسـمكَ

سأتلفّظُ باسمِكَ، وحيدًا، في ظلّ أفكاري الصامِتةِ،

سأتلفّظُ باسْمِكَ، بلا كلامٍ، ومن غير سببٍ، محاكيًا ولَدًا يُنادي أُمَّه، مئةَ مرّةٍ،

لأنّه يسعد بقول: "ماما"!

عابرُ السبيلِ الوحيدُ

بِخُطًى مكْتومةٍ تسيرُ، يا إلهي، صامتًا كالليلِ، في ظُلمةِ المطر المنْهَمِر، وبمنأًى عن أنظار الفضوليّين.

لقد أغمض الصباح عيْنَيْه، وأصمّ أُذُنَيْه عن نِداءاتِ ريحِ الشرقِ المُلحّة، وأسدل قناعًا صفيقًا على الجوّ المستيقظ.

وكتمت الغاباتُ الرحبةُ أناشيدَها، وأُوصِدت الأبوابُ في وجه عابر السبيل. وأنْتَ تسير وحيدًا، في الشارع المُقفِر.

فيا وحيدي، يا صديقي الغالي، إنّ أبوابَ مسْكِني مُشرَعةٌ لكَ، فلا تعبُرْ عُبورَ حُلمٍ.

صانع الكون

وحده اعتلان لانهائيَّتِكَ في صميم كلٍّ منّا هو أبديُّ الجِدّةِ والجمالِ. هو، وحدَه، يُفرِغُ معنًى على كيانِنا، عندما نتواصل مع نبضاتِكَ، وعندما تتردّد أصداءُ الكونِ كلِّه في نفسِنا. وحينئذٍ، فقط، نكونُ بشرًا أحرارًا.

فأنتَ، يا صانعَ الكوْنِ، املأني بفيضِ طاقتِك الذي لا يُقاوَم، مثلَ اندفاع ريح الشمالِ في الوديان، وقتَ الربيع. وليطهِّرْ ساحةَ الحياةِ البشريّةِ.

ولتنْبَثِقْ قدراتُنا الجديدةُ، ولتكتَمِلْ، وتزدَهرْ بلا نهايةٍ، مثلما تُطلعُ البذرةُ الورقةَ، والزهرةَ، والثمرةَ.

شكرٌ

السائرونَ على دُروبِ الكبرياءِ يسحقون، بنعالهم، كلَّ ما هو دونَهم، ويدمغون الأعشابَ الطريّةَ بآثار أقدامهم الملطّخة بالدماء.

فليبتهجوا، ويشكروكَ، يا الله، فهذا اليومُ هو يومُهم.

ولكنّني، أنا، أشكرُكَ، لأنّ نصيبي هو العيشُ بين ظهرانيْ المحرومين والمتألّمين، الرازحين تحت وقرِ المتسلّطين، الذين يوارون وجوهَهم، كي يُخفوا دموعَهم، في الظلِّ.

إنّ كلَّ خلجةٍ من شدّهم تنبضُ في أعماق سرِّ ليْلِكَ، وفي صميمه؛ وكلّ إهانةٍ تطالُهم قد أُودعت في طوايا صمتِك الجمِّ

وسيكون الغدُ لهم.

فيا شمسُ، أشرقي على القلوبِ النازفةِ، عساها تتفتّحُ، في الصباحِ، على ألف إزهارٍ، ولتتحوّلْ مشاعلُ ليالي العربدةِ الصَّلِفةِ، رمادًا!

قبضـةُ يـدِكَ

دَعْني أسألكَ، (يا إلهي)، لا إعفائي من المخاطرِ، بل مواجَهَتَها بلا خوفٍ.
دَعْني أسألكَ لا تلطيفَ محنتي، بل جرأةَ تخطّيها.
إِجعلْني أعتمد على صُمودي، لا على حُلَفاءَ، في معركة الحياةِ.
أعطني ألاّ ألتمس الخلاص برعدةٍ، بل أن يكون لي من الإيمان بالصبرِ ما يؤهّلني للظفر بحرّيّتي.
هَبْني ألاّ أَجحد جميلَك، بل أن أعترِفَ بفضلِ رأفتِكَ، في كلِّ نجاحٍ أُحرزُه،
وحينَ أكبو، فلْتُنْقِذني قبضةُ يدِكَ.

أنت لي كلُّ شيءٍ

أبْقِ لي، فقط (يا إلهي) الجزءَ الضئيلَ منّي الذي يُمكّنُني من أن أدعوكَ: "يا كلَّ شيءٍ لي".
وأبقِ لي، فقط، جزء الإرادة الذي أستطيعُ به تلَمُّسَ حضورِكَ من كُلِّ جانبٍ، واللُجوءَ إليكَ في كلِّ أمرٍ، وتقديمَ حُبّي لكَ في كلِّ لحظةٍ.
أبقِ لي، فقط، الجزءَ الضئيلَ منّي الذي أعجزُ به، دائمًا، عن إخفائِكَ.
أبقِ لي، فقط، جزءَ قَيْدي الصغير الذي يربِطُني بمشيئتِكَ، ويُبلّغُ مقاصدَكَ لحياتي، فهذا الجزءُ هو رباطُ حبِّكَ.

حبُّــكَ

فلْيستخدمْ حبُّكَ صوتي، وليستقرَّ في صمتي!
فلْيَخترقْ قلبي، ويتسلّلْ إلى كُلِّ حركاتي.
فلْيتألّقْ كالنجومِ في ظلامِ نوْمي، ولْيُشرِقْ في يقظتي.
فلْيَلْتَمِعْ كاللهَبِ في رغباتي، ولْينتَشِرْ في كلِّ تيّاراتِ حبِّي.
واجْعَلْ حياتي تُدوّي بحبِّكَ، مثلما تبعثُ القيثارةُ بنغماتِها الخاصّةِ.
وتردُّ لك الحبَّ، عندما ترتدُّ حياتي إليكَ!

حيــاةُ حياتي

يا حياةَ حياتي، سأجهدُ، دائمًا، كي أحفَظَ جَسَدي طاهرًا، لأنّـي مـوقنٌ أنّ لمستَكَ المُحْيِية قد حطّت على كلّ أعضائي.

سأجهدُ، دائمًا، كي أقِي أفكاري من كلِّ ضلالٍ، لأنّي موقنٌ أنّـكَ، أنـتَ، الحقيقةُ التي ولَدَتْ نورَ العقلِ في فكري.

سأجهدُ، دائمًا، كي أُحرِّرَ قلبي من كلِّ خُبثٍ، وكي أُبقيَ حبّي مزهرًا، لأنّني أعرفُ أنّكَ نَصبْتَ عرشَكَ في صميم محراب قلبي.

وستكون تقدمتي لكَ هي إعلانُكَ من خلالِ أفعالي، لأنّني أعرفُ أنّ قـدرتَكَ هي التي تُمِدُّني بطاقةِ العملِ.

ملءُ السلامِ

أَبْعدْ عنّي الحبَّ العارمَ الطاغي، فهو يُحاكي الخمرةَ الفوّارةَ التي تُفَجِّرُ وعاءَها الخشبيَّ، وتُسفَحُ، وتُهدَرُ، سريعًا.

وهَبْني حبًّا نديًّا وطاهرًا، مثل غيثِ مطرِكَ الذي يُؤْتي الأرضَ العَطْشى البَرَكةَ، ويملأُ جرارَ المنْـــزلِ.

هَبْني حبًّا يتسرّبُ إلى مركزِ الكيانِ، ومنه يتفجَّرُ نُسْغًا يســـري في أغصـــان شجرة الحياةِ، ويولّدُ الزهورَ والثّمارَ.

هَبْني الحبَّ الذي يُشيعُ في القلبِ، ملءَ السلامِ.

العقَبـاتُ المُقاومَةُ

عنيدةٌ هي قيودي، ويتألّمُ قلبي كلّما جهدتُ في تحطيمها.

الحرِّيّةُ هي كلُّ مُبْتَغايَ ولكنّني أخجلُ من ترجّيها.

إنّي موقنٌ، يا إلهي، أنّ لديكَ كنْـــزًا لا يُثمَّنُ، وأنّكَ خيرُ صديقٍ لي، ولكنّني لستُ أجرؤُ على تحريرِ غرفتي من البهارجِ المكدَّسةِ فيها.

الرداء الذي يلفُّني هو كفنٌ قوامُه غبارٌ وموتٌ، وأنا أمقتُه، غـــير أنّـــني أقبّلُـــه بشغفٍ.

ديوني جسيمةٌ، ومواطنُ ضعفي لا تُحصى، وعاري الدفينُ يُرهِقُني، ولكـــنّني عندما آتيكَ سائلاً خَيْري، أرتعدُ وَجَلاً من أن تُسْتَجابَ صلاتي.

مطـرٌ

النهارُ مبلَّلٌ، وقد بَسَطَ المطرُ عليه ظُلمةً،
والبروقُ الغاضبةُ تُطلِقُ نظراتٍ ساخطةً، من خلالِ أقنعةِ السُّحُبِ، والغابـــةُ تُحاكي أسدًا في قفصٍ، يروحُ ويجيءُ، يائسًا.
وفي هذا اليوم العاصف، دعْني أجد السلامَ في حضورِكَ.
فالجوُّ الكئيبُ قد ملأَ وحدَتي كآبةً، كي أعي كُنهَ مغزى مبادرتِكَ، عندما تأتي كي تمسَّ قلبي.

ظـلٌّ وضيـاءٌ

المصباحُ بيدي، يُصارعُ العتمةَ، على الطريق الذي لا يني يتمـــادى طـــولاً.
وحافّةُ الطريق تُرعبُني، فالأشجارُ المزهرةُ تُلقي عليَّ نظرةَ شبحٍ صارمةً. وصدى خطواتي المكتومة يَرتدُّ إلى أسماعي، مضاعِفًا ريبَتي.
ولذلك أُصلّي كي يشرقَ نورُ صباحِك، في هذا الفجرِ حيثُ ينصهرُ القريبُ والبعيدُ، وحيثُ تتوحّدُ الحياةُ في الحبِّ.

حبُّك اللامحدود

أقِمْ نصبَ عينيَّ، ودعْ نظرَكَ يُلهبُ نشيدي.

أقِم بين النجومِ، ودعني أستشفَّ، في قلبِ ضيائها، لهيبَ عبادتي.

أقِمْ فوق المعْطَفِ المُخضلِّ الذي فرشتْهُ الأرضُ تحتَ قدَميْكَ، ودَعني أشهدْ، في حقولِه المزهرةِ، مدى تحيّتي لك.

أُمكثْ إلى جانِبي في مساء التخلّي، عندما يسهرُ قلبي وحيدًا، واملأْ كأسَ وحدتِه، واجعلْني أشعر، في صميم كيانِي، لامحدوديّةَ حبِّكَ.

الوقتُ الضائعُ

في أيّام الفراغِ والبطالةِ نَعَيتُ الوقتَ الضائعَ، ولكن، هل هو، حقًّا، ضائعٌ، بعد أن أخذتَ، يا اللهُ، كلَّ لحظةٍ من حياتي بين يدَيْكَ؟

أنتَ ثاوٍ في صميمِ كلِّ شيءٍ، تغذّي البذرةَ حتّى تطلَعَ، والبرعمَ حتى يتفتَّحَ، والزهرةَ حتّى تُنْضِجَ الثمرَ الغزيرَ.

كنتُ مُتعَبًا، مُمدَّدًا على فراش الكسَلِ، متوهّمًا أنّ كلّ عمَلٍ قد توقّفَ، ولدى استيقاظي، صباحًا، ألفَيْتُ حديقَتي زاخرةً بالأزاهيرِ والروائعِ.

لا أريدُ سواكَ

إنّكَ أنت من أبتغي، أنتَ وحدَكَ، يا الله! فدَعْ قلبي يردِّد هذه الإرادةَ إلى الأبد.

كلُّ الرغباتِ الأُخرى التي تراودُني، ليلَ نهارَ، هي باطلةٌ. وكما أنّ اللهفةَ إلى النور كامنةٌ في حلك الديجورِ، كذلك، في أغوار لاوعيي، تُدوّي هذه الصيحةُ: "إنّكَ أنت من أبتغي، أنت وحدَكَ".

وكما أنّ العاصفةَ، في عنفوانِ هياجِها، لا تتطلّعُ إلاّ إلى الانتهاءِ في السُّكونِ، لا يكفُّ تمرُّدي يصارعُ حبَّكَ، هاتفًا نحوه: "إنّكَ أنتَ من أبتغي، أنتَ وحدَكَ".

اجتثَّ دناءةَ قلبي

هذه هي صلاتي لكَ، يا الله! اضْرُبْ دناءةَ قلبي، واجتثَّها من جذورِها. هبْني قوَّةَ تقبُّلِ الأفراح والشدائد، بقلبٍ ساجٍ.

هَبْني قدرةَ جعل حبّي يفيضُ خدمةً.

هبْني قدرةَ ألاّ أنكرَ الفقير أبدًا، وألاّ أنحني أمام السلطةِ الوقِحةِ.

هَبْ فكري قدرةَ التعالي فوق الترّهاتِ اليوميّةِ.

هَبْني قدرةَ إخضاع قوّتي لمشيئتِكَ، بحبٍّ.

خُذْني، خُذْني!

يومًا إثرَ يومٍ، مَثَلْتُ أمامَ بابكَ، مادًّا يد السؤال مستجديًا المزيدَ من كَرَمِكَ. فأعطيتَني، وأغدَقْتَ العطاء، تارةً بمقدارٍ، وتارةً بغزارةٍ مدهشةٍ.

تلقّفتُ بعضَ هداياكَ، ولكنّني أعرضتُ عن بعضها الآخر. قدّرْتُ بعضَها حقَّ قدرِها، ولكنّني عبِثْتُ ببعضها الآخر عَبَثي بدُمًى، وحطَّمتُها عندما ملَلْتُها، إلى أن تنامتْ أكوامُ حطامِ عطاياكَ وحجَبَتْكَ عنّي، فيما استمرّ قلبي يذوبُ انتظارًا.

وها أنذا، اليومَ، أهتفُ: "خُذْ، خُذْ، استَعِدْ، حطِّمْ كشكولَ تسوُّلي، وأطفئ مصباح الساهر القلق.

أمسك بيدي، انهضْ بي فوق هذه التلّةِ من عطاياكَ، واقتدْني إلى المدى المُقفِرِ حيث لا أشهد سوى حضورِكِ".

نهايةُ لياليَّ اللامبالية

استيقاظي في حبِّكَ هو الذي سيقرعُ ناقوسَ نعْيِ لياليَّ اللامبالية.

فجرُكَ سيُلهِبُ قلبي بأشعّتِه، فتنطلقُ رحلتي على دَرْبِ الألمِ المنتصِرِ.

فأَجرؤُ على مواجهة تحدّي الموتِ، وحملِ صوتِكَ، وسطَ حملات التهكّم والتهديد. وسأُعرّي صدري، كي أدرأَ الأذى عن أبنائِك، وسأُخاطر بالمكوث إلى جانبِكَ، حيثُ لا يقفُ سواكَ.

تعـالَ إليَّ...

عندما يقسو منّي القلبُ ويجفُّ، هلمَّ وأَمطِرْ عليّ وابلَ رأفتِكَ.

وعندما تفقدُ الحياةُ رواءَها، تعالَ إليَّ في طوفانِ نغَمٍ.

عندما يصُمُّني الضجيجُ، ويصرفُني عن الجوهريِّ، تعالَ إليَّ، يا إلهَ الصمتِ والسلامِ، تعالَ إليّ بسلامِكَ وسكينتِكَ.

عندما يتلبَّدُ قلبي البائسُ، وينتحي زاويةً، إِدفع البابَ وادخُلْ، يا إلهي، في أُبَّهة ملكِكَ.

وعندما تُعمي الشهوةُ فكري، وتخدعُه بسرابها وغبارِهـا، تعـالَ إليَّ، أيّها القدّيسُ الوحيدُ، أيّها اليقِظُ، وأضئني بنورِك، وهزَّني برعدِكَ.

لا شيءَ سوى حبِّـكَ

أجلْ، أعلمُ أنّ كلَّ هذا لا يساوي شيئًا.

فحبُّكَ وحدَه، يا الله، يا من يهواه قلبي، حبُّك وحدَه، هو الذي يثوي في هذا النورِ الذهبيِّ المتراقصِ على أوراقِ الأشجارِ، وفي هذه السُّحُبِ الكسْلى، المُبْحِرَةِ في الفضاءِ،

وفي هذا النسيمِ الرقيقِ، الذي يودعُ لمسةَ نداوةٍ على جبيني.

اغتسلت عيناي بنور الصباح: تلك هي رسالتُك إلى قلبي، ومحيّاكَ ينحني عليَّ من عليائه، وعيناكَ تغوصانِ في عينيَّ، وقلبي يخفق عندما يُلامِسُ قدَمَيْكَ.

ولّت ساعةُ اللهو

عندَما كنّا نعبثُ معًا، لم أسعَ، قطُّ، إلى معرفة هويّتِكَ.

كانت حياتي صاخبةً، بمنأًى عن كلّ حياءٍ، وكلّ خوفٍ.

في الصباحِ الباكرِ، كنتَ، مثلَ رفيقٍ، تنتزعُني من رقادي، وتستصحبُني كي ألهوَ، من غابةٍ إلى غابةٍ.

وفي تلكَ الأيّامِ، لم يخطُرْ لي ببالٍ أن أفقَهَ مغزى الألحان التي كنتَ تُنْشدُها على مسامعي، مكتفيًا بالإصغاءِ إلى لحنِها، وإلى ترديدِها، وعلى إيقاعها، كان يرقصُ قلبي.

وها قد ولّى زمنُ اللهو، وحطّت عليَّ، بغتةً، نظرةٌ لم أعهدْها من قبلُ. فالعالمُ الساجدُ عندَ قدَمَيْكَ، مطرقًا، مُغمضَ العينيْن، يتولاّه الخوفُ، وتقاسمُه الرعدةَ جميعُ النجوم الخرساء.

عنـدما تخلِّصُني

عندما تُخلِّصُني، تُصبحُ قدمايَ رشيقَتَيْن في ذرعهما عوالمَكَ، ويُشعُّ قلبي أنوارَ شمسِكَ، عندما يغتسِلُ من أدرانه.

ومالَمْ يتفتّقْ بُرْعمُ حياتي عن إزهارِ جمالٍ، يُلطِّخُ الحزنُ قلبَ الخليقةِ.

وعندَما تَخلعُ نفسي كَفَنَ الليلِ، ستُفرِغُ موسيقى على بسمتِكَ.

إنشــادٌ

عندما تدعوني إلى الإنشادِ يفيضُ قلبي زَهْوًا، فأرنو إليكَ، وتغرورقُ بالدموع عينايَ.

وتذوبُ كلُّ نشازاتِ حياتي، وكلُّ مراراتها، في تناغُمٍ عذبٍ، وتندفعُ حمــيّتي لخدمتِكَ، باسطةً جناحَيْها، مُحلِّقةً مثلَ طائرٍ يُسعده الارتحالُ فوقَ المحيط.

أعرف أنّكَ تستعذبُ نشيدي، وأنّ المُنشِدَ فيَّ – المنشدَ وحدَه – هو الجــديرُ بالمثول أمامَ حضورِكَ.

وبأطراف جناحَيْ نشيديَ الجسيمَيْن، أُلامِسُ قدمَيْكَ، اللتَيْنِ لن أُعلِّلَ نفسي، أبدًا، ببلوغِهما.

وتأخذُ بي نشوةُ الإنشادِ، فأدعوكَ صديقي، في حينِ أنّكَ سيّدي.

عطــايا

أعطَيتَني حبَّكَ، وملأتَ العالَمَ بعطاياكَ،
مواهبُكَ تنهمرُ عليَّ، حين لا أتوقَّعُها، لأنّ قلبي غافٍ في سوادِ الليلِ.
كنتُ هائمًا في سردابِ أحلامي، فارتعشتُ فرحًا،
موقنًا أنّني سأقابلُ كنــزَ كلماتِكَ بزهرةِ حبٍّ صغيرةٍ،
في الصباح، عندما سيستيقظُ قلبي.

بلا حــدودٍ

بلا حدودٍ صَنَعْتَني، يا الله، هكذا طابَ لكَ.

هذه الكأسُ الهشّةُ، لا تني تُفرِغُها، مرّةً تلوَ مرّةٍ، وبلا انقطاعٍ تُعيدُ مَلأَها حياةً جديدةً نديّةً.

وهذا الناي القصبيُّ الصغيرُ، طويتَ به الهضابَ والوديانَ، وبه نفختَ أنغامًا أبديّةَ الجدّةِ. ألمسُ يدَيْكَ فأُلامسُ الخلودَ، ويطفُرُ قلبي من حدودِه، جَذِلاً، وينبضُ بوحًا يستعصي على التعبيرِ

في يديّ المُغرِقَتَيْن في الصِّغر، تصُبُّ آلاءَكَ، وتكرُّ السنونُ، وأنت ما زلتَ تُغدِقُ عطاياكَ، ولا تنفكُّ تجد مكانًا لمزيدٍ من الإغداقِ.

وحــدةٌ كاملةٌ

فرحُكَ يكتملُ فيَّ، يا الله.

اتّخذْتَني شريكًا في كلِّ ثروتِكَ، وغدا قلبي ملعبًا لما يرضيكَ،

ولن تكفَّ حياتي عن عكْسِ صورة رَغباتِكَ.

أنت، يا سيّد الأشياء كلِّها، ازدَنْتَ بالجمالِ، وانصهر حبُّكَ في حبِّ المحبوبِ، كي يؤلِّف وحدةً كاملةً.

الفضـــاءُ والعشُّ

أنت الفضاءُ، وأنتَ العشُّ، أيضًا.

يا فيضَ البهاء، بعشٍّ الألوانِ، والألحانِ، والعُطورِ، يُسيِّجُ حبُّكَ النفسَ.

ها إنّ الصباحَ قادمٌ من الشرق، حاملاً، في يُمناهُ سلّةً ذهبيّةً، تضـــمُّ قــلادةَ الجمالِ التي سيُزيِّن بها الأرضَ، بصمتٍ.

ثمّ، ها هو المساءُ يأتي، عبرَ دروب بكرٍ، منـــزّهةٍ من كلّ لوثةٍ، وينبسطُ فوقَ مراعٍ هجرَتْها القطعانُ، وفي يدهِ جرّةٌ ذهبيّةٌ ملأى بكوثر سلامٍ عذبٍ، اســتقاه من نبعِ بحْرِ السكون الغربيِّ.

وهناك، حيث تمتدُّ السماءُ إلى ما لانهاية، وحيثُ النفسُ مدعوّةٌ إلى الطــيران، هناك يسودُ ضياءٌ فسيحٌ، صافٍ، ناصعُ البياض.

لا نهارَ، هناك، ولا ليلَ، ولا أشكالَ ولا ألوانَ، ولا كلام، ولا شيءَ، هناك، سوى صمتٍ جمٍّ، جمٍّ.

أصدقاءُ لم أكنْ أعرفُهم

جَعَلْتَني، يا الله، ألتقي أصدقاءَ لم يكن لي بهم عهدٌ، ومنحتَني مجلسًا في بيوتٍ لم تكن لي. قرّبتَ لي القصيَّ، وجعلتَ من غريبٍ أخًا لي.

قلبي يَجِفُ وجَلاً، عندما يتعيَّنُ عليَّ هجرُ مسكني المألوفَ، لأنّني أنسى أنّ الماضي، هناكَ، يسكنُ في المستقبلِ، وأنّكَ، أنتَ، أيضًا، هناك تُقيمُ.

بالولادةِ وبالموتِ، في هذا العالَمِ، وفي العوالمِ الأُخرى، وحيثُما تقتادُني أنتَ رفيقُ حياتي الأبديّةِ الوحيدُ، وأنتَ من يؤالفُ قلبي، بوشائج الفرح، مع ما ليس لي مألوفًا.

من يتعرّفُكَ، لا يعُدُّ أحدًا غريبًا أو خصمًا، وتُشْرَع له الأبوابُ كلُّها.

فاستجِبْ لصلاتي، وهَبْني هذه النعمة: ألاّ أفقدَ حالَ السعادةِ التي أنعَمُ بها، عندما ألمسُ الأوحدَ، في لجّةِ التعدُّدِ.

حيثُ تكتمـلُ الوحـدةُ

هكذا بلَغَ الفرحُ الذي تستمدّه منّي امتلاءَه، وهكذا أنت تنحدرُ إليّ،
يا ربُّ، يا سيّدَ جميعِ السماوات.
فلو لم أكُنْ موجودًا أين عساه أن يكونَ حبُّكَ؟
لقد أشركتني في غناكَ، وفي قلبي اندرجت متعتُكَ، بلا حدودٍ. وبحياتي تصاغُ، باستمرارٍ، مشيئتُك.
بالجمال ازدنتَ، يا ملكَ الملوكِ، كي تسبيَ قلبي.
ولذلك يتحوَّلُ حبُّكَ إلى حبيبِكَ.
وتتراءى أنت، هنا حيث تكتملُ وحدةُ اثنينِ.

موسـيقـاكَ

يتعذَّرُ عليَّ إدراكُ أُسلوبِ إنشادِكَ، ولكنّني أُصغي إليهِ، دائمًا، في ذهولٍ صامتٍ.
نورُ موسيقاكَ يُضيءُ العالَمَ، ونَفَسُها المحيي يرتحِلُ من سماءٍ إلى سماءٍ.
وعمرُها الإلهيُّ يتجلّى من خلال السدودِ، ويتدفَّقُ،
فيتحرَّقُ قلبي توقًا للانضمامِ إلى نشيدِكَ، ولكنَّه عَبَثًا يسعى وراءَ صوتِكَ.
أتفوَّهُ بكلماتٍ... ولكنّ كلامي لا يؤلِّفُ أيَّ نشيدٍ، فأشكو خيبَتي.
آه! لقد أَسرتَ قلبي، يا سيِّدي، في بُحَيْراتِ موسيقاكَ اللامتناهيةِ

إنّـكَ تتوارى

إنّكَ تتوارى في مجدِكَ يا إلهي.
فذرّةُ الرملِ، وقطرةُ الندى ظاهرتان للعيان أكثر منكَ.
والعالمُ يزعمُ، بكلِّ قِحَةٍ، وبلا حياءٍ، أنّ كلَّ شيءٍ هو ملكُه،
في حينِ أنّ كلَّ شيءٍ هو لكَ.
إنّكَ تفسحُ لنا مكانًا، وأنتَ صامتٌ، باقٍ إلى جانبِنا.
ولذلكَ يُشعلُ الحبُّ مصباحَه، وينطلقُ باحثًا عنكَ،
ويأتي كي يعبدُكَ، وإن لم يتلقَّ، إلى عبادتِكَ، دعوةً.

عبــادةٌ

العطايا التي تُسبغُها علينا، نحن البشر، تُلبّي احتياجاتِنا كلَّها، وترتدُّ إليــكَ، كاملةً غيرَ منقوصةٍ.

فالساقيةُ تدأبُ على عَمَلِها اليوميِّ، فتسْعى بين الحقولِ والدســاكرِ، راسمــةً دربَها. ولكنَّ دفقَها الدائمَ يتحوَّلُ كي يغسلَ قدَمَيْكَ.

والوردةُ تعطِّرُ الجوَّ بشذاها، ولكنّ مُهمَّتَها القصوى هي أن تقدِّمَ ذاتَها ليدِكَ.

عبادتُك لا توهنُ الكونَ، ولا تُنقِصُ منه شيئًا.

كلٌّ يفسِّرُ أقوالَ الشاعرِ، وفقَ هواه، ولكنّ معناها الأقصى هــو أن تشــيرَ إليكَ.

لَـكَ

لك هذا النورُ الذي يُمزِّقُ الظلمةَ، ولَكَ العطفُ المتفجِّرُ من قلـــبٍ تمـــرَّس بالنضالِ.

لَكَ هذا البيتُ المُشرعُ على العالَمِ، ولَكَ هذا الحبُّ الذي يدعو إلى الكفاحِ، لَكَ هذه الهِبةُ، وهذا الربحُ المُكتَسَبُ، عندما يُخْسَرُ كلُّ شيءٍ، ولَكَ هذه الحياةُ التي تصبُّ نهرَها في كهوفِ القبرِ.

لَكَ السماءُ المنثورةُ في الترابِ وفي الظلِّ.

وأنتَ هنا، لي أنا، ولكلِّ أبناءِ العالَمِ.

أُقطُفْ هذه الزهـرةَ

أُقطُفْ هذه الزهرةَ النحيلةَ، بادرْ إلى تناوُلِها، خشيةَ أن تـــذبُلَ، وتتســـاقطَ أوراقُها في الرغامِ، وحتّى إن لم يكنْ لها في عِقْدِكَ مكانٌ، لا تَضُنَّ عليها بلَمســـةِ يدكَ الموجعةِ. أُقطفْها، فقد بتُّ أخشى أن ينصرمَ النهارُ، في غفلـــةٍ منّـــي، وأن يفوتَ وقتُ التقدمةِ.

ولو أنّ لونَها باهتٌ، وخجولٌ هو أريجُها، اِستخدمْ هذه الزهرةَ، واقْطُفْها قبل فواتِ الأوانِ.

تجـرَّدَ إنشادي من بهارِجِهِ

لقد تجرَّدَ إنشادي من بهارِجِه، ولن أُفرِغَ فيه، بعدُ، أيّةَ كبرياء. فالحليُّ تُفسِدُ تلاقينا، وتنتصبُ، في ما بيْننا، حاجزًا، ويطغى على همساتِكَ حفيفُها.

عندما أشاهدُكَ، أيّها الشاعرُ المعلِّمُ، يموت زهوُّ الشاعر، فيَّ، حياءً. ها أنـــذا عندَ أقدامكَ قابعٌ، فلتكنْ حياتي شيئًا بسيطًا ومستقيمًا، مثـــلَ مزْمـــارٍ قصـــبيٍّ تستطيع، أنتَ، مَلأَه نغمًا.

رئفتَ بالمتسوِّلِ

كانت بسمةُ فرحٍ تُضيءُ السماءَ، عندما أَلبستَ نفسي أَسمالاً رثَّةً وأَرســـلتَها تستعطي عبرَ الدروبِ.

واستجدَتْ من بابٍ إلى بابٍ، ولطالما سُلِبتْ منها قصعةُ اســـتعطائِها، كلّمـــا شارفت على الامتلاء.

وفي مساء نهار نَصَبٍ، انتهت إلى أَمام سورِ قصرِكَ، رافعةً قصعتها الزريّـــةَ، فوافيْتَ، وأَمسكتَ بيدها، وأَجلستَها إلى جانبكَ، في بهاء مجدِكَ.

أخيـرًا، هتَفتُ إليكَ

على المسافِرِ أن يقرَعَ جميعَ الأبوابِ قبل الانتهاءِ إلى بابه.
ولا بدَّ له من التيهِ عبرَ جميعِ العوالِمِ الخارجيّةِ، قبلَ البلوغِ، أخيرًا، إلى هيكلِهِ الحميم.
ولطالما تركتُ أبصاري تَهيمُ في البعيدِ، قبلَ أن أُغمضَ عينيَّ، وأهتــف: "هــا أنتَ ذا!".

أمْطِــرْ...

منذ أيّامٍ وأيّامٍ، لم تَهْمِ قطرةُ مَطَرٍ، يا إلهي، على قلبي المُقْفِر. الأُفقُ عارٍ عُريًــا شرسًا، لا تلوحُ فيه سحابةٌ، وليس ما يوحي بمَطَرٍ منعشٍ قريبٍ.
فأرسلْ عاصفتَكَ الغاضبةَ، القاتمةَ، المُثقَلةَ بالموتِ، إذا كانت تلك هي رغبتُكَ، وبضرباتِ بروقِكَ مزّق السماءَ من جانبٍ إلى جانبٍ.
ولكن استعِدْ إليكَ، يا ربُّ، هذا القيظَ المريعَ، اللافح، القاسي، الذي يقتحمُ قلبي خلسةً، ويجفّفُ فيه كلّ أملٍ.
ومن أعلى سمائِكَ، أنزلْ علينا سحابَ رحمتِكَ، الذي يحاكي نظرةَ أُمٍّ مفعَمــةً دموعًا، في يوم غَضَب الوالدِ.

حبًّا بي، تُعرِضُ عنّي

كثيرةٌ هي رغباتي، ومثيرةٌ للشفقةِ شكواي. ولكنّكَ، بإعراضِكَ القاسي لا تنفكُّ تقيني، ولا تنفكُّ رأفتُكَ تنسجُ شبكتَها حول حياتي.

يومًا إثرَ يومٍ، تصوغُني، كي أكون جديرًا بكبريات آلائِكَ البسيطةِ التي تُسبِغُها عليَّ: هذه السماءُ وأنوارُها، هذا الجسدُ، والحياةُ، والروحُ. وفي الآنِ عينه، تقيني من أخطارِ الرغباتِ الجامحةِ.

أضعفُ، أحيانًا، وأُلِحُّ. وقد أَهبُّ وأندفعُ بحثًا عن غايتي. ولكنّكَ، حينئذٍ، تواجهُني بإعراضٍ قاسٍ.

يومًا إثرَ يومٍ تُعدُّني كي أكونَ جديرًا بكرمِ ضيافتِكَ، ولكنَّكَ، بإعراضِكَ المتكرِّرِ والمستمرِّ، تقيني من مخاطرِ الرغباتِ الهزيلةِ والمريبةِ.

مُنشِدٌ

أنا هنا كي أُنشِدَ. وفي هذه القاعةِ التي تخصُّكَ لديَّ زاويةٌ أجلس فيها.

لا عملَ لي في عالَمِكَ سوى سكْبِ ألحانٍ متقطِّعةٍ.

عندما ستدقُّ الساعةُ من أجل عبادتِكَ الصامتة، في معبدِ منتصفِ الليلِ الغارق في الظلامِ، مُرْني، يا سيّدي، فأمثلُ أمامَكَ منشدًا.

وعندما تُضْبَطُ القيثارةُ الذهبيّةُ، مع نسيم الصباح، حينئذٍ مُرْني بالحضورِ.

هل حانَ الأوانُ؟

دُعيتُ إلى مهرجان هذا العالَم، وبذلك بوركتْ حياتي. فرأتْ عيناي، وسمعتْ أُذُناي.

كان دَوْري، في هذا العيد، أن أعزف بآلتي، وقمتُ بكلِّ ما استطعتُ إليه سبيلاً.

والآنَ أسألكَ هل حانَ، أخيرًا، أوانُ الدخول كي أشهدَ وجهَكَ، وأُقدِّمَ لك تحيَّتي الصامتة؟

في المساء

عندما ينقضي النهارُ، وتصمتُ الطيورُ، وتتعبُ الريحُ، وتركدُ، ابسطْ فوقي سجوفَ الظلمات، مثلما تلفُّ الأرضَ بغطاءِ النومِ؛ وأغلقْ بالغمام بتلاتِ نبتة اللوتُس المتداعية، إغلاقًا رقيقًا.

وأزِحْ العارَ والبؤسَ عن المسافرِ الذي لم يُكملْ، بعدُ، مسيرتَه، وما زال جرابُه فارغًا، والذي تمزَّق ثوبُه، وكساه الغبارُ، وخارتْ قواه. وجدِّد حياتَه، كما تجدِّدُ حياة الزهرة، تحتَ ستارِ الليلِ العطوفِ.

"أنـاي" البائسُ

جئتُ، وحيدًا، إلى موعدي معكَ، يا الله. ولكن من ذا الـذي يـواكبني في العتمةِ الصامتةِ.

أنأى متحاشيًا عن حضوره، ولكنّني لا أنجو من ملاحقتِه.

إنّه يثير الغبارَ مزهوًّا، معْتدًّا، ويضخّم كلَّ كلمةٍ أتفوّه بها، بدويِّ صوتِه.

إنّه "أناي" البائسُ، يا ربُّ، وهو لا عهدَ له بحياءٍ، ولكنّني أنا خجلٌ من طرق بابِكَ، وهو برفقتي.

أهـلاً بـك

عندما سأرفع يدي عن دفّة السفينة، سأُدرك أنّ أوان إمساكِك بها قد حان، وأنّ ما يتوجّب فعله سيُنجَز، فباطلٌ هو عنائي.

استسلم، إذن، يا قلبي، وسلِّم بهزيمتك، بلا ضجيجٍ، وعدّ من حسن طالعـك أن تجلس مستكينًا حيث وُضعتَ.

هذه المصابيح لا تنفكُّ تنطفئُ بفعل أدنى هبّة ريحٍ. وفي جهدي من أجل إعادة إشعالها، أذهل، باستمرارٍ، عن كلّ ما سواها.

ولكنّني، في هذه النوبة، سأتعقّل، وسأنتظر في الظلام، فارشًا بساطي فـوق الثرى، وعندما سيروق لكَ، يا سيّدي، اقترب بصمتٍ، فها هنا مكانُكَ.

حياتي ثمينةٌ بين يدَيْكَ

إنّي أبكي رداءَتي، عندما أرقبُ تواصُلَ حياتي مع تفاهة الساعاتِ. ولكــنّني عندما أَشهدُها بين يَديْكَ، أُدرِكُ أنّها أثمنُ من أن تُبَعْثَرَ بين الظلالِ.

فليستيْقظْ وطني

حيثُ الروحُ لا يخالجُه خوفٌ، حيثُ الهامةُ شامخةٌ،
حيُث الفكرُ حرٌّ،
حيثُ لم يُجزّأْ العالمُ، ولم تقمْ فيه فواصلُ لزيزةٌ
حيثُ تنبثقُ الكلماتُ من أعماق الصراحةِ،
حيثُ الجهدُ الذي لا يكلُّ يسعى دائمًا إلى الكمالِ،
حيثُ لم تقضِ صحراءُ العادةِ القاحلةُ والباهتةُ على تيّار العقلِ اليقظِ،
حيثُ تَقودُ، أنت يا الله، الروحَ صوب إنماءٍ مطَّردٍ للفكرِ والعمــلِ، علــى فردَوْسِ الحرّيّةِ هذا، يا أبتاهِ، اجعلْ وطني يستيقظْ!

دمغــةُ الأبديّةِ

ذاتَ يومٍ، لم أكُنْ فيه مستعدًّا لاستقبالِكَ، ولجتَ إلى قلبي، بــلا اســتئذانٍ، ولكأنّكَ من عامّةِ الشعبِ، وكأنّي لا أعرفُكَ، ودمغتَ بطابع الأبديّــةِ لحظــاتٍ عديدةً خاطفةً من حياتي.

وها إنّي أعثُرُ عليها، اليومَ، صدفةً، وأشهدُ عليها توقيعَكَ. أجدُها ملقــاةً في الترابِ، بين أفراح أيّامي العاديّةِ المنسيّةِ وأحزانِها.

أنتَ لم تسخَرْ من أوقات عبثي الصبيانيِّ في الترابِ. والخطواتُ التي كنــتُ أسمع وقعَها في حجرةِ طفولتي هي ذاتُها التي يتردّدُ صداها من نجمةٍ إلى نجمةٍ.

أمامَ بابِ كوخي

من علياء عرشِكَ انحدَرْتَ، ووافَيْتَ نحوَ بابِ كوخي.

كنتُ منتَحيًا زاويةً، وحيدًا، أُنشِدُ، وفاجأت النغمةُ أُذُنَكَ، فانحدرتَ، ويمّمتَ شطرَ باب كوخي.

كثُرٌ هم الموسيقيّون البارعون في قصرِكَ، حيثُ الأناشيدُ تصْدَحُ في كلِّ حينٍ. بيد أنّ بساطةَ نشيدِ هذا المبتدئ فَتَنَتْ حبَّكَ. نغمةُ آهةٍ هزيلةٌ امتزجت بموسيقى العالم الكبرى، فانحدرتَ ووافيتَ صوبَ باب كوخي كي تكافئَها بزهرةٍ.

غدَوْتُ أُدرِكُ

كانت حفنةُ رملٍ كفيلةً بحجبِ إشارتِك عنّي، عندما كنتُ عاجزًا عن تفَقُّــهِ معناها.

والآنَ، وقد ازدَدْتُ إدراكًا، أتبيّنُ إشارتَكَ في كلِّ ما كان خافيًا عنّي. فهــي التي تلوّن بَتَلاتِ الزهورِ، والأمواجُ تزيِّنُها بزبَدِها، والقِمَمُ تتألّقُ بها. كنتُ قــد صرفتُ وجهي عنكَ، ولذلك كنتُ أتهجّأُ حروفَكَ، ولا أُدرِكُ معناها.

رفيـقُ الدربِ

السيرُ هو مرافقتُك، في كلِّ لحظةٍ، يا رفيقَ الدربِ.
هو الإنشادُ على إيقاعِ وقْعِ خطاكَ.
من يلمسُه نَفَسُكَ، لا يستسيغُ أمانَ الشاطئِ،
بل يبسطُ أشرعتَه، كي تخفُقَ فيها الريحُ، ويُبحرُ على لجّةٍ صاخبةٍ.
من يُشرِع بابَه على مصراعَيْه، ويجتازُ عتبتَه، يتلقَّ تحيَّتَكَ،
ولا يتريَّثُ في عدِّ مكاسبِهِ والانتحابِ على خسائرِهِ، بل تنتظمُ مسيرتُه علــى إيقاعِ خفقاتِ قلبه،
لأنّكَ تواكبُه، خطوةً خطوةً، يا رفيقَ الدربِ.

إصـرارٌ...

أينَ أنتَ تقفُ، يا حبيبي، وراءَ جميعِهم، متواريًا في الظلِّ. المارّةُ يصـــدمونَكَ على الطريق المغبرِّ، غير مبالينَ بك. وأنا، هنا، أُنفقُ ساعاتٍ عصيبةً، باسطةً لـــك تقادمي، والمارّةُ يسلبون زهوري، واحدةً واحدةً، حتّى كادَت سلّتي تفرغُ.

انقضتْ فترةُ الصباح، وانقضت الظهيرةُ، وأثقَلَ النعاسُ عــينيَّ في المســاءِ، والعائدون إلى بيوتهم ينظرون إليَّ شزرًا، وتملأني بَسمتُهم الساخرةُ مهانةً. وأنــا قابعةٌ مثل فتاةٍ فقيرةٍ، ساترةً وجهي بطرف ثوبي، وعندما يستوضحوني عمّا أريد، أُطرقُ، ولا أُجيبُ.

آه! كيف لي أن أقول لهم، حقًّا، أنّكَ أنتَ مــن أنتظــرُ، لأنّــك وعــدتَني بالحضورِ؟ وكيف أتغلّبُ على خجلي، وأُقرُّ بأنّني ارتضيتُ هذا الفقر مهرًا؟ آه! إنّي أحضن كبريائي في سرّ قلبي.

إنّي قابعةٌ على العشب، وعيناي سارحتان في السماء، حالمــةً بمباغتــة بهــاء حضور أجنحةِ عربتِكَ الذهبيّة الخفّاقة، وسط اللهب المتطاير، فيما هم جالسون على حافّة الطريق مذهولين برؤيتِكَ منحدرًا من مجلِسِكَ، كــي تنتــزعَني مــن التراب، وتُجلِسَ إلى جانبك هذه الفتاة الفقيرةَ، بأسمالِها الرثّةِ، المرتعدة خجــلاً وكبرياءً، مثل نبتةٍ متسلّقةٍ يعبث بها نسيم الصيف.

غير أنّ الوقت يكرّ، ولا أسمع ضجيج عجلات عربتِكَ، فيما تعبرُ مواكــبُ عديدةٌ، صاخبةً، مزهوّةً، أليس، ثمّةَ، سواكَ مصرٌّ على المكــوث في الظــلّ وراء جميعهم؟ وأليس سواي من يصرُّ على انتظارك، باكيةً، موجِعةً قلبي بأمَلٍ باطلٍ؟

أهدَيتَني سيفًا

تمَنَّيتُ أن أسأَلَكَ قلادةَ الورود التي كانت تطوِّقُ عنقَكَ، ولم أجرؤْ. وانتظرتُ رحيلَكَ، في الصباحِ، متأمِّلةً أن أجد على السرير أثرًا لها؛ ونظيرَ متسوِّلٍ بحثتُ، ولو عن بَتَلةٍ وردةٍ تائهةٍ.

ويا لَبؤسي! أيَّ عربونٍ عن حبِّكَ تركتَ لي! لم يكنْ زهرةً، ولا قارورةَ عطرٍ، ولا طيوبًا. فقد وجدتُ سيفَكَ البتّارَ، المُلتَمعَ كاللهب، الثقيلَ كدويِّ الرعدِ

وتسلّل من النافذة نورُ الصباح الوليد، وانبسطَ فوق سريرِكَ، وزقزقَ عصفورُ الصباح، مستوضحًا: "ما الذي وجدتِه، يا امرأة؟"

لا، لم أجدْ زهرةً، ولا قارورةَ عطرٍ، ولا طيوبًا، بل وجدْتُ سيفَكَ الرهيب.

دهشتُ وذهلتُ. أيّةُ هبةٍ هذه التي مننتَ بها عليَّ، والتي لا أجدُ لها مخبأً؟ إنّني أخجلُ من تقلّدها، أنا الهزيلة الواهية. وإنّي أجرح نفسي عندما أشدُّها على صدري. ولكن لا بدَّ من أن يحتملَ قلبي شرَفَ هذه الهديّة التي يرهقني عبؤُها.

بعد الآن، لا شيءَ في هذا العالم يُخيفُني، وستظلُّ أنت المنتصرَ في كلّ معاركي. تركتَ لي الموتَ رفيقًا، وسأُتوِّجُه بحياتي.

إنّ سيفَك بيدي كي أبترَ به كلَّ قيودي. ولن يخيفَني، بعدُ، شيءٌ، في هذا العالم.

بعد الآن، سأعزفُ عن كلِّ بهرجٍ نافلٍ، يا مليكَ قلبي. لن أعهدَ، بعدُ الانتظارَ، والبكاء خلسةً، ولا المصانعةَ، ولا الدماثةَ. فقد أهديتَني سيفَكَ زينةً. وما حاجتي، بعدُ، إلى بهارج الدمى؟

حسرتي المُقيمَةُ

إن كان قدَري ألاّ ألقاكَ، في هذه الحياة، فعسى، على الأقلِّ، ألاّ أفقدَ أسفَ حرماني من رؤيتِكَ، وعسى ألاّ أنسى، لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظَتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

فيما تنسابُ أيّامي، وسطَ جموعٍ متكالبةٍ على الكسْبِ، وفيما تمتلئُ يدايَ بمكاسبي اليوميّةِ، فليلازِمْني الشعورُ بأنّني لم أربحْ شيئًا، وعسى ألاّ أَنسى، لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظَتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

عندما أقِفُ عندَ حافّةِ الطريقِ، مُنْهَكًا متهالكًا، وعندما أفترشُ الترابَ، فلْيُرافقْني، دائمًا، الشعورُ بأنّ الرحلةَ ما برحَتْ طويلةً أمامي، وعسى ألاّ أنسى لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظَتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

عندما يزدانُ منْزلي بالأعلامِ والبهارج، وعندما تصدَحُ في حناياه أنغام الناي، وتتردّدُ رنّاتُ الضحكاتِ، فلأَشعرْ، دائمًا، أنّني أحجَمتُ عن دعوتِكَ إلى منْزلي، وعسى ألاّ أنسى، لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

تجــرُّدٌ

وضعتَني، (يا اللهُ)، وسط المهزومين، وأنا أعلمُ أنّ النصرَ ليس مكتوبًا لي، ولا قدَري الإفلاتُ من المعركةِ.

سأغوصُ في الهاوية حتّى قعرِها، وسأضطلعُ بمهمّة الهزيمةِ.

سأقامرُ بكلِّ ما أملكُ، وعندما سأخسَرُ كلّ شيءٍ سأقامرُ حتّى بكياني.

عساني، حينئذٍ، أستعيدُ كلّ ما خسرتُه، بفضلِ تجرُّدي الكلّيّ.

رجــاءٌ

أعلمُ أنّ الشمسَ ستودِّعُني الوداعَ الأخيرَ، في مساء يومٍ مكفهرٍّ.

سيستمرُّ الرعاةُ يعزفونَ بمزاميرِهم، في ظلال أشجارِ التين،

وستواصلُ القطعانُ الرعيَ على ضفاف الساقيةِ، فيما تنسابُ أيّامي في جوف الليلِ.

وأُصلّي، لعلّني أُدرِكُ لماذا أخذَتْني هذه الأرضُ بين ذراعَيْها، ولمــاذا حــدّثني صمتُ الليل عن النجومِ، ولماذا أنجب نورُ النهارِ، بقبلَتِهِ، زهورَ فكري.

وهلْ لي أن أتريّثُ قبلَ رحيلي، مردِّدًا نشيدًا أخيرًا، مكملاً لحنَــهُ، هاتفًــا: "فلْيُضأْ المصباحُ كي أُشاهدَ وجهَكَ، ولتُضفَرْ قلاداتُ الزهورِ، كي أُطــوِّقَ بهــا عنقَكَ!"

ارتحــالٌ

أنا المركبُ، وأنت اللجَّةُ والربّانُ.
إنّكَ تجتذبُني إلى الأعماقِ. فعلامَ القلَقُ؟
وهل التريُّثُ على الشاطئ خيرٌ من التيهِ فيكَ؟

غيَّـرَني الفـرحُ

كنتُ أفزعُ، خائفًا، إلى الظلال الآمنة، بيد أنّي، الآن، وقد سَمَتْ بي أمـواج الفرح إلى القمّة، أتشبَّثُ بصخرة العاصفة الصمّاء.

كنتُ، من قبلُ، أقبعُ وحيدًا، منتحيًا زاويةً،
وكنتُ أجدُ منْــزلي يضيقُ بنــزيلٍ واحدٍ،
والآنَ، بعدَ أن أشْرَعَ لي فرحٌ، لم أبحثْ عنه، بابَه على مصراعَيْهِ،
بتُّ أجدُ فيه متَّسعًا لكَ، يا الله، وللعالم أجمع.

كنتُ أسيرُ، حذرًا، مغرقًا في العناية بجسدي، فأُعطِّرُهُ، وأُلبسُهُ أفخرَ الحليِّ.

والآنَ، بعد أن رمَتْني عاصفةُ فرحٍ أرضًا، ومرَّغتْني بالترابِ، غدوتُ أضحكُ عاليًا، وأتقلَّبُ مثلَ ولدٍ على الأرضِ، عند قدمَيْكَ، يا الله.

مـدَّ يـدَكَ

عندما أرْزَحُ تحتَ وقْرِ الكلَلِ، وظمأِ النهار القاحل، وعندما تبسُطُ أشباحُ ساعاتِ المغيبِ ظلالَها على حياتي.

حينئذٍ، لستُ، فقط، إلى صوتِكَ أتوقُ، يا صديقي، بل إلى يدِكَ تضغط يدي.

إنّ هاجسًا يسكنُ قلبي، فهو يرزحُ تحت عبءِ الثرواتِ التي لم يقدِّمها لكَ.

فمدَّ يدَكَ، من خلال الليل، ولأُمسكْها، وأَملأْها، وأتشبَّثْ بها، ولأَشعرْ بعناقِكَ، في وحشةِ الطريقِ الذي لا يني يتمادى.

كنتَ في قرارةِ نفسي

كنتَ في قرارةِ نفسي، يا الله،
ولذلكَ، عندما ضلّت نفسي، لم تعثُرْ عليكَ.
لقد أشحتَ عن جميعِ أهوائي وآمالي، ولكنّكَ كنتَ، دائمًا، في ثناياها.
كنتَ، في لهوِ شبابي، فرحَه الكمين، ولكن كلّما أمعنتُ في الاستسلام للّهو، كنتُ أنأى عن الفرح.
لقد أنشدتَ لي، في كلِّ نشواتِ حياتي،
ولكنّني، أنا، نسيتُ أن أُنشدَ لك.

كلَّفتَني

أعطيتَ العصافير الإنشادَ، فقابلتْ عطاءَكَ بزقزقاتها.
وأعطيتَني الكلامَ، فاطلُبْ منّي أكثر منه، كي أُنشدَ.
خَلَقتَ النسائمَ الرقيقةَ، وأوكلتَ إلى المياه خِدمتها، وأودعتَ في يديَّ أثقالاً كي أُخفِّفَ ثقلَها بجهودي، فأَكتسبَ، بذلكَ، من أجل خدمتِكَ، حرِّيّةً منزّهةً من كلِّ عائقٍ.
خلقتَ هذه الأرضَ، وملأتَ ظلالَها بروقًا مضيئةً، وارْتَحْتَ. وأوْكلتَ إليَّ إعادةَ خلقِ سمائكَ بيديَّ. أغدقتَ مواهبَك على كلِّ شيءٍ أرضيٍّ، واقتضيْتَ منّي العطاءَ. حصادُ حياتي سينضجُ في الشمس وفي المطر، وستجعَلُني أجني أكثرَ ممّا بذرتَ، مفرِحًا قلبَكَ، يا ربّ المواسمِ الذهبيّةِ.

ما زال حُبُّكَ ينتظر حُبّي

بجميعِ الوسائل يجهدُ في حمايتي من يحبّوني في هذا العالم. ولكنّ حبَّكَ الذي يفوقُ حُبَّهم، ينهجُ نَهجًا مغايرًا، ويدَعُني طليقًا.
خشيتُهم من أن أنساهم تحولُ دون أن يَدَعوني وحيدًا. ولكنّ الأيّامَ تتوالى، وأنتَ لا تتراءى لي.
ومع أنّي لا أذكرك في صلواتي، ومع أنّي لا أحتفظ بكَ في قلبي، ما زال حُبُّكَ ينتظرُ حبّي.

فخـورٌ بخدمتِكَ

عندما تنامُ الأرضُ، أشخصُ إلى بابِكَ،
وفيما النجومُ صامتةٌ، لا أجسُرُ على الإنشادِ،
فأصبُرُ، وأسهرُ، حتّى يعبُرَ ظلُّكَ على شرفةِ الليلِ،
وحينئذٍ، أعودُ أدراجي، وقد امتلأ بكَ قلبي.
ثمَّ، في الصباحِ، أنشدُ عند حافّةِ الطريقِ، فتجيبُني أزهارُ السورِ، ويُصغي نسيمُ الصباح.
ويتوقَّفُ المارَّةُ، بغتةً، ويحدِّقونَ إليَّ، ظانِّينَ أنّني ناديتُهم بأسمائهم.

* * *

أبْقِني، يا اللهُ، على مقربةٍ من بابكَ، متيقِّظًا لأدنى رغباتِكَ،
ثمَّ أرسلْني عبرَ ملكوتِكَ، بعدَ تلبيتي نداءَكَ.
ولا تسمحْ بأن أتردّى وأتيهَ في هوّة العذوبةِ،
ولا أن يُفقِرَ التقاعُسُ عن العمل حياتي،
ولا أن يُعْميَني غبارُ الملاهي برِيَبِهِ،
ولا أن أنهجَ دروبًا عديدةً طمعًا في مزيدٍ من جني المكاسبِ،
ولا أن يعنو قلبي لنير أسيادٍ كثُرٍ.
بل، فلْيبقَ رأسي عاليًا، ولأبقَ شجاعًا، فخورًا بكوني خادمَكَ.

وجـهًا إلى وجـهٍ

هل سيتسنّى لي أن أمثُلَ أمامَكَ، يومًا إثرَ يومٍ، وجهًا إلى وجهٍ، ضامَّ اليـدين خشوعًا، يا سيّدَ حياتي؟

تحتَ سمائِك الرحبةِ، في صمتٍ ووحدةٍ، وبقلبٍ منكسِرٍ، هل سأمثُلُ أمامَك وجهًا إلى وجهٍ؟

في عالمِكَ الدائبِ على العمَلِ، الضاجِّ بالجهدِ والكفاحِ، وفي غمـرةِ حـراكِ الجموعِ، هل سيتسنّى لي أن أمثُلَ أمامَكَ، وجهًا إلى وجهٍ؟

وعندما سأفرَغُ من عملي في العالَمِ، يا ملكَ الملوكِ، هـل سـأقفُ أمامَـكَ، وحيدًا، صامتًا، وجهًا إلى وجهٍ؟

سينبَلجُ الصبحُ

عندما تمسكُ عن الكلامِ، يا اللهُ، أُقاسي صمتَكَ، وأُفعِمُ به صدري، وأنتظرُ، ساكنًا، مطأطئَ الرأسِ، كالليلِ تسهرُ نجومُه.

سينبَلجُ الصبحُ، أكيدًا، ويضمحلُّ الظلامُ، وسيسيلُ صوتُكَ، مثـلَ ذهـبٍ ينساب عبرَ السماءِ.

وستنطلقُ كلماتُكَ، آنذاكَ، أناشيدَ، من أعشاشِ طيوري، وستتفجّرُ أنغامُـكَ زهورًا، في جميع خمائل غاباتي.

ولكـــن...

أجلْ، أعترفُ بكَ، إلهًا، وأنتحي جانبًا، ولكنّني لم أجعلْ منْكَ خاصَّـــتي، ولم أُحِطْ بكَ معرفةً وثيقةً.

أعترفُ بكَ أبًا، وعندَ قدَمَيْكَ أسجدُ، ولكنّني لا أُمسِكُ بيدِكَ، إمساكي بيـــدِ صديقٍ.

حيثُ تحطُّ على أرضنا، يا اللهُ، وتَهَبُني ذاتَكَ، لا أُقيمُ أنا، ولســـتُ، بعـــدُ، مستعدًّا لضمِّكَ إلى قلبي، ولاتّخاذِكَ رفيقًا.

أنتَ أخٌ بينَ إخوتي، ولكنّني لا أُعيرُ هؤلاء الإخوةَ اهتمامًـــا، ولا أُقاسِـــمُهم أرباحي، فأُشركُكَ بكلِّ ما أملكُ.

لستُ أقِفُ إلى جانبِ البشرِ، في سعادتِهم وبؤسِهم، ومـــن ثمَّ لا تتســـنّى لي الإقامةُ إلى جانبِكَ.

إنّي أتردّدُ في التخلّي عن حياتي، كي أنغمسَ في لجَّةِ الحياةِ الغامِرةِ.

صـورةُ مليـكي

عندما زعمتُ نحتَ صورةٍ لك، على غرار حياتي، كي يعبدَها البشرُ، جئـــتُ برغباتي ورمادها، وبكلّ إغراءات أَوهامي، وبأَحلامي البرّاقة.

وعندما رجوتُكَ أَن تصوغ، بحياتي، صورةً نابعةً من نفسِكَ، جديرةً بأَن تحظى بحبّكَ، جئتَ بنارِكَ، وقوّتِكَ، وحقيقتكَ، وحبّكَ، وسلامكَ.

أعطِني، يا الله

أعطِني، يا اللهُ، زادَ الحبِّ الأسمى، هذه هي صلاتي.أعطِني الزادَ الذي يتيحُ لي أن أتكلّمَ، وأعملَ، وأتألّمَ، وفقًا لمشيئتِكَ، وأن أتخلّى عن كلِّ شيءٍ، كيلا تتخلّى مشيئتُكَ عنّي. قوِّني في المخاطر، وكرِّمني بالألم، وساعدْني على تسلُّق دروبِ التضحيةِ اليوميّةِ الوعرةِ.

أعطِني ثقة الحبِّ القصوى، هذه هي صلاتي، أعطِني الثقةَ في الحياة التي تتحدّى الموتَ، وتحوِّلُ الضعفَ قدرةً، والهزيمةَ نصرًا.

وارتقِ بي، لكي تتقبّلَ كرامتي الإهانةَ، وتأبى إلحاقَها بأيٍّ كان.

معجزةُ حبِّكَ

لقد جعَلَني حبُّكَ عظيمًا، وأنا لستُ سوى إنسانٍ بين سوادِ البشر، غارقٍ في لجّةِ الرداءةِ، تتقاذَفُني أمزجةُ العالمِ المتقلِّبةُ.

لقد أفسحتَ لي مكانًا حيث يودعُ الشعراءُ تقادِمَهُم، وحيث العشّاق المشهورون يتبادَلون التحيّاتِ عبرَ الأجيالِ.

يصدفُني اللامبالون في السوقِ، وهم يجهلون أنّ جسدي قد أمسى ثمينًا بفضْلِ لمستِكَ الرقيقةِ، ولا يعلمون أنّني أحمل قبلتَكَ، مثلما تحمل الشمسُ الدمعةَ الإلهيّةَ التي ألهَبَتْها بنارٍ لا تخمدُ.

من نفسي أطلقْ نشيدَكَ؟

استحوذَ عليَّ التعبُ، بعد أن أنفقتُ نهاري كلَّه سائرًا على قدميَّ. وحينئذٍ، التفتُّ نحو بلاطِكَ الملكيّ الذي ما زال بعيدًا.

كان الليلُ يهبطُ، والتوقُ يستولي عليَّ. وأيّةً كانت كلماتُ نشيدي، كان الألمُ يخترقُها. فأناشيدي، هي أيضًا، كانت ظمأى، يا حبيبي، يا مُفَضّلي.

وعندما غاصت الساعةُ في الظلمةِ، رمَت يدُكَ الصولجانَ، وتناولت القيثارةَ، وغمَزَتْ أوتارَها، فوجفَ قلبي، يا حبيبي، يا مُفَضّلي.

ولكن ما هي السواعدُ التي تكتّفني؟

سأتخلّى عمّا يتوجَّبُ عليَّ التخلّي عنه، وسأحمِلُ ما يتعيّنُ عليّ حمله، وحسبي أن يتاح لي السير بقربِكَ، يا حبيبي ومُفَضَّلي.

انحدرْ، أحيانًا، من عرشِكَ، وتعالَ فاختلطْ بمسرّاتِنا وبآلامِنا.

تَخَفَّ مموَّهًا بكلِّ الأشكال، وتوارَ في جميع مباهجنا، وفي الحبِّ، وفي نفسي، ومنها أطلق نشيدَكَ.

تحـوُّلٌ

عالمُكَ هو ملكُكَ، يا سيّدي،
وهو ثاوٍ، إلى الأبدِ، عندَ قدَمَيْكَ.
ولا متّسَعَ لنقصٍ أو أشتهاء،
فأنتَ الملءُ، وأنت الكمالُ.
ولذلكَ، في امتلائِكَ، تفتقرُ إلى فرحِكَ الخاصِّ،
ولذلكَ حوّلتَ ثرواتِكَ، الواحدةَ تلو الأُخرى، إلى ثرواتي،
وهكذا يكتمل الكنْـــزُ من جديدٍ، ويتجدّدُ أبديًّا، ويظلّ ملك الربّ.
ولذلكَ، تستعيدُ، يومًا بعد يومٍ، نهارَكَ المُشرِقَ.
في نظري الذي يعشقه.
وهكذا، يومًا إثر يومٍ، تمتحنُ حجرَ مِحَكِّ حبِّكَ، بقرعه على قلبي،
فيتحوّلُ حُبِّي ذهبًا.

ثمينةٌ حياتي بين يَديْكَ

في إِبْهارِ برقِ لحظةٍ، شاهدتُ عظمةَ خلقكَ، عندما منحتَني الحياة... إِنّي أَبكي دناءتي عندما أَلحظ اندراج حياتي في تفاهة الساعات، ولكن عندما أَلمحها بين يديْكَ، أُدركُ كم هي أَثمنُ من أن تُهدَر بين الظلالِ.

ردٌّ

يا إلهي،

ألم أشتُمْكَ، مرَّةً، بل مرّاتٍ عديدةً؟

فقد جئتَني، صباحًا، صادِحًا بأناشيدِكَ،

وألقيتُ عليكَ الحجارةَ، من نافذتي،

لأنّكَ كنتَ تُقلقُ نوْمي.

وبعد لحظاتٍ، كنتَ تائهًا وسطَ حشدِ الجموعِ.

وعندَ الظهرِ، وافَيْتَ إلى بابي، متسوِّلاً، فقيرًا يكادُ يُرديهِ الجوعُ،

وقلتُ: يا لهذا الطارقِ الذي يُزعِجُ عملي! وطردتُكَ.

وعُدْتَ مساءً بهيئة ملاكِ الموتِ، حاملاً شعلةً مُبْهَمَةً وغريبةً، مثلَ كابوسٍ، فنعتُّكَ بالسارقِ والشرّيرِ والعدوِّ، وأوصدتُ بالمتاريسِ أبوابَ منْزلي. فابتعدتَ، ومن ورائِكَ اهتزّت الظلماتُ، أيُّها الصديقُ المجهولُ.

أمن أجل ذلك كنتَ تأتيني؟ وكنتُ أنا أسُدُّ طريقَكَ، وأطردُكَ، وأجرحُكَ؟

ولطالما اقترضتُ منكَ مالاً، وأنا عازمٌ على ألاّ أردَّه لك، وكنتُ أُغلقُ، دونَكَ، بابي.

ثمَّ عندما سأرقُدُ في عُمقِ الليلِ، مُثْقَلاً بالترابِ، وحيدًا في الظلامِ،

وقد أُطفِئَتْ من حوْلي الأنوارُ كلُّها،

سيُفاجِئُني شعورٌ بوحدتي الرهيبةِ، بعيدًا عن ذاك الذي طردْتُه.

طيلةَ حياتي المديدةِ، كافحتُ بهوًى وصبرٍ، كي أُبقي، بالقرب منّي، حَفْنةً من الأعزّاءِ، وها قد ذابت وجوهُهُم في الظلمةِ.

وهوَ، الذي لم أبالِ قطُّ، ولم أُحاوِلْ فهمَ كلامِهِ،

تجلّى، بوضوحٍ، لعينيَّ اللتَيْنِ جفاهُما الكرى،

وتراءى وجهُهُ، في مواجهةِ الليل، وسط عبيرِ الياسمين، والنجــومِ الخرســاء، وعلى كلِّ صدٍّ وجَّهتُه لقلبِه،

كانت تُجيبُ، في العتمةِ،

كلُّ النداءاتِ التي كان يبعثُ بها إلى قلبي القاسي.

عقـد دمـوعٍ

أُمّاه، سأنظم لك عقد لؤلؤٍ بدموع أشجاني.

لقد صاغت النجوم خواتم نورٍ كي تزيّن بها قدميكِ، ولكنّني أبتغي أن أُطوّق بتقدمتي جيدكِ.

الثروة والشهرة تنبعان منكِ، ولكِ أن تغدقيهما أو تمسكيهما، ولكنّ أشجاني هي ملكي، وعندما أُقدّمها لك، تكافئيني بنعمتكِ.

عطـــاءُ اللهِ

يا اللهُ،

أعطَيْتَ العصفورَ التغريدَ، وهو يشدو شَدْوَه، ولا يقوى على أكثر منه.

وأعطَيْتَني الصوتَ، وأنا أُعطي أكثر من الصوتِ: أخلُقُ أناشيدي.

وهَبتَ الريحَ الحرّيّةَ، لكي يكونَ خادمُكَ هذا، بطبيعتِه، محرَّرًا من كلِّ قيـــدٍ، وأنا كلَّفتَني بحمل ألفِ لونٍ من الأعباءِ، أسيرُ بها بعناءٍ، على دروبٍ مُحدَوْدِبةٍ أو مستقيمةٍ...

وذات يومٍ سأطهُرُ عندَ قدَمَيْكَ، وقد تحرّرت ذراعاي كي تخدماكَ وحـــدَكَ. وهكذا كلّ القيودِ هي لي وسيلةُ تحرُّرٍ.

لم تُعْطِ وَجْهَ البدرِ سوى بسْمةٍ،

وهو يسكبُ أحلامًا عذبةً، ويغمر الأرض بكوثرِه السماويِّ.

وكسَوْتَ جبيني المُلْتَهب بالألم،

فأغسلُهُ وأطهّرُه بدموعي، وأُحوّلُ الكمَدَ فرحًا، وآتيكَ به تقدمةً، قبلَ نهايةِ النهار.

لقد اقتصرتَ على خَلْقِ هذا العالمِ الأرضيِّ بالنورِ والظلامِ،

ووَضَعْتَني في وسطِه، صِفْرَ اليَدَيْنِ، وأنت تضحَكُ من وراء حجاب الفـــراغِ، لأنّكَ أعطَيْتَني، أيضًا، واجبَ خَلْقِ سمائِكَ على الأرضِ.

لقد أعطيتَ الكلَّ، وأغدَقْتَ العطاءَ، ومنّي، أنا وحدي، تطلب وتستجدي.

وعندما تنحدرُ من عرشِكَ الرفيعِ، تأخذُ، في قلبِكَ، كلّ ما أقدّمُه لكَ بحبٍّ، وكلَّ ما أودَعتَه في يديَّ الصغيرَتَيْن،

تتقبّلُه في يدِكَ، وقد نما وتحوَّلَ.

أُسكُبْ موسيقاكَ على أَوتار حياتي

بليغةً كانت معاناتي من أَجل ضبط أَوتاري، يا سيّدي،
فبادرْ، أَنتَ، بالإِنشاد، لعلّني أَنسى عنائي،
واجعلني أَشعر بجمال دوافع أَفعالكَ، في تلك الأَيّام الخالية من الرحمة.
إِنّ الليل المتداعي يتريَّثُ عند أَبوابي،
فدَعْهُ ينصرفُ مُنشدًا،
واسكُبْ قلبَكَ على أَوتار حياتي، يا سيّدي، موسيقًى منهمرةً من النجوم.

انتظـرتُ، صـامتًا

هذا الصباحَ، فُتِحَتْ، بغتةً، على مصراعَيْها، نافذةُ قلبي المتطلّعةُ إلى قلبكَ.

ودهشتُ، إذ باغَتني الاسمُ الذي أنت به تعرفني، مدوَّنًا على أوراق نيسـان الخضراء، وأزاهيره. وانتظرتُ صامتًا.

لقد رُفع مدى لحظاتٍ، الستارُ الفاصلُ بين أناشيدي وأناشيدكَ.

واكتشفتُ أنّ نور صباحِك كان زاخرًا بأناشيدي الصامتة التي لم تُنشَدْ بعدُ.

وجال في خاطري أنّني سأتعلّمها على نحوٍ أفضل، عند قدميكَ.

وانتظرتُ صامتًا.

في مساءِ حياتي

أَعلمُ أَنّ الشمسَ ستبلّغُني وداعَها، في مساءِ يومٍ قاتمٍ من الأَيّام. وفيما تغوص أَيّامي في لجّة الليل، سيعزفُ الرعاة بمزاميرهم، في ظلّ أَشجارِ التين، وسترعى القطعانُ على ضفافِ السواقي،

وإِنّي أَرفع إليكَ هذا الدعاءَ، عساني أُدركُ، قبل رحيلي عن هذه الأَرض، علامَ هي أَخذتني بين ذراعَيْها،

وعلامَ حدَّثني صَمتُ لياليها عن النجومِ، وعلامَ ولَّدَ نورُ أَيّامها، بقُبلتِه، أَزهارَ فكري.

وليتني أَتريَّثُ، قبل رحيلي، على لازمة نشيدٍ أَخيرةٍ، مكملاً نَغمَها،

وليتَ المصباحَ يُضاءُ كي أُشاهدَ وجهَكَ، وليتَ أَطواق الزهور تُضْفَرُ كي أُكلِّلكَ بها.

بساطةٌ

الوقتُ الذي يستغرقُه سعيي طويلٌ، وطويلةٌ الطريقُ.

امتطيتُ عربةَ أوّل شعاعِ نورٍ، وواصلتُ رحلتي عبرَ قفارِ العوالمِ، وخلّفتُ أثرًا على كلِّ نجمةٍ.

إنّ أكبر المسافات طولاً هي التي تُدنيني منكَ، يا الله، وأكثرُ الأنغامِ تعرُّجًا هي التي تقودُ إلى بساطة التناغُمِ الكاملةِ.

المرأَةُ التي تجسَّدَ فيها الأَبديُّ

وافَيْتَ، لحظةً، إلى جانبي، يا إِلهي، فأشعرتَني بعظمةِ سرِّ المرأَةِ الذي يختلجُ في صميم قلبِ الخليقةِ.

إِنّها هي التي لا تني تُعيدُ إلى اللهِ دفقَ لطفِه الغامرِ،

إِنّها جمالُ الطبيعةِ دائمُ النداوةِ، وشبابُها الأَبديُّ.

إِنّها ترقُص في المياهِ الجاريةِ، وتُنشدُ في نورِ الصباحِ،

وبأَمواجٍ متوثِّبةٍ تروي عطشَ الأَرضِ.

فيها تجسَّدَ الأَبديُّ، الأوحدُ، وتَفَجَّر فرحًا، يستعصي على كلّ قيدٍ،

فرحًا ينسابُ في أَلمِ الحبِّ.

من خــلالي

أيّ شرابٍ ترتجيه، يا إلهي، من كأس حياتي الطافحة؟

يا سيّد الشعراء، هل تلقى متعتك في مشاهدة خليقتك من خلال عينيّ، وفي الإصغاء الصامت إلى أنغامك الإلهيّة، عبر أُذنيّ؟

عبرَ خاطري، يُنسَجُ كونُكَ بكلماتٍ يضفي عليها فرحُك نغمًا.

وبدافع الحبّ تهبني ذاتك، وحينئذٍ تبلغ عذوبتك قمّة الكمال.

الرحمـةُ الإلهيّـةُ

عندما دفَعَهم فرحُهم المأفونُ على جمع الوحلِ كي يلوِّثوا به ثوبَـكَ، أَيّها الرائِعُ، هَلِعَ قلبي،

فهتفتُ نحوَكَ: "تناول عصا عقابِكَ، وأَدِّبْهم!".

وحطّ نورُ الصباح على تلك العيون التي ضرَّجَتْها بالحمرةِ عربدةُ الليل،

وتلقَّت حديقةُ الزَنابقِ البيضاءِ أَنفاسَهم الحارقةَ؛ وراقبت النجومُ،

من أَعماق الليلِ المقدَّسِ أَعمالَ فُسْقِهم، فُسْقِ أُولئكَ الذين جمعوا حمأةً كي يدنِّسوا ثوبَكَ، أَيّها الرائعُ.

وكان قوسُ عدلكَ منصوبًا داخل حديقة الزهورِ، في ربيعٍ تحييه زقزقاتُ العصافير، في ظلِّ الضفافِ حيث تجيب همساتُ الأَشجار على وسوساتِ الأَمواج.

لقد كانوا بلا رحمَةٍ في ضلالِهم، أَيُّها المعبودُ.

كانوا يجوسونَ في الظلامِ كي ينتزعوا حِلَلَكَ البهيَّةَ، ويُزيِّنوا بها رغباتِهم. ولّما ضربوكَ وآلموكَ، فُجِعَ قلبي، وهتف نحوكَ: "تناول سيفكَ، أَيُّها المعبودُ، وعاقِبْهم".

وكان عدلُكَ ساهرًا،

فذرَّفْتَ على قِحَتِهم دموعَ أُمٍّ، وأَخفى إِيمانُ الحبِّ الخالدِ، طيّ جراحِه، أَسلحةَ تمرُّدِهم.

وكان عقابُكَ أَلَمَ الحبِّ الذي لا ينامُ، وخَفَرَ الطُّهرِ، ودموعَ المفجوع في الليل، ولوَّن غفرانُكَ ضياءَ الصبحِ الشاحبِ.

وأَيُّها الرهيبُ، إِنّهم بدافع الجشع المتناهي، اقتحموا، ذاتَ ليلةٍ، حاجزَكَ. وحطّموا أَبواب كنوزِكَ، بُغيةَ سرقتها.

ولكنّ عبءِ سرقتهم أَعجَزَهُم عن حملِه، بل حتَّى عن زحزحتِه،

وحينئذٍ هتفتُ نحوكَ: "اغفرْ لهم، أَيّها الرهيبُ".

وانتشَرَ غفرانُكَ عواصفَ رمت بهم أَرضًا، مُبَعْثِرَةً سرقاتِهم في الرغامِ وكان غفرانُكَ صاعقةً، ومطرَ دماءٍ، وشعاعَ شمس المغيب المضرَّج بحمرة العاصفةِ.

لا نهاية للوقت بين يديك

لا نهاية للوقت بين يديك، يا ربّ. وليس، ثمّة، من يحصي عليك الدقائق.

تكرُّ الأيّام والليالي، وتزدهر وتذبل ذبولَ الورود، وأنت تنتظر.

قرونك تتعاقب من أجل إكمال زهرة حقولٍ هشّةٍ.

أمّا نحن، فلا وقت لدينا نهدره. ومن جرّاء افتقارنا إلى الوقت نضطرّ إلى السعي جاهدين بحثًا عن فُرَصٍ سانحةٍ، ولا يُتيح لنا فقرنا التريُّث والتمهُّل.

وعلى هذا النحو يكرّ الزمن، وأنا أدعه لجميع مدّعي امتلاكه المطالبين به؛ وفي هذه الأثناء يبقى هيكلك خاويًا من القرابين، مجرّدًا.

وفي غاية النهار، أحثّ الخطى، خشية أن تكون الأبواب قد أُوصدت، غير أنّني أجد أنّه ما زال، في الوقت، متّسعٌ.

العـالَمُ لـكَ

العالمُ لكَ، الآنَ وإلى الأَبَدِ.
ولأَنَّ لا رغباتٍ لدَيْكَ، يا مليكي،
لا توفِّرُ لكَ الثرواتُ سعادةً، ولكأَنّها غيرُ موجودةٍ،
ولذلك، عبر الوقتِ الذي ينسابُ بطيئًا، تعطيني ما هو لكَ،
وتستعيدُ، بلا انقطاعٍ، احتلالَ ملكوتِكَ فيَّ.
ويومًا فيومًا، تطالبُ قلبي بشمسِكَ المشرقةِ،
وتجِدُ حبَّكَ منحوتًا في صورة حياتي.

استَرْجِعْ، يا ربُّ، هذه القِلادةَ

هذه القِلادةُ الثمينةُ التي تطوِّقُ عنقي،
لا تُزَيِّنُني إلاّ لكي تعبثَ بي.
إنّها توجعُني كلّما طوَّقتني، وتخنقُني كلَّما جهدتُ في انتزاعِها.
إنّها تتشبَّثُ بعنقي، وتكتم أَناشيدي.
فلأُودعْها تقدمةً بين يديْكَ، يا ربُّ، فأَخلص.
استَرْجِعْها، وبديلاً عنها، ارْبطْني بكَ بعقدةٍ ليِّنَةٍ،
فأنا أَخجل بالمثول أَمامَكَ، وهذه القِلادةُ الثمينةُ في عنقي.

حـوارٌ

– لم تكنْ تعرفُ نفسَك، عندما كنتَ تقيمُ وحيدًا،

ولم تكنْ تبلّغُكَ أيّةَ رسالةٍ الريحُ الجاريةُ من أَقرب شاطئٍ إلى أَبعد شاطئٍ.

وجئتُ فاستيْقَظْتَ، وأَزهرت السماءُ أَنوارًا.

وجَعَلَتني أَتفتّحُ في الزهورِ، وهدهدتني في أَسِرَّةٍ من كلِّ شكلٍ،

كنتُ متواريًا في الموتِ، ووَجَدْتني في الحياةِ.

جِئْتُ فاختلجَ قلبُكَ، وخفق للأَلمِ والفرحِ،

لامستَني، فكانت رعشةُ الحبِّ.

– ولكن في عينيَّ تسري لمعةُ خجلٍ، وقد اختلَجَ صدري بوثبةِ رعبٍ،

وحجبَ الدمعُ وجهي، عندما غاب عنّي محيّاكَ.

– ومع ذلكَ، أَنا عالمٌ بظمأ قلبكَ إلى رؤيتي، ظمأً لا يرتوي،

ويصرخ عندَ بابي كلّما حطَّتْ عليه طرقاتُ الشمسِ المشرقةِ.

ذوبـان

إنّي أُحاكي مزقةَ سحابةٍ تائهةٍ في السماء، عبثًا. فلمستُكَ، يا شمسي المجيدة أبدًا، لم تبدِّدْ، بعدُ، غمامي، ولم أنصهرْ في نورك، وهكذا أمضي أعدّ الشهور والسنين التي قضيتُها بعيدًا عنك.

إذا كانت هذه هي رغبتكَ، وإذا كان هذا هو تدبيرك، فاستحوذ على تخاذلي ووهني، واطلِهما بألوانٍ ذهبيّةٍ، علَّهما ينسابان على متن الريح الماجنة، وينسكبان آيات روعةٍ لا تني تتبدّل.

ثمّ، إذا رغبت في إيقاف هذه اللعبة عند حلول الليل، فلأَذُبْ، ولأتوارَ في الظلمة، أو ربّما في بسمة الصباح الناصعة البياض، وفي نقاء هذا الطهر الشفّاف.

وعَدْتَني

وعدْتَني بأَن تقدِّمَ لي يداكَ نصيبي من هذا العالمِ. ولذلكَ يلتمعُ نورُكَ من خلال دموعي.

إِنّني أُحجمُ عن اتّباع الآخرين، مخافَةَ فقدانِ أَثرِكَ، حيثُ أَنتَ تنتظرُني، كي تكون دليلي، في منعطفٍ من طريقٍ.

سأُثابرُ، بعنادٍ، في انتهاج دربي، إلى أَن يدفعَكَ جنوني صوبَ بابي، فأَنت وعدتَني بأَنّ نصيبي من هذا العالَم سأتلقّاه من يَديْكَ.

معطف دمـوعٍ

على هذه الأرض حيث أُقيم، ينحدر شعاعُكَ مشرعًا ذراعيه، ويقف أمـــام بيتي، طيلة نهار حياتي لكي يقتطف سحبًا صاغتها دموعي، وزفراتي، وأناشيدي، وتعود بها فتطرحها عند قدميك.

وبغبطةٍ رقيقةٍ، توشّح بهذا الرداء صدرك المزدان بـــالنجوم، وتلفّـــه وتثنيـــه بأشكالٍ لا تُحصى، وتزيّنه بألوانٍ دائمة التبدّل.

إنّه خفيفٌ، سائلٌ، طريٌّ، زاخرٌ بالدموع، وقاتمٌ، ولذلك أنت تحبّـــه، أيّهـــا النقيّ، الناصع، المنـــزّه من كلّ لوثةٍ. ولذلك أنت تخفي تحت طيفه المؤثّر الحزين، بهاءَك الجليل، الناصع.

سـألوني عنـك

أجل، تباهيتُ بمعرفتي لك، أمام الناس الذين شاهدوا صورتَكَ في أعمالي كلّها، فأتوا وسألوني: "من هو هذا؟". وعجزتُ عن الجواب. "في الحقيقة، ما تراني أقول لكم؟"

فلاموني وانثنوا مضمرين لي الازدراء. ولبثتَ، أنت، مغرقًـــا في الابتســـام. تحدَّثتُ عنكَ في أناشيدَ خالدةٍ، وتفجّر السرُّ من قلبي. فجاؤوني مستوضـــحين: "قُلْ لنا كلّ ما تعنيه هذه الأناشيد". وحرتُ بما أُجيب: "آه! آه! ومـــن يـــدري معانيها، حقًّا؟". فانصرفوا هازئين، ومضمرين لي أبلغ ازدراءٍ.

ولبثتَ، أنتَ، مغرقًا في الابتسام.

حيثُ أوجدتَني

أمسِ، فقط، وُلدتُ على هذه الأرض التي أنت أبدعتَها، عاريًا، بــلا اســمٍ، وأطلقتُ صرخةَ تأوُّهٍ.

واليومَ صوتي سعيدٌ، لأنّكَ، يا سيّدي، تقف إلى جانبي، فاسحًا لي متّسعًا، كي أملأ حياتي.

حتّى عندما أُقدِّم لك أناشيدي، يخالجني أَمَلٌ سرّيٌّ بأن يتوافد إليّ البشر، وبأن يحبّوني بسبب هذه الأناشيد.

ويطيب لك اكتشاف أنّي كَلِفٌ بهذا العالم الذي أوجدتَني فيه.

تحيَّتي الأخيـرة

يا إلهي، عبر تحيَّتي الأخيرة، فلتنتفضْ كلّ حواسّي، ولتلامسْ هذا العــالَمَ، عنــد قدميكَ.

مثلما تقذفُ سحابةُ تمّوز حمولتها من وابل الأمطار، فلينحنِ ذهني أمام بيتكَ، في تحيَّتي الأخيرة لك.

ولتأتلف أناشيدي في لحنٍ واحدٍ، ولتندمج بخضمّ الصمتِ، في تحيّتي الأخيرة لك.

ومثل سرب طيورٍ مهاجرةٍ، تؤوب بلا هوادة، ليلَ نهارَ، ناشدةً الأعشاش التي هجرتها في الجبال، فلتحلّقْ حياتي، بكلّيّتها، يا إلهي، صوب مقرّها الأبــديّ، في تحيّتي الأخيرة لك.

قصرُك الرحب

في ترقُّبٍ يائسٍ، بحثتُ عنها في كلّ زوايا منْـزلي، ولم أعثر لها علـى أثـرٍ. منْـزلي ضيّقٌ، وما يخرج منه لا أمل في استعادته.

ولكنّ صرحك رحبٌ، يا سيّدي، وفيما كنتُ أبحثُ عنها انتيهتُ إلى بابـكَ. وها إنّي واقفٌ تحت قبّة سمائكَ الذهبيّة، رافعًا أبصاري الطافحة رغبةً، صـوبَ وجهكَ.

لقد انتهيتُ إلى حافّة الأبديّة حيث لا شيءَ يُهدَر: لا أمل، ولا سـعادة، ولا ذكرى محيًّا لاح من خلال الدموع.

آه! اغمس حياتي المقفرة في هذا المحيط، اغمسها في أحضان هذا الامـتلاء، كي أنعم، أخيرًا، في الكون كلّه، بهذه اللمسة الرقيقة المفقودة.

رحلـتي

قلتُ في سِرّي: ها قد شارفَتْ رِحْلتي من غايَتِها، وبَلَغْتُ تُخُومَ طاقاتي، وسُدَّ الطريقُ في وجهي، وأشرفَتْ مؤوناتي على النفادِ، وحانتْ ساعةُ اعتكافي في عتْمةٍ خرساءَ.

وها إنّي أكتشف أنّ لا عهدَ لمشيئتِك، فيَّ، بحُدودٍ. وها إنّ أنغامًـا جديـدةً يُوَلّدُها القلبُ، تخلِفُ الكلماتِ الباليةالتي انطفأتْ على لساني.

وحيثُ امّحَتْ آثارُ الماضي، تتجلّى بلادٌ قشيبةٌ تزهو بالروائع.

ما أحلى لقيـاك!

كان صمتُ البحر الصباحيّ يرتعش بتغاريد العصافير، والأزاهـير تتـراقص جَذَلاً على جوانب الطريق. ومن خلال فجوات الغيوم، كانت الأشعّة الذهبيّـة تنثر دفق سناها. وفي هذه الأثناء كنّا دائبين على مواصلة سيرنا ساهمين.

لم نكن ننشد أُغنيات البهجة، ولا نعبث، ولم نقصد القريـة بُغيـةَ تعـاطي التجارة، ولم نكن نتبادل لفظةً ولا بسمةً، ولا نتباطأ في السير، وفيما كان الوقت يدهمنا، كنّا نحثّ الخطى.

وبلغت الشمس سَمْتَ السماء، وهدلت اليمامات في الظلّ، فيمـا راحـت تتراقص الأوراق اليابسة، مزوبعةً في هجير الظهيرة. وكان راعٍ فتًى يغفو حالمًـا تحت ظلّ شجرة "البانيان". فاستلقيتُ، أنا أيضًا، عند ضفّة السـاقية، باسـطًا أعضائي المكدودة فوق العشب.

سخر منّي رفاقي. واشرأبّت أعناقهم ازدراءً، وحثُّوا الخطـى، معرضـين عـن الراحة، وغير ملتفتين إلى الوراء، إلى أن تواروا عن الأنظار، في غمام الأُفق القصيّ.

جاسوا السهول والتلال، واجتازوا مناطق نائيةً غريبةً. هنيئًا لكم يـا أفـراد كتيبة البطولة، على الدرب المتمادي إلى ما لا نهاية...

استفزّني هزؤُهم، وهببتُ جالسًا، ولكنّني لم أتوفّق إلى جوابٍ على إهانتـهم، واستسلمتُ إلى راحة خزيٍ سحيقٍ، في ظلّ لذّةٍ مبهمةٍ.

وانبسطت على قلبي، متوانيةً، راحة الظلمة الخضراء، الموشّاة بالشمس، وأنستني سبب عنائي؛ وبلا صراعٍ، أطلقتُ لفكري العنان، في شعاب الظلال والأحلام.

وحينَ فتحتُ عينيَّ، أخيرًا، وأفقتُ من غفوتي، رأيتُكَ منتصبًا أمامي، غـامرًا سباتي ببسمتكَ، مع أنّي طالما توجّستُ خشيةً من وعثاء المسيرة، ومـن مشـقّة الكفاح في سبيل البلوغ إليكَ.

مَنْ سـواكَ؟

لقد تسلّل الربيع إلى داخلي، بأوراقه الخضراء وزهوره، وفيه انتشر، طيلـة الصباح، طنينُ النحلات، وعبثت الرياح الكسلى مع الظلال.

ومن صميم قلبي تفجَّر نبعٌ عذبٌ، استحمّت فيه عيناي المـذهولتان، مثلمـا يستحمّ الصباح بالندى، وارتعشت الحياة في كلّ أعضائي، مثلما تغنّـي أوتـار القيثارة.

هل أنتَ تهيم، وحيدًا، على شاطئ حياتي، حيث يصطخب المدّ، يـا عشـيق أيّامي الأبديّة؟

أحلامي تحومُ حولكَ نظير فراشاتٍ مضيئة الأجنحة.

أوَليسَ نشيدُكَ هو الذي أسمع صداه في لجّة كياني المدلهمّة؟

من، سواكَ، يستطيع الإمساك بطنين الساعات العجلى، التي تدوّي اليوم، في عروقي، ووقع الأقدام الجذلى التي ترقص في صدري، وجلبة حيـاةٍ صـاخبةٍ، ترتعش أجنحتها في كلّ كياني؟

على دروب المنبوذين

كنتَ قد أمسكتَ بيدي، وأجلستني على عرشٍ، إلى جانبكَ، على مرأى البشر أجمعين. فاعتراني، من ذلك، خوفٌ، وأمسيتُ عاجزًا عن الحركة والسير بمشيئتي الخاصّة، تداخلني الريبة والحيرة، لدى كلّ خطوةٍ، مخافة أن يلسعني الناس بأشواك نبذهم.

وها قد تحرّرتُ، أخيرًا.

لقد حلّت الضربةُ القاضيةُ، ودوّى بوق الإهانة، وهوى عرشي في الرغام، وانبسطت دروبي أمامي.

وها إن جناحيَّ ينفتحان توقًا إلى السماوات، وها إنّي ماضٍ للالتحاق بالشهب السابحات في منتصفات الليالي، وللغوص في خضمّ العتمة السحيقة.

سأُحاكي سحابةً تتقاذفها عاصفة الصيف التي جُرِّدت من إكليل نورها الذهبيّ، وأسلطت سيف صاعقتها على سلسلةٍ متوهِّجةٍ.

بفرحٍ يائسٍ أعدو على درب المنبوذين المغبرّ، وأقترب، شيئًا فشيئًا، من لقياكَ السامية.

إنّ الطفل يلتقي أمّه حين يغادر أحشاءها.

وأنا، لأنّني فُصِلتُ عنكَ، وأُلقيَ بي بعيدًا عن عتباتكَ، بِتُّ حرًّا، متأهِّبًا لتأمّل وجهكَ.

بُرعـمُ حبّي

أَعلم أنّكَ تسمعُ وتحصي خطواتي، ليلَ نهارَ،
وتراقبُ دربي، في الفرح وفي القلق.
فرحُك يتفتّحُ مع انبثاق نهار سماء الخريف،
وينهمر في نشوةٍ جامحةٍ، وفي إعصار إزهارٍ.
كلّما اقتربتُ منكَ، مكتشفًا ومتعرّفًا دربًا إثر دربٍ،
يتعاظم فرح رقصة يَمِّكَ، بقرب دربي،
ومن حياةٍ إلى حياةٍ تتفتّح زهرة اللوتُس، في بحيرة نفسي،
وتبسط شراعها، رويدًا، رويدًا.
ولذلك تدور الشموس حول زهرة اللوتُس التائهة إعجابًا ودهشةً،
عالمك هو انبثاقٌ مضيءٌ، ملءَ راحتك الإلهيّة،
وسماؤك الخجول، لا تنفكُّ تغازل سمائي الصغيرة الخفيّة.
وتفتح، وُرَيْقةً فوُريْقةً، برعمَ حبّي.

في رقّة الصباح

بمحض الصدفة، فتحتُ نافذةَ نفسي عليكَ،
مُغْفلاً كلَّ أعمالي، في رقّة الصباح العذبة.
وشرَدتْ نظراتي، فاكتشفتُ أنّك دوّنتَ، على كلّ زهور الربيع وأوراقِه،
اسمي، الاسم الذي تدعوني به تحبُّبًا.
ولذلك سرّحت نظراتي الشاردة، في عذوبة الصباح، ذاهلاً عن كلّ أعمالي.
وبصدفةٍ صرفٍ، طارت أسراب أناشيدي صوب نشيدك،
فاكتشفتُ أنّ نشيدي بأكمله كان مثقلاً بنور الصباح،
من خلال أناشيدك،
ولكأنّ حياتي وحدها تملأ عالمك موسيقى.
فلعلّني أتعلّم أناشيدك، وأنا قابعٌ عند قدميكَ.
لذلك كانت نظراتي شاردةً، في رقّة الصباح،
وكنتَ ذاهلاً عن كلّ أعمالي.

أناشيد "كبير"

من هو "كبير"؟

"كبير" هو أحد ألمع الوجوه الصوفيّة، في الهند.

وُلد في مدينة "بيناريس"(Benarès)، نحـو العـام ١٤٤٠، مـن والـدَيْن مسلمَيْن، وتتلمذ على يد الصوفيّ الهندوسيّ الشهير "رامانندا"(Ramananda).

وقد نجح في التوفيق بين تيّاراتٍ صوفيّةٍ متعدّدةٍ، مستلهَمةٍ من دياناتٍ مختلفةٍ. وفي هذا التوفيق، وفي مقاومته كلَّ نزعةٍ إلى إقصاءِ أيِّ دينٍ مختلفٍ، يثوي سـرُّ عبقريّته.

وقد خلّف "كبير" أناشيد رائعةً تقرن أسمى التوثّبـات الصـوفيّة، بشـعورٍ شخصيٍّ بالحضور الإلهيِّ، وباستخدامه رموزًا مستوحاةً من عقائد دينيّةٍ متعدّدةٍ.

وقد آمن وأعلن أنّ الله لا يسكن لا في معبدٍ، ولا في جامعٍ، بل في قلب كلِّ مَن ينشدُه، صادقًا. وكلّفه هذا الانفتاحُ الشامل نقمةَ المسـلمين والهندوسـيّين المتشدّدين، على السواء.

كتب "كبير" أناشيدَه باللغة "الهنديّة"، وقام الشاعر الهنـديّ Mohan Sen Kahiti، بترجمتها إلى اللهجة البنغاليّة، وأسهم ربندرانات طاغور بترجمتـها إلى الإنكليزيّة.

من هذه المجموعة التي بلغت ١١٦ قصيدةً انتقينا الباقـة الـتي نوردُهـا في الصفحات التاليات.

- ١ -

أين تبحثُ عنّي، يا خادمي؟ انظُرْ: ها أنذا إلى جانبكَ!

أنا لستُ في الهيكلِ، ولا في الجامعِ، لا في مزارِ مكَّـةَ، ولا في مقـام الآلهـة الهندوسيّةِ.

أنا لستُ في الطقوسِ والاحتفالاتِ، ولا في النسكِ وتقشُّفاته.

إن بحثتَ عنّي، صادقًا، فستجدني في الحالِ، وستحينُ لحظةُ التقائنا.

يقول "كبير": "أيُّها القدّيس، إنّ اللهَ هو نسمةُ كلِّ ما يتنفسُ".

- ٢٧ -

رحمةُ سيِّدي الحقيقيِّ هي جعلتْني أعرفُ المجهولَ.

منه تعلّمتُ السيرَ بلا رجلَيْن، والرؤيةَ بلا عينَيْن، والسـماعَ بـلا أُذنَـيْن، والشُّربَ بلا شفتَيْن، والطيرانَ بلا جناحَيْن.

ففي البلادِ التي لا شمسَ فيها ولا قمرَ، ولا ليلَ ولا نهارَ، أحببتُ وتأمّلتُ.

ومن غير اطِّعامٍ تذوَّقتُ عذوبةَ الكوثر، وبلا ماءٍ رويتُ عطشي.

الفَرَحُ المقتَسَمُ هو ملءُ الفرح. ولمن يمكن تفسيرُه؟

يقول "كبير": "سيّدي أعظمُ من العوالم، وعظيمٌ هو نصيبُ تلميذِه".

- ٣ -

يا صديقي، أثناءَ حياتِكَ ضع فيهِ رجاءَك، وأثناءَ حياتِكَ اعرفْــهُ وافهمْــه، فالخلاصُ يتحقّقُ أثناءَ الحياة.

إن لم تحطِّمْ قيودَكَ في حياتِكَ، فأيُّ رجاءٍ لك بتحطيمها في الموت؟

إنّه لباطلٌ الزعمُ بأنّ النفسَ ستتّحدُ به بمجرَّدِ هجرها الجسد.

بل إن عثرنا عليه الآن، سنعثرُ عليه لاحقًا.

وإلاّ فسنلبثُ في مدينة الموتِ.

وإنْ اتّحدتَ به حاضرًا، ستتّحدُ به أبديًّا.

فغُصْ في لجّةِ الحقيقةِ، واعرف المعلِّمَ الحقيقيّ، وآمن باسمه الحقِّ.

يقول "كبير": "إنّ روحَ البحث هو الذي يغيثُنا، وأنا عبد هذا الروح".

- ٢٥ -

يتوارى سيّدي، وبروعةٍ يعتلنُ.

بقسوةٍ سَجنَني سيّدي، وسيّدي هو الذي فكَّ قيودي.

إنّه يخاطبُني بعباراتِ حزنٍ وعباراتِ فرحٍ، ويلطِّفُ التناقضاتِ.

سأُقدِّمُ لسيِّدي جسدي وروحي،

وسأوثر بذلَ حياتي على نسيانِ سيِّدي.

– ٦ –

القمرُ يُشعُّ في داخلي، ولكنّ عينيَّ تعميان عن رؤيته.
القمرُ فيَّ، مثلما الشمسُ فيَّ.
إنّ طبلَ الأبديّةِ يُدوِّي فيَّ من غير أن تقرعَه الأيدي،
ولكنّ أُذنيَّ الصمّاوَيْن تعجزان عن سماعِه.
فطالما نشدَ المرءُ "أناه"، ومقتناه الخاصَّ، ستظلُّ أعمالُه صفرًا.
ولكن عندما يموتُ كلُّ حبٍّ للأنا، وللمقتنى الخاصِّ، يتحقّقُ عملُ الله.
لا غايةَ للعمل سوى المعرفةِ، وعندما تتمُّ المعرفةُ، يُهمَلُ العملُ.
الزهرةُ تتفتّحُ كي تنجبَ الثمرةَ، وعندما تنضجُ الثمرة تذبلُ الزهرةُ.
والأيِّلُ يحتوي المِسْكَ، ولكنّه لا ينشدُه لذاتِه، بل يهيم بحثًا عن العشبِ.

– ٤٣ –

يُضحكُني سماعُ أنّ السمكةَ في الماءِ عطشى.
ولكن، ألا ترى أنّ الواقعَ هو في بيتِكَ، وأنت هائمٌ، من غايةٍ إلى غايةٍ، لامباليًا؟
الحقيقةُ بين يديكَ. اِمضِ حيثُما تشاءُ، فإن لم تجِدْ نفسَك، سيظلُّ لك العالمُ لاواقعيًّا.

- ٩ -

يا للّفظةِ السرّيّةِ!
وكيفَ لي أن أتفوّهَ بها؟
وأنّى لي أن أعلنَ: هو ليس هكذا، بل هو هكذا؟
إن قلتُ إنّه فيّ، سيخجلُ الكونُ من قولي،
وإن أنكرتُ أنّه في داخلي، لكذبتُ.
فهو قد جعلَ من العوالمِ الخارجيَّةِ والداخليّةِ وحدةً لا تتجزّأُ.
الوعيُ واللاوعيُ كلاهما موطئٌ لقدَمَيْه.
هو ليس ظاهرًا، ولا هو خفيٌّ، لا هو معلنٌ ولا هو مكتومٌ.
وما من كلمةٍ تعرِّفُه.

- ١٠ -

لقد اجتذبتَ قلبي إليكَ، يا "فقير"!
كنتُ نائمًا في حجرتي، فأيقظني صوتُك الفاتنُ، يا "فقيرُ".
كنتُ غارقًا في لجّةِ هذا العالمِ، وأنت خلّصتَني، وانتشلتَني، وكان ذراعاك سندي.
كلمةٌ واحدةٌ منكَ، لا كلمتان، حطَّمت قيودي.
يقول "كبير": "لقد جعلتَ قلبي وقلبَك واحدًا، يا "فقير".

- ١٧ -

أنوارُ الشمسِ والقمرِ والنجومِ تشعُّ بأَلَقٍ ساطعٍ، وأنغامُ الحبّ لا تني تتصاعدُ أعلى، فأعلى، على إيقاعِ الحبّ الطاهرِ، والجوقةُ الموسيقيّةُ تملأُ الأجواءَ، ليلَ نهارَ.

و"كبير" يقولُ: "إنّ حبيبي الوحيدَ يبهرني مثلَ برقِ السماءِ".

هل تعرفون كيف تعبِّرُ اللحظاتُ عن عبادتها؟

إنّ الكونَ يُنشدُ له ويعبدُه، ليلَ نهارَ، بإشهاره دائرة أنواره، حيثُ تتوارى أعلامُ السماء وزخارفُها،

وترنُّ أجراسٌ غيرُ مرئيّةٍ.

"وحيثُ لا تتوقّفُ العبادةُ أبدًا، وحيثُ ربُّ الكونِ جالسٌ على عرشِه"، على حدِّ قول "كبير".

العالم بأجمعه دائبٌ على عملِه، مرتكبًا الأخطاءَ، ولكن ما أندرَ العشّاقَ الذين يعرفون الحبيبَ! مثلما تختلطُ مياهُ "الغانج" و"الجمنا"[١]، هكذا يمتزج في قلب الباحثِ الورعِ تيّارا الحبِّ والتضحية.

وفي قلبِه يتدفّقُ الماءُ المقدّسُ، وتكتملُ دائرةُ الولاداتِ والوفيّاتِ.

انظروا ما أروعَ الراحةَ الكامنةَ في الروحِ الأسمى، والتي يتمتَّعُ بها الباحثُ عنه!

إنّ أُرجوحةَ محيط الفرح المربوطةَ بحبالِ الحبّ، تروحُ وتجيءُ، مفجّرةً الأناشيد.

[١] "الغانج" هو نهرٌ كبيرٌ يجري غربيَّ الهند، و"الجمنا" أحد روافده.

وانظروا أيّة نبتةِ "لوتُس" تُزهرُ هنا، بلا ماءٍ،
و"كبير" يقول: "إنّ نحلةَ قلبي تمتصُّ رحيقَها".

ما أروعَ "اللوتُس" الذي يزهرُ في قلبِ مغزلِ الوجود، والتي لا تتذوّق لذّاتِها إلاّ حفنةٌ من النفوسِ الطاهرة!

الموسيقى تصدحُ في كلِّ جنباتِ الجوارِ، والقلبُ يقاسمُ البحرَ اللامحدودَ فرحَه.

و"كبير" يقول: "عليكَ بالغوص في محيطِ العذوبة هذا، راميًا، بعيدًا، كلّ تُرّهاتِ الحياةِ والموت.

انظرْ كيفَ ارتوى، هنا، ظمأُ الحواسِّ الخمسِ، وتلاشتْ أشكالُ البؤسِ الثلاثةُ.

يقول "كبير": "إنّها رياضة الذي لا يُطالُ. حدِّقوا إلى الداخل، وشاهدوا كيف تتألّقُ أشعّةُ قمر الله فيكم!".

هنا يُعزَفُ نَغَمُ الحياةِ والموتِ.
وهنا تتفجّرُ الدهشةُ، والجوُّ متلألئٌ بالأنوارِ.
هنا تصدحُ موسيقى سرِّيَّةٌ: إنَّها موسيقى حبِّ العوالم الثلاثةِ.
هنا تُشعُّ ملايين مصابيحِ الشمسِ والقمر،
هنا يدوّي الطبلُ، والعاشقُ يلهو على أُرجوحةٍ.

هنا تصدحُ، من كلِّ جانبٍ، أناشيدُ الغرام، وينهمرُ النورُ مدرارًا، وتتلمَّظُ العبادةُ، مذهولةً، عذوبةَ كوثرٍ سماويٍّ.

انظروا إلى الحياةِ والموت: لم يبقَ بينهما أيُّ انفصالٍ، بل مثلما لكلٍّ من اليد اليُمنى واليد اليُسرى كيانُها الخاصُّ، ومع ذلك هما متماثلتانِ.

يقول "كبير": "إنّ الحكيمَ يلتزمُ الصمتَ، لأنّه يتعذّرُ العثورُ على الحقيقةِ، لا في الكتب، ولا في آياتِ "الـڤـيدا"[١].

لقد اتّخذتُ مكانًا في توازنِ الواحد الأحدِ المتناغمِ،

وارتويتُ بكأسِ الذي لا يُحيطُ به وصفٌ،

وعثرتُ على مفتاحِ السرِّ،

وبلغتُ أساسَ الاتّحادِ العظيم.

رحلتُ بلا مخطّطٍ، وبلغتُ البلادَ بلا وجعٍ، وبرفقٍ حلَّتْ عليَّ نعمةُ الربّ العظيم.

العالم يُنشد لله اللامحدودِ، ولكأنّه متعذّرُ المنالِ، ولكنّني، أنا، في تأمّلاتي، وبلا عينيَّ، رأيتُه.

إنّه في بلادٍ لا عهدَ لها بالألم، ولا أحدَ يعرف إليها السبيلَ.

وحدَه من انتهج هذا الدربَ تخطّى مطارح الوجع.

رائعةٌ تلك الديار التي لا يكفي أيُّ مبلغٍ ثمنًا لها.

الحكيمُ هو الذي يراها، وهو الذي ينشِدُ لها.

هذا هو القولُ الحاسمُ، ولكن كيف يمكنُ التعبيرُ عن نكهتِها الرائعة؟

وحدَه من تذوَّقها مرَّةً يعرفُ أيَّ فرحٍ تقطرُ.

يقولُ "كبير": "عندما يعرفُها الجاهلُ يُصبح حكيمًا، والحكيمُ أبكمَ، في عبادةٍ صامتةٍ، وهو ثملٌ ثملاً كاملاً.

حكمتُه وتجرّدُه يكتملان،

وهو يرتشفُ كأسَ إلهاماتِ الحبِّ وتوثُّباتِه".

هناكَ السماءُ تضجُّ أنغامًا، والموسيقى تصدحُ بلا وترٍ ولا أصابعَ.

---

[١] "الـڤيدا" تعني، حرفيًّا، المعرفة. وتُعرَّف بها مجموعة النصوص المقدّسة الهندوسيّة.

هناك لعبةُ الفرح والألم لا تنتهي.

يقول "كبير": "عندما تغوصُ في محيط الحياة، تحيا في بلادِ السعادة القصوى".

كم من نشوةٍ جامحةٍ في كلّ ساعةٍ! إنّ العابدَ يعتصرُ ويرتشفُ الساعات، ويحيا حياة "براهما".

إنّي أقولُ الحقيقة لأنّني تقبّلتُها في حياتي، وأنا، الآن، متشبِّثٌ بها، بعد أن أقصَيْتُ عنّي كلّ رنّانٍ زائفٍ.

يقول "كبير": "هكذا يتحرَّرُ العابدُ من كلِّ خوفٍ، وتهجره كلُّ الأفكارِ الخاطئة عن الحياةِ والموت".

هناك السماءُ تمتلئُ موسيقى، وتُمطر كوثرًا.

أوتار القيثارة تنبضُ، والطبولُ تدوّي.

ويا لبهاءِ قصر السماء السرّيّ، حيثُ لا شروقَ للشمس ولا غروبَ!

ففي محيط وحيِ نور الحبِّ، يُصبحُ النهارُ والليلُ واحدًا.

هناكَ فرحٌ أبديٌّ: لا ألمَ ولا صراعَ،

هناك رشفتُ كأسَ الفرحِ، الفرحِ الكاملِ، مُتْرعةً حتّى الجمام.

هناك لا مكانَ للخطأ.

يقول "كبير": "هناك شهدتُ ظواهر السعادة الفريدة.

لقد عهدتُ، في ذاتي، لعبةَ الكون، ونجوتُ من أخطاءِ العالم،

وأصبح الباطنُ والظاهرُ لي سماءً واحدةً، واتّحد اللانهائيّ والنهائيّ، وانتَشيْتُ برؤية الكلّ.

لقد ملأ نورُكَ الكونَ، فهو مصباحُ الحبّ، الذي يُضيءُ هضبةَ المعرفة.

يقولُ "كبير": "هناك لا سبيلَ لتسلّلِ الخطأ، ولا وجود لصراعِ الحياةِ والموت".

- ٢٠ -

أيَّ شاطئٍ تقصدُ، يا قلبي؟ فما من مسافرٍ يتقدَّمُكَ، ولا طريقَ أمامَكَ.

أين العملُ، وأين الراحةُ على هذا الشاطئ؟ فما من ماءٍ، ولا من مركبٍ، ولا يُشاهَدُ أيّ بحّارٍ.

بل لا حبلٌ يجرُّ المركب، ولا إنسانٌ يدفعُه.

ولا وجودَ لأرضٍ ولا لسماءٍ، ولا لنهرٍ ولا لضفّةٍ.

وما من جسدٍ، وما من روحٍ.

فأين يتسنّى لكَ إرواءُ عطشِ روحكَ؟

لن تجدَ في هذا العدم شيئًا.

فتقَوَّ، وعُدْ إلى ذاتِك، حيث ستكونُ على أرضٍ صلبةٍ.

وتَبَصَّرْ، يا قلبي! ولا تفزعْ إلى الخارج،

يقول "كبير": "دعْ عنكَ كلّ تخيُّلٍ، وثبِّت ذاتَك في ما أنت!".

- ٧٠ -

يقول "كبير": "تبرَّكْ بقدمَيْ من هو واحدٌ لا يتجزّأ، ولا يتبدَّلُ، الهادئُ الذي يُترِعُ فرحًا، حتّى الجمام، الآنيةَ الأرضيّةَ التي ترتدي شكل الحقِّ".

- ٣٣ -

...

رَبُّكَ في داخلِكَ. فعلامَ تحدِّقُ إلى العالمِ الخارجيِّ؟

- ٣٤ -

...

كما تنسابُ الساقيةُ إلى المحيطِ، كذلك ينسابُ قلبي إليكَ، يا ربّ.

- ٣٧ -

...

إنّ معركةَ الباحثِ عن الحقيقةِ تتواصل بلا انقطاعٍ، ليلَ نهارَ، ولا تتوقَّف طالما ظلَّ على قيد الحياة.

- ٤١ -

...

خيرُ فعلٍ هو الاتّحادُ باللهِ.

منذ يومِ التقيتُه، لم تتوقّفْ تفاعلاتُ الحبِّ بيننا.

أنا لا أُغمض عينيَّ، ولا أسدُّ أُذنيَّ، ولا أُميتُ جسدي،

بل أنظُرُ بعينيَّ المحدِّقتَيْن، وأبتسمُ، وأتأَمّلُ جماله في كلِّ مكانٍ،

أُتمتمُ اسمَه، وكلُّ ما أراه يحدِّثني عنه:

أعمالي كلُّها أقدِّمُها عبادةً لإلهي.

تساوى لي الفجرُ والغسَقُ،

وانتفت لديَّ التناقضاتُ.

حيثُما أمضي لا أتحرَّك إلاّ به،

وكلّ ما أُنجزُه هو خدمةٌ له.

عندما أرقدُ، فإنّي أخرُّ عند قدمَيْه.

إنّه الوحيدُ الجديرُ بالعبادةِ، في نظري، ولستُ أعرفُ آخر جديرًا بها.

لقد أقْلَعَ لساني عن التفوُّه بأقوالِ نجاسةٍ، وهو يلهجُ، ليلَ نهارَ، بتمجيدِهِ.

إن جلَستُ أو وقفتُ، لا أستطيع أن أنساه، لأنّ إيقاعَ نشيدِهِ يقرعُ أُذنيَّ.

يقول "كبير": "قلبي ملتهبٌ بفرحٍ جامحٍ، وها إنّي أكتشفُ كلّ الأسرار الكامنة في نفسي.

وإنّي غارقٌ في سعادةٍ تتخطّى كلّ فرحٍ، وكلَّ وجعٍ".

- ٤٩ -

يقولُ "كبير":

من وجدَ الحبَّ والتضحيةَ معًا، لا يهوي إلى الموتِ أبدًا.

- ٥٤ -

يقولُ "كبير":

سواءٌ كنتُ في المعبَد، أو على شرفةِ منْزلي، في مخيَّمٍ أو في حديقةٍ ملأى بالزهور، أقول لكم حقًّا: "في كلِّ لحظةٍ، يجد سيّدي متعتَه فيَّ".

- ٦٠ -

إنّ عذوبةَ الإبحارِ في محيطِ الحياةِ الخالدةِ قد حرّرَتني من كلّ الأسئلةِ الباطلة.

فكما أنّ الشجرةَ كامنةٌ في البذرةِ، كذلك كلُّ الشرور ثاويةٌ في الطلباتِ الباطلة.

- ٦١ -

عندما تعثرُ، بعدَ لأيٍ، على محيطِ السعادةِ، لا تنأَ عنه وأنت عطشانٌ.
إصحَ، أيُّها الأحمقُ، فالموتُ يتربّصُ بكَ. ها إنّ الماءَ أمامَكَ، فاهْلْ منه حتّى تكلَّ من الشرب...
ولا تطارِدْ السرابَ، بل فليكُنْ فيكَ ظمأٌ دائمٌ إلى الكوثر.
القدّيسون هم سكارى الحبِّ، وهم، أبدًا، في ظمإٍ إلى الحبِّ،
يقول "كبير": "اسمع يا أخي: لقد حُطِّمَ حاجزُ الخوفِ،
وأنتَ لم تقابِلْ، لحظةً واحدةً، العالَمَ، وجهًا إلى وجهٍ.
إنّكَ بالزيفِ تنسجُ عبوديَّتَكَ، وأقوالكَ زاخرةٌ بالخداع.
ومع وقرِ الشهوات التي تُثقِلُ رأسَكَ، كيف لكَ أن تكون رشيقًا؟".
ويقولُ "كبير" أيضًا: "اِحرصْ على الحقيقةِ، وعلى روحِ التضحيةِ والحبِّ"

- ٧٢ -

ضاعت الجوهرةُ في الوحلِ، والجميعُ راغبونَ في العثورِ عليها. بعضُهم يبحثون عنها هنا، وآخرون يبحثون في جهةٍ أُخرى. بعضُهم يرونها في الماءِ، وآخرون يرونها بين الحجارةِ،
ولكنَّ التلميذَ "كبير"، الذي يُثمِّنُها حقّ قدرها، قد لفَّها بعنايةٍ في قلبه، كما في هدبِ معطفِهِ.

- ٦٣ -

لِمَ يستَحوذُ القلقُ عليكَ، يا قلبي؟
فذاكَ الذي يرعى العصافيرَ، والبهائمَ، والحشراتِ،
والذي رعاكَ لّما كنتَ لاتزالُ في أحشاءِ أُمِّكَ
ألا يحفظُكَ الآنَ، وقد خرجتَ منها؟
ويا قلبي، كيف يسعُكَ أن تشيحَ عن بسمةِ إلهكَ، وتتيهَ بعيدًا عنه؟
لقد هجرتَ حبيبَكَ، وسعَيْتَ خلفَ آخرين، ولذلك عملُك هو باطلٌ.

- ٦٧ -

لستُ أدري من هو إلهي:
المؤَذِّن يصيحُ نحوَه. لِمَ؟ هل الربُّ أصمُّ، وهو الذي يسمعُ رنّاتِ أدنى حركاتِ سير الحشرةِ؟
حتّى إن كررتَ حبّاتِ سُبحتِكَ، ودمغْتَ جبينَكَ بعلامةِ إلهكَ، وارتديتَ أسمالاً طويلةً ملوَّثةً، لافتةً للأنظارِ،
فإن كانَ قلبُكَ يحتوي سلاحَ موتٍ، كيفَ لك أن تمتلكَ اللهَ؟

– ٦٥ –

... يقول "كبير": "من كانت أقوالُه طاهرةً، المنـــزَّهُ من الكبرياءِ والحسَـــدِ، فذاكَ يعرفُ اسم الله الحقيقيّ.

– ٨٨ –

هذا اليومُ غالٍ عليَّ بين الأيّامِ، ففي هذا اليومِ سيحلُّ ربّي الحبيبُ عليَّ ضيفًا.
وبحضورِه تتألَّقُ حجرتي، ويستنيرُ قلبي.
رغباتي الحارَّةُ تُنْشِدُ اسمَه، وتذوبُ في جمالِه اللامحدودِ.
إنّي أغسلُ قدَمَيْه، وأتأمَّل محيّاهُ. أمام شخصِه أسجُدُ، مقدِّمًا لـــه جســـدي، ونفسي، وكلِّ ما أملكُ.
يا له من يومِ فرحٍ، يومَ يطأُ بيتي حبيبي، الذي هو كنْـــزي!
عندما ألمحُ ربّي، تتلاشى من قلبي كلُّ الأفكارِ الرديئةِ.
هكذا ينشُد "كبير"، خادمُ جميعِ خدّامه: "لقد لامسَهُ حبّي، وقلبي سقِمٌ توقًـــا إلى اسمِه الذي هو حقيقةٌ".

- ٩٣ -

تحتَ مظلّةِ مليكي الكبيرةِ، تسطع ملايين الشموسِ والأقمارِ والنجومِ.
إنّه هو، روحُ روحي، وعينُ عيني.
آه! ليتَ روحي وعينيَّ تصبح واحدًا!
وليتَ حبّي يبلغ حبيبي!
وليتَ حُمّى قلبي الملتهبةَ تبردُ!
يقول "كبير": "عندما يتوحَّدُ الحبُّ والحبيبُ، حينئذٍ يبلغ الحبُّ الكمالَ".

- ٩٠ -

أين أمضي كي أتعلَّمَ معرفةَ ربّي الحبيب؟
يجيبُ "كبير": "لن تجدَ الغابةَ أبدًا، إن لم تعرفِ الشجرةَ. وهكذا لن تجـدَ الله أبدًا طالما كنتَ تبحثُ عنه، في أفكارٍ مجرَّدةٍ".

- ٩٧ -

الربُّ فيَّ، والربُّ فيكَ، مثلما هي الحياةُ في البذرةِ.
فيا خادمي، تخلَّ عن الكبرياءِ الباطلةِ، وابحثْ عن الربّ في الربِّ.
مليونُ شمسٍ تُشعُّ نورًا،
ومحيطٌ أزرقُ يَنبَسِطُ في السماءِ،
وحمّى الحياة تفتُر، وكلّ خطاياي تُغْسَلُ عندما أُقيمُ في قلبِ العالم.

أصغِ إلى أجراسِ الأبديّةِ وطبولها، وانعمْ بلذّةِ الحبِّ!
فالمطرُ يهمي بلا ماءٍ، والسواقي هي سيولُ أنوارٍ.
وحدَه الحبُّ الأسمى ينفذُ إلى صميمِ العالمِ،
وما أقلَّ العارفين بهذه الأمورِ!
عميانٌ هم الذين يزعمونَ رؤيتَها على ضوءِ العقلِ. فالعقلُ هو علّةُ الفُرقة.
إنّ قصْرَ العقل الأسمى بعيدٌ جدًّا.

وكم مباركٌ هو "كبير" الذي يستطيع، وسط الفرح اللامحدود، أن يُنْشِدَ، في ذاته، للقاء النفسِ بالنفس الكبرى، إنشادًا يحجب الألم، ويتخطّى كلَّ ما ينفذُ إلى داخلِنا، وما يصدرُ عنّا!

- الثوابت متعدّدةٌ، ولكن، الحقيقة واحدةٌ...!

- همَسَ النسيمُ لزهرة اللوتُس: "ما هو سرُّكِ؟"، فأجابتْ:
"هو ذاتي، فإِن سَلَبتَها منّي انتهيتُ".

- التماثلُ ليس وحدةً. المختلفون وحدَهم، باستطاعتهم أن يتّحدوا.

- الجبالُ: تطلُّع الأرض اليائسة، صوبَ ما لا يُطال.

- يزعمُ التزمّتُ حمايةَ الحقيقةِ، فيضمُّها بشدّةٍ تخنقُها.

- هجاءُ الكبارِ كفرٌ، لأنّه يؤذي الذات، وهجاءُ الصغارِ حقارةٌ، لأنّه يؤذي الغير.

- قد يغدو الضعيفُ مخيفًا، بسبب سعيه المسعور إلى إظهار قوّتِه.

- يُجيدُ الجمالُ قولَ: "كفى"، فيما البربريّةُ تجأرُ: "المزيد".

- في نظر العثّ الإنسانُ شاذٌّ وأحمقُ، لأنّه لا يلتهمُ الكتب!

- الله يبتغي بناء هيكله بالحبّ، والإنسان لا يقدّمُ إلاّ أحجارًا.

- ينشدُ الله أصدقاء، فيقتضي الحبَّ، وإبليسُ يبحث عن عبيدٍ، ويقتضي الخضوع.

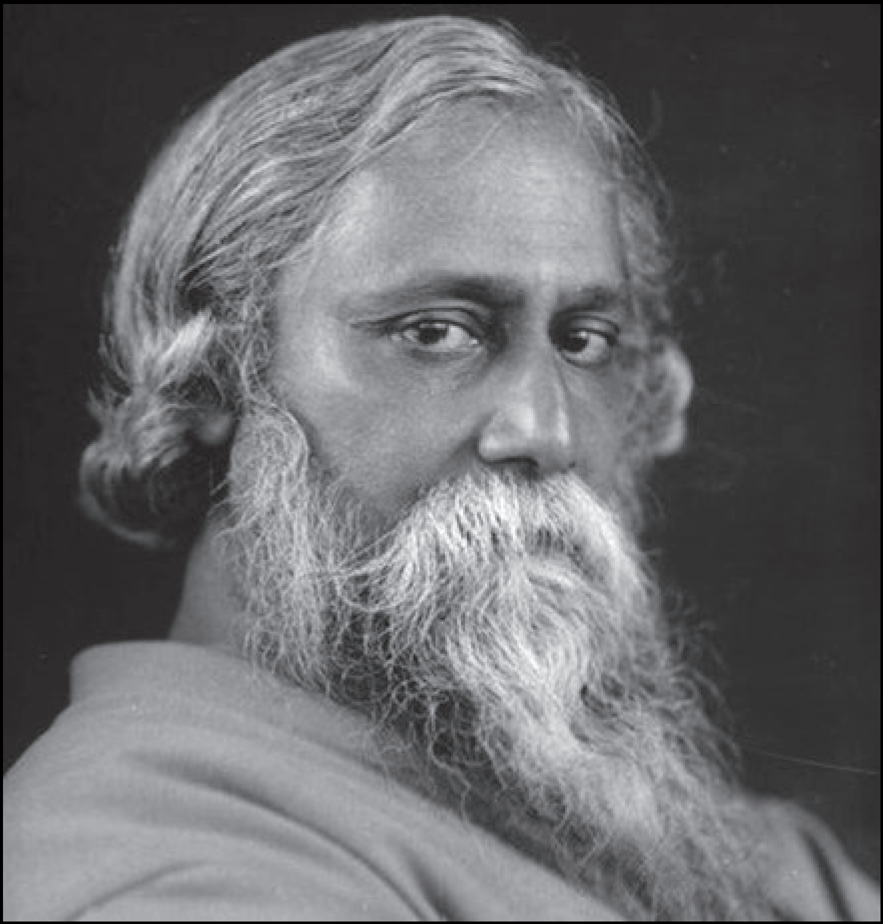

رابندرانات طاغور

والدا رابندرانات طاغور

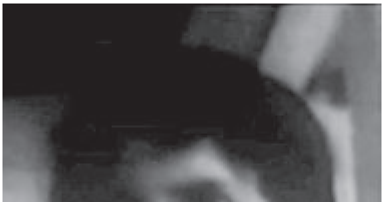

طاغور الطفل

طاغور مع عروسه مريناليني ديفي

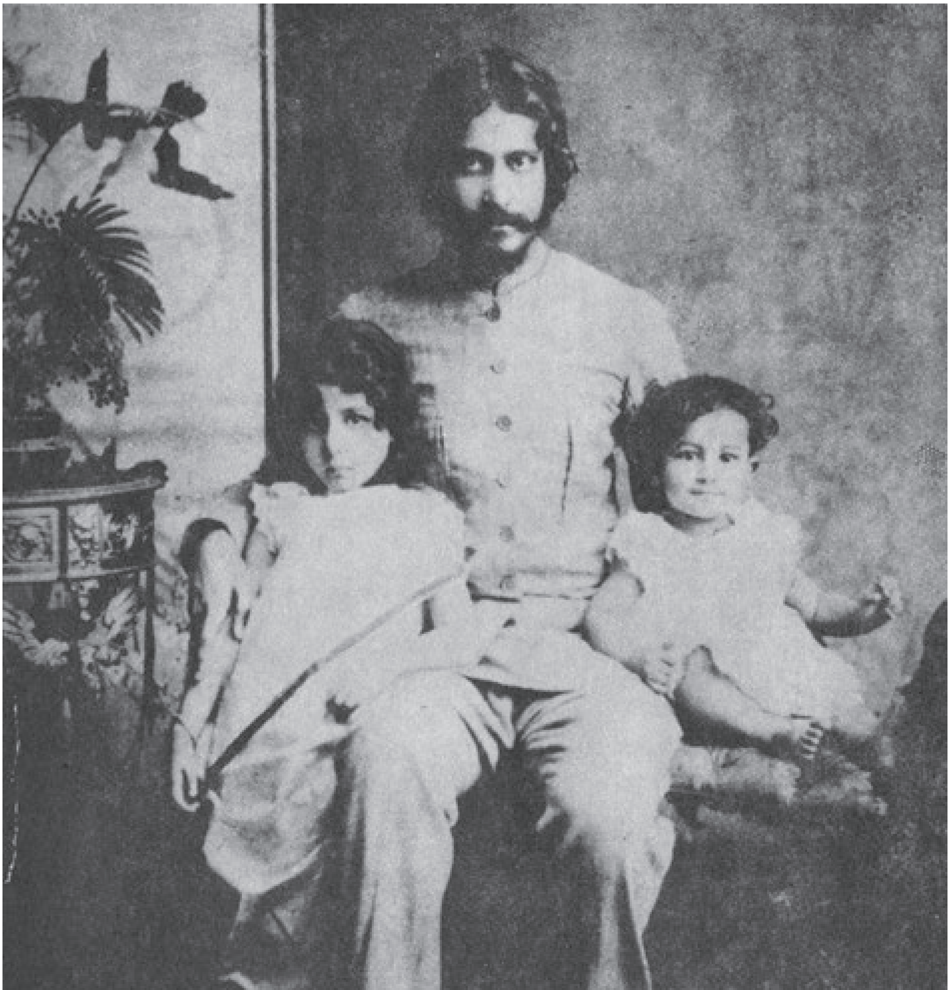

رابندرانات طاغور بين طفليه

Abode of Peace – منْـــزل السلام

في الرابعة والأربعين من عمره، في المكان الذي جعل منه والده استراحة الحجّاج إلى الهيمالايا. هنا، وبعد بضع سنواتٍ، سيُنشئ طاغور مركزَه التربوي "منْـــزل السلام"!

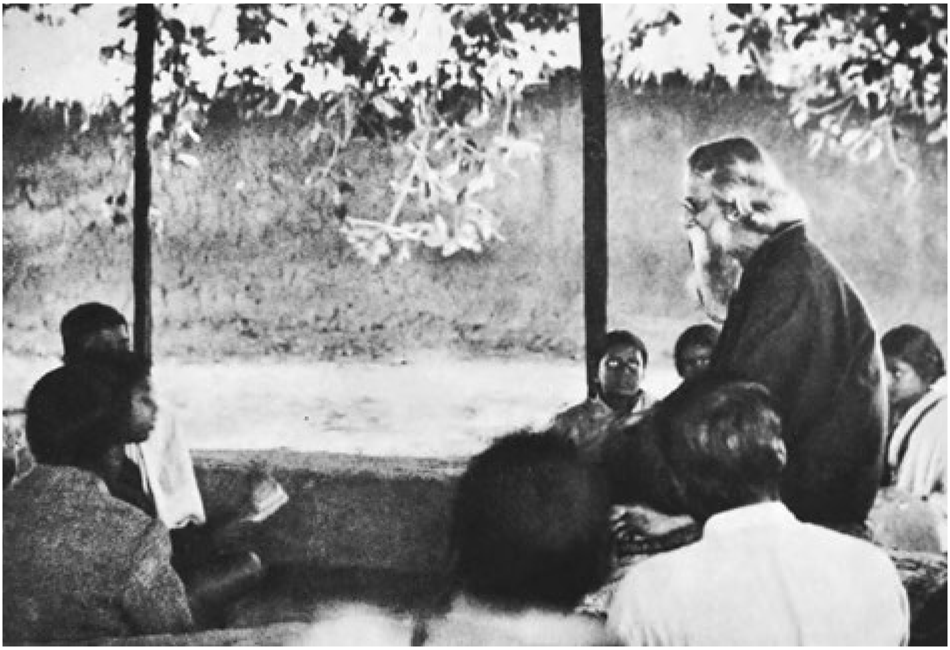

طاغور مع مجموعةٍ من التلاميذ، في المركز التربويّ الذي أسّسه – منْـــزل السلام.

المهاتما غاندي في ضيافة طاغور، في المركز التربوي في شانتينيكايتان – ١٩٤٠

طاغور في العشرين من عمره عام ١٨٨١، في دور فالميكي أثناء عرض مسرحيّته "رزانة الحكيم فالميكي" (Valmiki Prativa)، في بيته في كالكوتا.

بعد عرضٍ عائليٍّ لمسرحيّته (Phalguni) "دورة الربيع"، مع بعض الأقرباء والأصدقاء.

طاغور في دور المغنّي الأعمى في المسرحيّة نفسها، يعزف على آلةٍ وتريّةٍ هنديّةٍ.

طاغور في جنيف

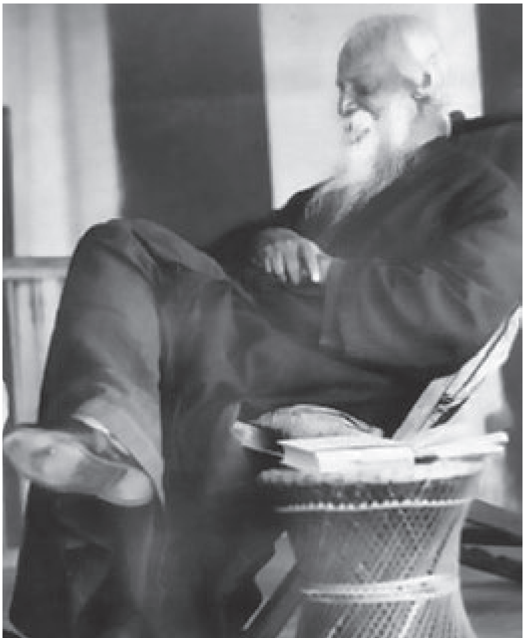

في هنغاريا، مع بعض المفكّرين والشخصيّات في عصره.

في زيارةٍ إلى العراق.

مع الشاعرة الأرجنتينيّة فيكتوريا أوكامبو

مع رسوماته ولوحاته...

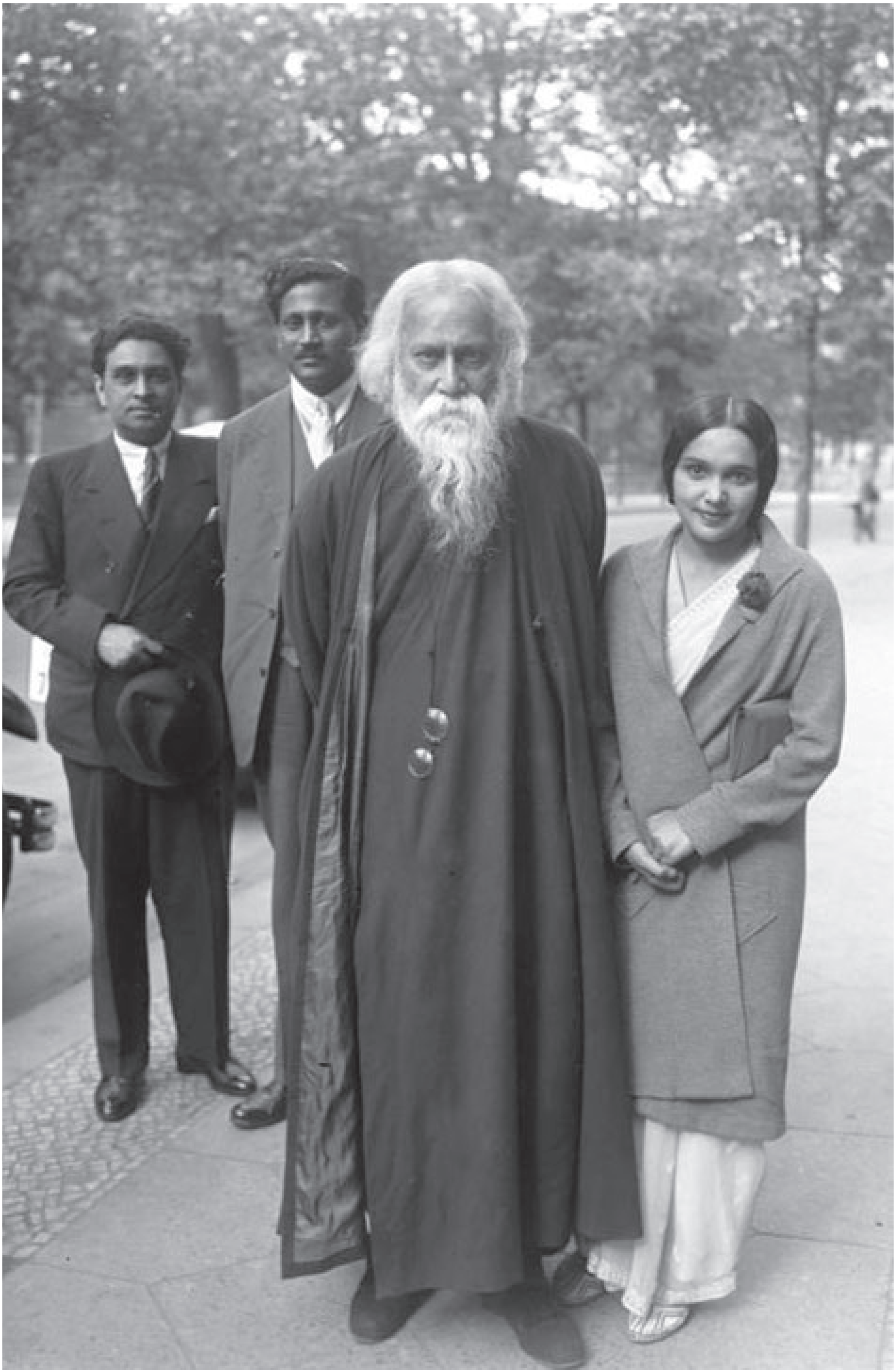

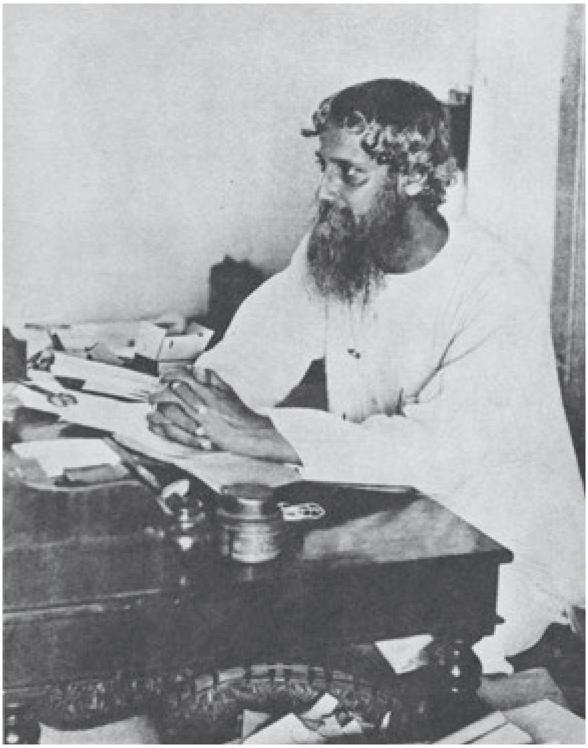

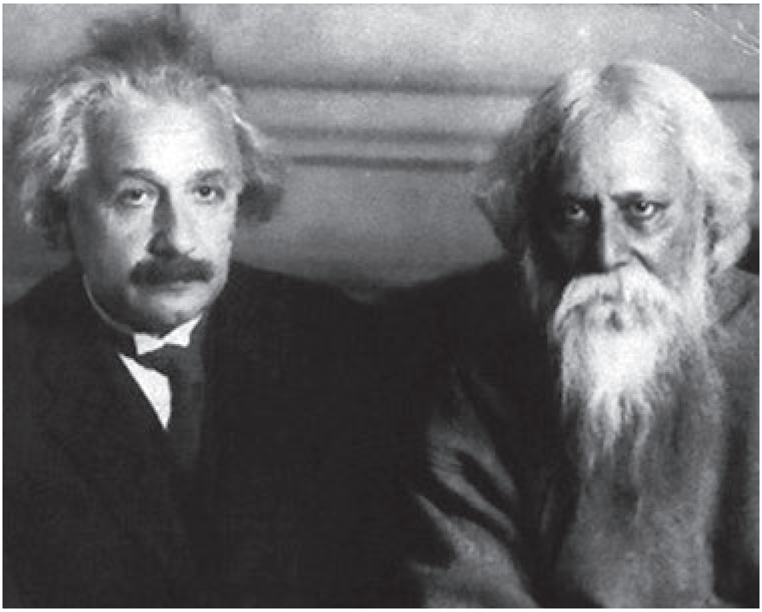

مع ألبير أينشتاين في ألمانيا.

مع هيلين كيلر

مع اللاهوتيّ الألمانيّ الشهير، "بول جيب"، عام ١٩٣٠.

مع المفكّر الفرنسي "رومان رولان"، في إحدى حدائق سويسرا، عام ١٩٢٦.

طاغــور في زيارةٍ إلى موسكو، وبعض المواطنين يحتشدون لتحيّته.

كما قــام بزيارةٍ إلى أحد مراكــزٍ مؤسّسة الأطفال المتفوّقين.

في عيد ميلاده السبعين، عام ١٩٣١.

رابندرانات طاغور في باريس

الجُزْءُ الثَّانِي

خواطرُ وحِكمٌ

من كتاب

"SÂDHANÂ"

من كتاب SÂDHANÂ[١]

الفرد والكون

– الإنسانُ الذي لا يعي الأواصرَ التي تربطُه بالعالم، يحيا ضمنَ جدران سجن العداوة. ولكنّه، عندما يتبيَّن، في كلّ شيءٍ، الروحَ الأزليّ، يتحرّر، ويكتشف ملء معنى الوجود الذي خُلِقَ فيه، فيقيم في الحقيقة المطلقة، ويكتمل تآلفُه المتناغم مع الكون.

* * *

– في الهند، كانت الغاباتُ هي ملجأ البرابرة، وأمست معابدَ الحكماء. أمّا إنسانُ أميركا فلم يتوقّف في قراءة المعنى العميق لتلك الكاتدرائيّات الحيّة الجليلة المنتشرة في الطبيعة، بل رأى فيها مصدرَ ثروةٍ وقوّةٍ. ربّما حدت بعضَهم الحاجةُ إلى الجمال، فاستمدّوا منها بعضَ متعةٍ، أو كانت منبعَ وحيٍ لشاعرٍ منعزلٍ، إلاّ أنّ قلب الجموع لم يجد، قطّ، السبيلَ إلى علاقة مصالحةٍ روحيّةٍ كبرى، تلتقي، من خلالها، النفسُ البشريّةُ بالنفس الكونيّة.

* * *

– حكماء الهند الروحيّون، المدعوّون "ريشي" (Rishis)، هم الذين بلغوا في المعرفة، سُموَّ النفس، وامتلأوا حكمةً، فاتّحدت بها نفوسُهم، على تناغمٍ تامٍّ مع ذاتهم الجوهريّة. لقد حقّقوا الحكمة في قلوبهم، وتحرّروا من كلّ رغبةٍ أنانيّةٍ، والتزموا الحكمةَ في كلّ نشاطات حياتِهم، وبلغوا سكونَ النفس. "الريشي" هم

---

[١] يمكن ترجمة هذه اللفظة بـ "مبادئ الحياة الروحيّة" أو "الحكمة".

الذين اتّصلوا، من كلّ جانبٍ، بالله الأسمى، وعثروا على السلام الثابت المنيع، واتّحدوا بكلّ كائنٍ، وانصهروا في حياة الكون.

* * *

– ليس الإنسان، في جوهره، عبدًا لذاتِه، ولا عبدًا للعالم، بل هو عاشقٌ. فحرّيّتُه واكتماله يكمُنان في الحبّ، والحبُّ هو اسمٌ آخر للإدراك، وبفضل هذه القدرة على الفهم الذي يغمرُ كلَّ كيانه، ويتّحد بالروح الذي ينفذ إلى كلّ شيءٍ، والذي هو نسمة روحه.

* * *

– في سعيه وراء الثروة، يتخلّى المرءُ، واقعيًّا عن الكلّ، طمعًا في الظفر بالقليل، وليست هذه هي الوسيلة لبلوغ من هو كلُّ شيءٍ.

هذه الحقيقة لحظناها في تعاليم يسوع الذي يقول لنا: "إنّه لأيسرُ أن يعبرَ جملٌ من سمِّ إبرةٍ من أن يلجَ غنيٌّ ملكوتَ السماوات". وهذا يعني أنّ كلَّ ما نشتهيه، ونضنّ به، يفصلنا عن الغير. فما الثرواتُ لنا سوى حواجز. إنّ الإنسانَ الدائب على تكديس الكنوز يمثّلُ أنانيّةً لا تنفكُّ تنتفخُ، فيعجز عن اجتياز أبواب فهم العالم الروحيّ، أي عالم التناغم الكامل، لأنّه سجينُ أسوار مكاسبِه الصغيرة.

* * *

– لا يكتسبُ الإنسانُ حقوقَه، باحتلاله مزيدًا من المساحة، ولا بتصرُّفٍ خارجيٍّ. فحقوقُ المرءِ لا تنمو إلاّ بمقدارِ واقعيّتِه. ومقياسُ واقعيّتِه هو مقياس ضميره. ولكن لن ننالَ حرّيّةَ الضميرِ هذه إلاّ بأداء ثمنها. وما هو هذا الثمن؟ هو أن نتخلّى عن أنانا الصغير، فنفسُنا لا تحقّق ذاتَها إلاّ بإنكارِ ذاتِها. و"الأوپانيشاد" تقول لنا: "إنّك تتلقّى عندما تعطي."

* * *

– إنّ كلَّ جهدٍ في سبيلِ حياةٍ أوفر رحابةً يقتضي التلقّي من خلال العطــاء، وانتباذ كلّ اشتهاءٍ. وبذلك ينمو، تدريجيًّا، وعيُ الوحدة مع كلّ شـــيءٍ، ومــع الغاية التي يسعى إليها جهد الشبيبة.

الاتّحادُ الحقيقيُّ مع الكلّ، بالمعرفة، والحبّ، والخدمة، ومن ثمّ تحقيق الــذات في الله الحاضر في كلّ مكانٍ: هذا هو جوهرُ الخير.

* * * * *

الوجدان والنفس

– بقوله: "طوبى للودعاء لأنّهم يرثونَ الأرض"، أكّــد يســوع حقيقــةَ أنّ الإنسان ينالُ إرثَه الشرعيّ فقط عندما يتحرّر من كبرياء الأنا، لأنّــه لا يعــود ملزمًا بالدفاع عن موقعه في العالم، فهذا الموقع مضمونٌ في كلّ مكانٍ من خـــلال حقوق نفسه الخالدة. إنّ كبرياء الأنا تعيقُ عملَ النفس الطبيعيّ المتمثّل في تحقيق اتّحاده الكامل مع العالم، ومع إله العالم.

* * *

– عندما نعثرُ على صميم نفسنا بفضل سيطرتنا المنيعة على ذاتنا، وبقوّة تناغم جميع العناصر المتضاربة التي توحّد المتنابذات، تتحقّق، في الحبّ، جميع مشاعر قلبنا العابرة، وتنجلي أصغر تفاصيل حياتنا عن هدفٍ وغايةٍ لا حدود لهما. وتتّحد كلّ خواطرنا، وكلّ أعمالنا في تناغمٍ داخليٍّ كبيرٍ، اتّحادًا لا فكاك له.

* * *

– إنّ غايةَ الإنسانِ الوحيدة هي العثورُ على الوحيد الثاوي في ذاته، والذي هو حقيقتُه، وروحُه، والمفتاح الذي يُشرِع أبواب الحياة الروحيّة والملكوت السماويّ.

* * *

– إنّ البحث عن الحقيقة في ميدان الطبيعة يتمّ من خلال التحليل وطُرُق العلم التي تتقدّم خطوةً خطوةً. ولكنّ نشدانَنا حقيقة نفسنا هو تلقائيٌّ، ويتمّ بالحدس المباشر. ولن يتسنّى لنا، أبدًا، النفاذ إلى النفس السميا، من خلال إضافاتٍ متعاقبةٍ، ومعارف تُكتَسَبُ قطعةً فقطعةً، ولو مدى الأبديّة. فالكائن الأسمى واحدٌ لا يتجزّأ، ولا يسعنا معرفته إلاّ بكونِه قلبَ قلبِنا، ونفسَ نفسنا. نستطيع معرفته فقط بالحبّ وبالفرح الذي ننعمُ به عندما نتجرّدُ عن كلّ ما سواه، ونشاهدُه وجهًا لوجهٍ.

* * *

– نحن بائسون لأنّنا أنانيّون، والأنانيّة متصلّبةٌ، ضيّقة الآفاق، لا تعكسُ أيّ ضوءٍ، وتبقى عمياء حيال اللانهائيّ. إنّ أنانيّتَنا تجأر بكلّ نشاز صيحاتنا، وليست هي القيثارة المضبوطة التي تصدح بموسيقى الخلود. إنّ آهات الحنق، وسأم الإخفاقات، وتحسُّرات الماضي الباطلة، وهواجس المستقبل، هذه كلُّها تُشيع الاضطراب في قلبنا السطحيّ، لأنّنا لم نعثر، بعدُ، على نفسنا، ولأنّ الروح الذي يعلن ذاتَه لم يعتلن بعدُ فينا. ولذلك نهتف: "أنت، أيّها الرهيب، خلّصنا ببسمةِ جمالِك، الآن وإلى الأبد". إنّ كبرياء الأنا تلفّنا بكفنٍ خانقٍ، وبشهواتٍ لا ترتوي، وبالممتلكات الباطلة، وبخيانات القلب الوقحة.

* * *

– إنّ أسمى اعتلان الإنسان هو اعتلان الله فيه. وهذا هو ما يدعوه تجلّي الله في نفسه. يصبح الإنسان كاملاً، عندما تتحقّق نفسه في الكائن اللامحدود.

* * *

– إنّ بؤسَ الإنسان الحقيقيّ يكمن في كونه منغلقًا إغلاقًا مُحكَمًا، محجوبًا

بأناه، هائمًا في سراديب رغباته، عاجزًا عن وعي ذاته في ما يتخطّى حدود شخصه، كيانُه الأسمى ممحيٌّ، وحقيقته غير محقّقةٍ، بحيث تتعالى من كلّ ذاتِه هذه الصلاة: "أنت، يا روح التجلّي، تجلَّ فيَّ".

* * *

– الخطيئةُ هي انحيازُ الإنسان إلى المحدود، وصدوفه عن اللامحدود الكامنِ فيه. إنّها هزيمةُ النفسِ أمام الأنا. إنّها لعبةٌ خطيرةٌ تفضي، دائمًا، إلى الخسارة، يقامرُ فيها الإنسان بالكلّ طمعًا في جزءٍ يسيرٍ. الخطيئةُ هي حجبٌ للحقيقة ولنقاء الضمير، بالخطيئة نصبو إلى ملذّاتٍ، لا لأنّها، حقًّا، جديرةٌ بالرغبة، بل لأنّ لهبَ أهوائنا الأحمر يُرغِّبُنا فيها. إنّنا نرغبُ في أشياء، لا لأنّها، في ذاتها، عظيمةٌ، بل لأنّ شهواتِنا تزيّنها لنا، وتُرينا إيّاها عظيمةً. هذه المغالاة التي تشوّه نظرتَنا إلى الأشياء، تحطّم، لدى كل خطوةٍ، تناغمَ حياتنا، فنخطئ معيار القِيَم الحقيقيّ، وتضلّلنا مزاعمُ المصالح الباطلة التي تتصارع في حياتنا. ومن جرّاء هذا الفشل في وضع جميع عناصر طبيعتنا تحت إدارة المطلق الأسمى الأوحد، يعتري المرءَ ألمُ الشعور بانفصاله عن الله، ويطلق هذه الصرخة: "يا الله، أيّها الآب، امحُ جميع خطاياي، وأعطِنا ما هو جيّدٌ، الخير الذي هو خبزُ نفسنا اليوميّ".

في ملذّاتنا نحن مسجونون داخل حدود ذواتنا، أمّا في الخير، فنحن محرّرون ونخصّ الجميع. وكما أنّ الجنين في أحشاء أُمّه يتغذّى من اتّحاد حياته بحياة أمّه الواسعة، كذلك لا غذاءَ لحياتنا إلاّ بالخير، والخير هو اعترافٌ بقرابتنا الداخليّة بالله، والقناة التي تصل نفسَنا باللامحدود المحيق بها والذي يرفدها بالحياة. ولذلك قال يسوع: "طوبى للجياع والعطاش إلى الحقّ، فإنّهم يشبعون ويرتوون".

* * *

– إنّ ملكَ الكون العظيم لم يُقيّد أنا الإنسان بظلِّ عرشه، بل أبقاه حرًّا. وعلى الإنسان أن يمجّد مليكه، في كيانه العقليّ والجسديّ، حيث هو مرتبطٌ بالطبيعة. ولكنّه، في أناه، هو حرٌّ بإنكار مليكه. وفي هذا الحيّز، يطلب إلهنا أن نتقبّله، فهو لا يأتي سيّدًا، بل يأتي ضيفًا، وينتظر دعوةً. لقد انتزع الله سيطرَتَه عن أنا الإنسان، لأنّه يأتيه كي يكتسبَ حبّه؛ إنّ قوّاتِه المسلّحة المتمثّلة في سُنَن الطبيعة، لا تتخطّى العتبة، بل وحدَه الجمال، رسول حبِّه، مرحَّبٌ به في المحراب.

لقد نأى الله عن أنانا. وفي هذا المجال لا حدود لصبره الساهرِ، وهو لا يُحطِّمُ أبدًا الأبواب التي توصَد دونَه. وعلى أنانا أن يبلغَ معناه الأقصى، أي النفس، لا بإكراه قدرة الله، بل بالحبِّ، بحيث يغدو واحدًا مع الله، في الحرّيّة.

* * *

– عندما تحقّق حياةُ الإنسان، المتحرّرةُ من كلِّ بعثرةٍ، وحدتَها، تعي اللامحدود، في الحال، وعيًا مباشرًا وتلقائيًّا، وتتّحدُ به اتّحاد اللهب بالنور، وتجد كلّ خلافات الحياة وتناقضاتها حلاًّ، وينصهر الحبّ، والعمل والمعرفة في تناغمٍ رحبٍ، ويندمج النعيم والألم في الحبّ. وتندمج المتعة والتجرّد في الطيبة والعطف، وتُردَم بالحبّ، الهوّةُ بين المحدود واللامحدود، وتمتلئ به حتّى الجمام، وتبلّغ، كلّ لحظةٍ، رسالة الخلود، ويتجلّى من لا شكلَ له في شكلِ الزهرة والثمرة؛ والذي لا حدودَ له يأخذنا بين ذراعيه، كما يفعل أبٌ، ويسير إلى جانبنا كالصديق.

* * * * *

مشكلة الشرّ

– لو استطعنا إحصاء كلّ ما يحدث على الأرض، في كلّ لحظةٍ، من موتٍ وتعفّنٍ، لذُعِرْنا. ولكنّ الشرّ في ارتحالٍ دائمٍ، وهو، مع جسامته التي يتعذّرُ قياسُها، لا يُفلحُ في تجميد تيّار حياتنا.

* * *

– للصراع من أجل الحياة، ما يقابله في الطبيعة: فثمّة، أيضًا، حبّ الأبناء والأصدقاء، والتضحية بالذات التي يلهمها الحبّ. وهذا الحبّ هو عنصر الحياة الإيجابيّ.

* * *

– إنّنا نلحظ، في عالم الحياة، أنّ فكرة الموت لا تحتلُّ من ذهننا سوى حيّزٍ ضئيلٍ. وليس سبب ذلك أنّ هذه الفكرة هي الأقلّ وضوحًا، بل لأنّها العنصر السلبيُّ في الحياة. ومثلما نغلقُ، في كلّ لحظةٍ، جفوننا، يبقى المهمّ أنّنا نفتح عيوننا. وبالإجمال لا تأخذ الحياةُ الموتَ مأخذَ الجدّ، بل هي تضحك، وترقص، وتعبث، وتبني، وتكدّس، وتحبّ، ساخرةً من الموت.

* * *

– عندما نراقب ولدًا يتعلّم المشي، نلحظُ تعدُّدَ سقطاتِه، وندرةَ نجاحاتِه. وإن قصَرْنا مراقبتَنا على فترةٍ قصيرةٍ، لأُصِبنا بالقنوط. غير أنّنا نشهد أنّ الولد يؤنسُ، رغم سقطاتِه المتكرّرة، فرحًا يساعده على مواصلة محاولاته التي تبدو يائسةً، وأنّه أقلّ تأثّرًا بكبواتِه من تأثّره بقدرته على حفظ توازنه، ولو للحظاتٍ معدوداتٍ.

وهكذا عندما نقصر مراقبتنا على قطاعٍ ضيِّقٍ من نشاطاتنا، ترتدي آلامنا وإخفاقاتنا الشخصيّة شأنًا كبيرًا، بيد أنّ حياتنا تقودنا، بالسليقة، إلى رؤيةٍ أرحب، وتقدّم لنا هدفَ كمالٍ يمضي بنا، دائمًا، إلى تخطّي حدودنا الراهنة، وفي داخلنا يكمنُ رجاءٌ يتقدّم باستمرارٍ تجاربنا الحاليّة. ما مرجع ذلك سوى اليقين الخالد باللانهائيّ الذي يسكننا، ولا يعترف بحتميَّة أيّ عجزٍ لدينا، ولا يقيم أيّ حدٍّ لمجالنا، ولا يخشى من تأكيد أنّ الإنسان متّحدٌ بالله، وأنّ أكثر أحلامه جنونًا تتحقّق كلّ يومٍ.

* * *

– مهمّة الذهن هي بلوغ الحقيقة عبر الخطأ، وما معارفنا سوى إحراقٍ مستمرٍّ للخطأ من أجل تحرير نور الحقيقة. لا تبلغ إرادتنا وقوّة نفسنا الكمالَ إلاّ بالتغلّب المتواصل على الشرور في داخلنا، وخارج ذواتنا، أو في هذين المجالين معًا. إنّنا، من أجل حياتنا الجسديّة، نستهلك، في كلّ لحظةٍ، موادّ تُبقي جذوة الحياة متّقدةً. وعلى هذا النحو، تحتاج حياتنا الأخلاقيّة إلى ما يقيم أَوَدَها.

إنّ مسيرة الإنسانيّة تشير إلى انتقالٍ متواصلٍ من الشرّ إلى الخير. وإنّنا ندركُ أنّ الخير هو العنصر الإيجابيّ في الطبيعة البشريّة. ولطالما كان مثال الخير هو موضع أعظم تقدير الإنسان، في جميع الحقب، وتحت كلّ المناخات. فقد عرفنا الحقّ وأحببناه، وأحطنا بأرفع تقديرٍ أولئك الذين أبرزوه بسلوكهم...

* * *

– عندما يشرع الإنسان يمتلك وعيًا وافيًا، يتخطّى، شأوًا بعيدًا، وضعه الراهن إذ إنّه يشرع يدرك طبيعتَه الأخلاقيّة، ويتبيّنُ ما يتعيّنُ عليه بلوغه من تقدّمٍ، ويغدو الوضع الذي لم يختبره، بعدُ، أكثر واقعيّةً من ذاك الذي يعهده الآن؛ وتتحوّل حتمًا نظرتُه إلى الحياة، وتحلّ لديه الإرادةُ محلّ الرغبات. فالإرادة هي الصبوّ إلى الحياة

الأشدّ رحابةً، والتي ما يزال معظمُها بعيدًا عن منالنا، وما تزال عناصرُها خفيّةً عن أبصارِنا. وحينئذٍ ينشبُ الخلافُ بين إنساننا الأدنى وإنساننا الأسمى، بين رغباتنا وإرادتنا، بين اشتهائنا أشياء تدغدغ حواسَّنا، والهدف الكامن في غور قلبنا. وحينئذٍ نشرعُ نميّزُ بين رغباتنا الآنيّة والخير الحقّ، الذي يوافق أنانا الأسمى. وإنّما ينبع مفهوم الخير من إدراكٍ صادقٍ لحياتنا لا يقتصر على ما هو ماثلٌ أمامَنا، بل ما هو لا يزالُ خفيًّا، وربّما سيظلّ بلوغه متعذّرًا على الطاقة البشريّة.

ما من إنسانٍ محرومٍ من الحسّ الأخلاقيّ، وما من إنسانٍ لم يُضحِّ، أحيانًا، برغبةٍ أنانيّةٍ حبًّا بإنسانٍ آخر، أو لم يعهد فرح احتمال إزعاجٍ أو خسارةٍ من أجل إسعاد شخصٍ ما... ما هو خسارةٌ للإنسان الأدنى، هو ربحٌ للإنسان الأسمى.

في مفهوم الخير ترتدي المتعةُ والألم معاني متباينةً، بحيث قد يصدفُ المرءُ عن المتعة، ويسعى إلى الألم، ويرحّبُ طوعًا بالموت، لأنّه يضفي قيمةً كبرى على الحياة... هذا ما أثبتَه الشهداءُ عبر التاريخ، وهذا ما نثبته، كلَّ يومٍ، من خلالِ تضحياتٍ صغيرةٍ نفرضُها على ذواتنا.

في مقياس الأنانيّة ترين المتعةُ والألمُ بكلّ ثقلهما، ولكنّهما، في مقياس الأخلاق يكتسيان من الخفّة ما يجعل الإنسان الملتزم بمبادئ الخير، يبرهن عن صبرٍ خارقٍ عندما يواجه محنًا ساحقةً، وعن جَلَدٍ مدهشٍ حيال أعتى الاضطهادات.

* * *

– عندما نبلغ الحياة الشاملة – الحياة الأخلاقيّة – نكون قد تحرّرنا من قيود المتعةِ والألم. وحينئذٍ يمتلئ الحيّز الذي كان يشغله الأنا، فرحًا يستعصي على التعبير، يسكبه الحبّ بلا حدودٍ.

* * *

– تفقد العين دورها، وعلّة وجودها، إن لم تستطع رؤية سوى ذاتِها.

* * *

– قد تُقيم قسوةُ الواقع الراسخة عائقًا دون إرادتنا، وتسبّب كوارث، كما أنّ صلابة الأرض تسبّب ألمًا محقّقًا للولد الذي يتعلّم المشي عليها. ولكن، بفضل هذه الصلابة عينها التي توجعه، يتعلّم الولد المشي.

* * *

– أخطرُ درسٍ يسع المرء تعلّمه في الحياة ليس وجود الألم، بل قدرته على الاستفادة منه وتحويله إلى مصدر فرحٍ.

* * *

– حرّيّة الإنسان لا تكمنُ في إعفائه من المصاعب، ولكن في مواجهتها وتحويلها لصالحه، وجعلها عنصر فرحٍ. وهذا لا يتحقّقُ إلاّ عندما ندرك أنّ أنانا الفرديّ ليس هو معنى كياننا الأسمى، وأنّ في داخلنا إنسانًا كونيًّا خالدًا، لا يخشى موتًا ولا ألمًا، ولا يرى في الألم إلاّ شكلاً آخر للفرح. وحينئذٍ نوقن أنّنا لسنا متسوّلين، وأنّ الألم هو الثمن الذي يتعيّنُ علينا أداؤه لكلّ ما له في الحياة قيمةٌ: القدرة، والحكمة، والحبّ. ونعي، أخيرًا، أنّ الألم هو رمزٌ لإمكانيّة الكمال اللامحدود، ولازدهار الفرح الأبديّ.

* * *

– ذرّةُ غبارٍ لا تلوّث زهرة.

* * *

– من لا يملك جرأةَ إظهارِ حقيقة ذاتِه، يتلوّن بألوان محيطه ويتبدّل بتبدّلها.

* * * * *

إشكاليّة الأنا

– عندما يُعِدّ المرءُ عدّته بعنايةٍ دقيقةٍ من أجل التمتّع بأناه، فهو يُشعلُ نارًا ولا يملك ما يطهوه عليها. فيرتفع اللهب، ويُستهلَك الوقود، ويهمد، مثلَ حيوانٍ مخالفٍ للطبيعة يلتهم صغارَه ويموت.

* * *

– حرّيّة البذرة تكمن في تحقيق طبيعتها ومصيرها، أي أن تصبح شجرةً. وما إخفاقُها في هذا التحقيق سوى سجنٍ لها. إنّ التضحية التي تمكّننا من تحقيق ذاتنا ليست تضحيةً تفضي إلى الموتِ، بل هي انعتاقٌ من قيودٍ، وظفرٌ بالحرّيّة... عندما نحيط علمًا بالمثل الأعلى لحرّيّة إنسانٍ ما، ندرك جوهرَ طبيعتِه، ومعنى أناه الحقّ... للوهلة الأولى يبدو أنّ الإنسان يَعُدُّ حرِّيَّةً ما يوفّر لأناه فرصًا لامحدودةً للتمتّع والانتصار... بيد أنّ التاريخ يناقض هذه الفرضيّة. فمعلّمونا العظماء كانوا، دائمًا ممّن ضحّوا بأناهم في حياتهم. وطبيعة الإنسان السميا لا تني تنشد شيئًا يتخطّاها، ويكون، في الآن عينه، الحقيقةَ الأعمق رسوخًا، التي تقتضي كلّ التضحيات، وتجعل من هذه التضحيات مكافأتها. تلك هي طبيعة الإنسان وديانته، وما أناه سوى الإناء الذي يحملُ تضحيتَه إلى الهيكل.

* * *

– الأنا الذي يتوخّى التظاهر، يجهد في تعظيم نفسه، وتسنّم تلّة ما سبق له تكديسُه محتفظًا لنفسه بكلّ شيءٍ. أمّا الأنا الساعي إلى تخطّي ذاته، فيتجرّدُ من كلّ ممتلكاته، وبذلك يبلغ الكمال، مثل زهرةٍ تفتّحت، وسكبت بسخاءٍ شذا كأسها العذب.

* * *

– يحاكي الأنا مصباحًا، فهو طالما ظلّ ضنينًا بما يحتوي من زيتٍ، لفَّته العتمةُ وخالف الغايةَ التي وُجدَ من أجلها. ولكن عندما يُضاءُ، ينسى ذاتَه في الحال، رافعًا شعلتَه، مغذّيًا إيّاها بكلّ ما يملك.

* * *

- إنّ العطاءَ، لمن يُحبّ، منبعُ فرحٍ، كما هو تخلّي الشجرة عن ثمرةٍ ناضجةٍ.

ونحن عندما نُخضِع جميع ممتلكاتنا لجاذبيّة رغباتنا الأنانيّة المستمرّة، نجعلها باهظة الثقل، ويصعب علينا التخلّي عنها، فلكأنّها جزءٌ من طبيعتنا، ملتصقٌ بنا التصاقَ جلدٍ آخر ينْـزف عندما نسلخُه. ولكن عندما نكون تحت تأثير الحبّ، يكون مفعول الحبّ معاكسًا، إذ تفقد الأشياءُ التي كانت ملتصقةً بنا التصاقًا لزيزًا، ثقلها والتصاقها، ونتبيّن أنّها ليست جزءًا منّا. وعندما نعطيها لا نخسر، بل نحقّق طبيعتنا. في الحبّ الكامل إذن، نكتشفُ حرّيّةَ أنانا. فما يُعمَلُ بحبٍّ هو، وحده، ما يُعمَلُ بحرّيّةٍ. وهذا هو معنى العمل المتجرّد من الغاية... ليست الخليقة الإلهيّة نتيجة أيّة ضرورةٍ، بل الخلق هو حبّ الله الذي يعتلنُ من خلال خليقته...

عندما يعمل المرء بدافع الضرورة الصرف، يرتدي عمله طابَع العارض الطارئ العابر، ولا يكون سوى مخرجٍ إلزاميٍّ مؤقّتٍ، يتخلّى الإنسان عنه، ويدعه للدمار، حالما تنتفي الضرورة إليه. ولكن عندما يكون العمل نتاج الفرح، فهو يرتدي أشكال الخلود. فما هو خالدٌ في الإنسان يضفي عليه صفة البقاء. عندما نرفض تقبّل الموت، ونبتغي أن نسدل على شكل أنانا جمودًا صارمًا، وعندما لا ينتابُ الأنا أيّ دافعٍ إلى النموّ خارج ذاتِه، ويعدّ حدوده نهائيةً لا مهربَ منها، ويسلك وفقًا لهذا الزعم، فهو، في الواقع، لا ينشد إلاّ الموت.

إن ابتغينا بلوغ عظمة شخصيّتنا، فعلينا أن نغرس جذورَنا في أعماق الشمول. وما غاية الأنا سوى نشدان اتّحاده، هذا، بالكلّ. فعليه إحناء رأسه بعمقٍ في الحبّ والتواضع، والإقامة حيث يلتقي الكبار والصغار. عليه أن يربحَ من حيث يخسر، وأن يرتفع بالخضوع.

* * * * *

تحقيق الذات في الحبّ

– جمال القصيدة يخضع لقوانين صارمةٍ، ولكنّ القصيدة تتخطّى هذه القوانين. القوانين هي أجنحة القصيدة، ولكنّها لا تثقلها، بل تحملها نحو الحرّيّة. القانون هو شكل القصيدة، ولكنّ الجمال هو روحها. القانون هو الخطوة الأولى صوب الحرّيّة، والجمال هو التحرير الكامل الذي يستوي على عرش القانون. فالجمال هو الذي يحقّق، في ذاته، الانسجام بين الحدود وما يتخطّاها، بين القانون والحرّيّة.

* * *

– وحده لامس الحقيقةَ القصوى من أدرك أنّ العالم أجمع هو خليقة الفرح.

* * *

– ما هو للنحلة، في الطبيعة، ألوانٌ ونفحات أريجٍ، ودلالاتٌ ترشدها إلى مكان جَرْس مؤونتها، هو، للقلب البشريّ، فرحٌ وجمالٌ، محرَّرٌ من ضغط الحاجة. إنّه رسالة حبٍّ مدوّنةٌ زاهيةٌ، ومرسلةٌ إلى قلبنا.

* * *

– مهما كانت طبيعتنا النشيطة، خارجيًّا، مأخوذةً بالعمل، إلاّ أنّ لها، في أعماق القلب، ملجأً سرّيًّا، تجيء إليه وتروح بحرّيّةٍ، ومن غير غايةٍ، وهنا يصبح أتون مصانعها مهرجان عيد يضجّ بألعابه الناريّة.

في الطبيعة تدوّي قيود السببيّة بضجّةٍ كئيبةٍ، ولكنّ فرحها الصافي، في القلب البشريّ، يصدح بنغمة القيثارة الموسيقيّة.

* * *

– إنّ الكائن الأزليّ يتجلّى في شكل الفرح. إنّه يتجلّى بملء فرحه في الخليقة. ولهذا الفرح اسمٌ آخر هو الحبّ.

* * *

– ترحل النفس البشريّة من القانون إلى الحبّ، ومن النظام إلى التحرّر، ومن المستوى الأخلاقيّ إلى المستوى الروحيّ.

(يلخّص طاغور تعليم بوذا المتعلّق بالسموّ الأخلاقيّ، في ما يلي:)

"الامتناع عن خداع أيٍّ كان، وعدم إضمار الحقد لأحدٍ، والنأي الدائم عن رغبة الإيذاء، في سورة الغضب؛ وإبداء حبٍّ جمٍّ لجميع المخلوقات، مثل حبِّ أمٍّ لوحيدها، فهي قد تخاطر بحياتها من أجل حمايته؛ إشعاع الحبّ من فوق، ومن تحت، ومن كلّ جانبٍ، حبٍّ لا عهد له بحدودٍ ولا بعقباتٍ، حبٍّ منزّهٍ من كلّ قسوةٍ ومن كلّ انفعالٍ؛ إبقاء الروح يقظًا مثبتًا حسن النوايا، حيال الجميع، في حالات الوقوف والجلوس والاستلقاء".

* * *

– الحبّ يهبُ ذاته تلقائيًّا، عبر هباتٍ لامتناهيةٍ. ولكنّ هذه الهبات تفقد كلّ معناها، إن لم ننفذ، من خلالها، إلى الواهب الحقّ، ألا وهو الحبّ. ومن أجل ذلك، لا بدّ لنا من امتلاك الحبّ في قلبنا. فمن لم يكن الحبّ ثاويًا في ذاته، يقيّم هبات حبيبه وفقًا لفائدتها فحسب. ولكنّ الفائدة مؤقّتةٌ وجزئيّةٌ، ولا يمكنها أبدًا أن تحيط بكلّ كياننا. فما هو مفيدٌ لا يثير اهتمامَنا إلاّ حيث نحتاج إليه. وعندما تنتفي هذه الحاجة، تصبح الفائدة، إن هي بقيت، عبئًا. أمّا إذا عمرَ قلبُنا بالحبّ، فإنّ مجرّد أيّة ذكرى ترتدي لدينا قيمةً دائمةً، فهي لا تصلح لأيّ أمرٍ محدّدٍ، بل هي في حدّ ذاتها، غايةٌ وهي تخصّ كياننا كلّه، ولا يسعنا أن نسأمَ منها.

كيف نحن نتقبّل هذا العالم الذي يمثّل هبة الفرح الكاملة؟ هل استطعنا أن نرحّب به في قلبنا، حيث نحتفظ، حفظًا حريصًا مقدّسًا، بكلّ ما له من قيمةٍ

خالدةٍ؟ إنّنا دائبون دأبًا مسعورًا على استخدام قوى الكون لكي نستمدّ منها سلطةً لا تني تتنامى، وننتزع منها طعامنا ولباسنا، ونتدافع لاقتناص ثرواتها، التي تصبح لنا حقل منافسةٍ حاميةٍ. ولكن، هل من أجل ذلك نحن وُلدنا، من أجل بسط سطوة حقوقنا على هذا العالم، ولكي نحوّله إلى سوقٍ لتجاربنا؟

عندما نركّز اهتمامنا على الفائدة التي قد نجنيها من العالم، يفقد العالم، في نظرنا، قيمته الحقّة. إنّنا نهينه برغباتنا الدنيئة، وبسعينا إلى جعله مجرّد مصدر غذاءٍ، تخفى عنّا حقيقتُه، مثل ولدٍ يمزّق صفحاتِ كتابٍ نفيسٍ، رغبةً في التهامه.

* * *

– في أكثر البلدان تقدُمًا حضاريًّا، نرى، أحيانًا، الإنسان يُعَدُّ مجرّد جسدٍ يُشرى ويباع في السوق بثمن لحمه. فتارةً يُقيَّمُ بما يقوى على أدائه من خدماتٍ، ويُحوَّل إلى آلةٍ ينتفع بها الغنيّ الذي لا همّ له سوى تنمية غناه. ومن ثمّ يُفضي بنا فسقُنا، وجشعنا، وكَلَفنا بالرفاه إلى التردّي بالإنسان إلى قيمته الدنيا، وهذا يودي بنا إلى أدهى قنوطٍ.

إنّ رغباتِنا تعمينا عن رؤية حقيقة الإنسان، وبذلك نُلحِق أكبر أذًى بنفسنا. ونثلم حدّةَ ضميرنا، وننخرط في انتحارٍ روحيٍّ مستمرٍّ. من هنا تنشأ آفات جسم حضارتنا القبيحة: الفقر، والدعارة، وتشريعات العقاب الثأريّة، وأساليب السجن التعسُّفيّة، والطرق المنظّمة في استغلال الأجناس الغريبة...

* * *

– عندما نحدّد الإنسان بقيمة خدماته التجاريّة، على ضوء ما نتوقّعه من هذه الخدمات، فنحن نعرفه معرفةً شوهاء تمهّد لظلمه، ولشعورنا برضى النصر عندما نحصل منه أكثر كثيرًا ممّا دفعنا له، بفضل بعض ما يميّزنا عنه. ولكن عندما نعرفه

بصفته روحًا، نعترف بأنّه جزءٌ من ذاتنا، ونشعر تلقائيًّا أنّ أيّة قسوةٍ نلحقها به هي قسوةٌ نلحقها بذواتنا، وأنّ إذلاله هو تجرّدُنا من إنسانيّتنا، وأنّ محاولة استغلاله لمجرّد استفادتنا منه شخصيًّا، لا يُكسبنا من مالٍ ورفاهٍ إلاّ بقدر ما نفقده من الحقيقة.

* * *

– ليست الخطيئة فعلاً مثل سائر الأفعال، بل هي موقف حياةٍ يقرّ أنّ غايتنا محدودةٌ، وأنّ أنانا هو الحقيقة القصوى، وأنّنا لسنا، جميعنا، جوهرًا واحدًا، بل أنّ كلاًّ منّا موجودٌ لحسابه الخاصّ، فرديًّا، ومنفصلٌ عن الآخرين.

* * *

– ينبغي ألاّ تُقَيَّم الحضارة بما بلغته من قدرةٍ، بل بمقدار ما نمَّتْه، وعبّرتْ عنه من حبٍّ للبشريّة، من خلال مؤسَّساتها وشرائعها. والمعيار الأقصى الذي ينبغي أن تخضع له الحضارة هو: "هل هي تعترف، وإلى أيّ مدًى تعترف، أنّ الإنسان هو روحٌ أكثر منه آلةٌ؟".

كلّ مرَّةٍ تهاوت حضارةٌ عريقةٌ وبادت، كان ذلك من جرّاء قسوة قلبٍ أفضت إلى امتهان الإنسان، وبسبب نزعة الدولة، أو جماعاتٍ نافذةٍ إلى اعتبار البشر أدواتٍ لقدرتها، وإلى استعباد الأجناس الأضعف. فهذه التدابير تحول دون نهوض الحضارة، بكلّ الوسائل الممكنة؛ وبالتالي ينسف الإنسان عظمته الذاتيّة، ويقضي على كَلَفه بالحرّيّة والعدل... ولا ريب أنّ الحبّ والعدل، وحدَهما، يستطيعان تغذية ما لا بدّ منه لكي يكون الإنسان إنسانًا حقًّا.

– في بوتقة الحبّ تذوب وتتلاشى كلّ تناقضات الوجود. وفي الحبّ، وحدَه، لا تتعارض الفرديّة والثنائيّة.

– في بوتقة الحبّ تذوب وتتلاشى كلّ تناقضات الوجود. وفي الحبّ، وحده، لا تتعارض الفرديّة والثنائيّة.

* * *

– الحبّ، وحدَه، يقرن الجهدَ والراحة. فقلبُنا لا ينفكّ يسعى حتّى يعثرَ على الحبّ، وحينئذٍ يتوقّف جريُه. ولكنّ هذه الراحة عينَها هي ضربٌ من نشاطٍ كثيفٍ حيث السكينة الكاملة والطاقة لا تكفّان تتلاقيان في الحبّ، لقاءً لا عهد له بفتورٍ.

* * *

– في الحبّ تتوازن الأرباح والخسائر... وما يُعطى يُضاف إلى ما يُكتَسَب. في مهرجان الخلق الرائع هذا، في هذا الاحتفال العظيم الذي يُضحَّى فيه بالأنا، يَهَب الحبُّ ذاتَه، بلا انقطاعٍ، ويجد ذاتَه. الحبُّ هو الذي يجمع ويربط، بلا فكاكٍ، فِعْلَي التخلّي والتلقّي. لا تناقض، في الحبّ بين العبوديّة والتحرّر، فالحبّ هو، في آنٍ واحدٍ، الأوفر حرّيّةً والأوثق قيودًا. وقيود الحبّ هي مدعاة مجدٍ، كما هي الحرّيّة.

* * *

– حيثما تتجلّى لمسة لونٍ، ونغمة نشيدٍ، وروعة شكلٍ، ثمّة دعوةٌ إلى حبِّنا.

* * *

– في العالم جمالٌ لا يستهين، أبدًا، بحرّيّتنا، ولا يرفع إصبعًا كي يُشعرنا بسلطانه. وبوسعنا العزوف عنه، غير خاشين عقابًا. وهو لا يرسل إلينا توسُّلاً ولا

أمرًا. إنّه ينشد لدينا الحبّ، والحبّ لا يُكتَسَب بالإكراه، بل إنّ الفرح هــو، في غاية المطاف، ما يجتذب الإنسان. والفرح منتشرٌ في كلّ مكانٍ... الفــرح هــو تحقيق وحدة الحقيقة، وحدة نفسنا مع العالم، ووحدة العالم مع العاشق الأسمى.

* * * * *

تحقيق الذات بالعمل

– عندما لا يكون يومُ عملنا يومَ نقاهةٍ وراحةٍ، نلتمس يوم عطلةٍ وراحةٍ. فما أتعسَنا عندما لا نجد نقاهتَنا وراحتنا في عملنا، مثلما يجد النهر راحتَه في جريه نحو البحر، ومثلما تجدها النار في التهابها، ومثلما يجدها أريجُ الزهرة في فوحــه. إنّ عملنا يسحقنا لأنّنا لا نؤدّيه بفرحٍ، وبكلّ قوانا.

فيا واهب ذاته، إذ نراك تحت شكل الفرح، فلترتفعْ نفوسنا مضطرمةً نحــوَك نظير اللهب، ولتسِلْ نحوَكَ نظير النهر، ولتنفذْ إلى كلّ كيانك مثل شذا الزهرة. هبنا أن نحبّ حياتَنا حبًّا كلّيًّا، في أفراحها وأحزانها، في مكاسبها وخســائرها، في صعودها وهبوطها. هَبنا القدرة على رؤية عالمك وسماعه على أكمــل وجــهٍ، والعمل فيه بكلّ طاقاتنا، فنحيا ملء الحياة الــتي أعطيتَناهــا. هبنــا أن نأخــذ بشجاعةٍ، ونعطي بشجاعةٍ. وحرّر فكرنا وخيالنا الواهنَيْن مــن وهــم الظفــر بفرحك بمعزلٍ عن العمل. فحيث يحرث الفلاّح حقلَه الصلب يفــيض فرحُــك سنابلَ قمحٍ، وحيث يروِّض إنسانٌ غابةً استوائيّةً، ويسوّي الأرض الصــخراء، ويبتني مسكنًا، يلفّه فرحُك بالسكينة والسلام.

ويا عامل الكون، نتوسّل إليك أن تجعلَ تيّار عزيمتك الشاملة يندفع انــدفاع

ريح الجنوب الجامحة، وينظّف حقل الحياة البشريّة الرحب، وينشر أريج الزهور والغابات، وليسكب عذوبة موسيقاك في خمول حياة نفسنا! ولتستدعِ كلّ قدراتنا المستيقظة، بصيحاتٍ هادرةٍ، إزهارًا لامحدودًا للأوراق الخضراء وللزهور وللثمار!

* * *

– النفس المتحرّرة تبتهج بالقيود، ولا تسعى إلى تجنّب أيٍّ منها. فحيث لا وجود لقيدٍ، وحيث يسود جنون الفلتان، تفقد النفس حرّيّتها، وتتألّم، وتنفصل عن اللامحدود، وتعاني احتضار الخطيئة.

* * *

– يزعم بعضهم أنّ القانون هو نقيض الفرح، وأنّ السكر هو الفرح.

* * *

– لا تُقيم الحرّيّة في الظملة، ولا في الضباب، وما من عبوديّةٍ مريعةٍ مثل عبوديّة الظلمات.

– يتعذّر بلوغ الحرّيّة، بمعزلٍ عن الخضوع للقانون.

– النشاط هو لعبة الفرح.

* * * * *

تحقيق الذات بالجمال

– الأمور التي لا تؤتينا فرحًا قد تنقلب علينا عبئًا نتمنّى التخفّف منه بأيّ ثمنٍ. وقد تكون تلك الأمور مفيدةً فنعقد معها علاقاتٍ مؤقّتةً، جزئيّةً، ولكنّها تصبح باهظة الثقل حالما تنتهي فائدتُها. وقد تتسكّع عند مدخل وجداننا، تسكُّعَ مشرّدين هائمين، ثمّ تسارع إلى الرحيل. وما من شيءٍ يخصُّنا بالكامل إلاّ عندما يكون لنا منبعَ فرحٍ.

* * *

– الجمال منتشر الوجود في كلِّ مكانٍ، ومن ثمّ بوسع كلّ شيءٍ أن يوفّر لنا الفرح. ولكنّ هذا لا يعني وجوب شطب لفظة "البشاعة" من لغتنا، فهي ثاويةٌ في التعبير المشوّه عن الجمال الذي يحدث في سلوكنا، وفي كلّ تحقيقٍ للحقيقة ناقصٍ. وقد نولّد القباحة، أيضًا، بمقاومتنا سنّة التناغم الخالدة، الموجودة في كل مكانٍ.

بقدر ما نفهم التناغم القائم في العالم المادّيّ، نعن في اقتسام فرح الخليقة، ويصبح تعبيرنا عن الجمال في الفنّ أكثر صدقًا. وعندما نعي التناغم داخل نفسنا، يكتسب إدراكنا لغبطة الروح في العالم شمولاً، ويدنو تعبيرنا عن الجمال، في حياتنا، نحو اللانهائيّ، حبًّا وعطفًا. ولا يغربنّ أبدًا عن بالنا أنّ "الجمال هو حقٌّ، وأنّ الحقَّ جمالٌ".

الموسيقى هي نوع الفنّ الأشدّ صفاءً، والتعبير الأكثر مباشرةً عن الجمال. فشكلُها وروحها وحيدان وبسيطان، وهما الأقلّ ازدحامًا بالعناصر الغريبة. ويبدو لنا أنّ تجلّي اللانهائيّ في أشكال الخليقة المحدودة يكمن في الموسيقى الصامتة والمرئيّة...

لذلك يجهد الشعراء الحقيقيّون – وهم أنبياء – في تمثيل الكـون بعبـاراتٍ موسيقيّةٍ. الرسّام يحتاج إلى لوحةٍ، وفراشٍ، وأصباغٍ، أمّا المنشد فلديه، في ذاته، كلّ ما يلزمه. فالأنغام تتفجّر من حياته، وليست موادّ مستقدَمةً مـن الخـارج. فكرُه وتعبيرُه يحاكيان أخًا وأُختًا، غالبًا ما أبصرا النور تـوأمَين. وفي الموسـيقى يعتلن القلب في الحال، غير خاضعٍ لأيّ قيدٍ ناتجٍ عن عناصر خارجيّةٍ.

... حتّى عندما أفقدُ الوعي في نومي، تتواصل رقصة الحياة في حقل جسدي الصامت، على إيقاع النجوم في السماء، وينبض قلبي، ويتوثّب الدم في شراييني، وتخفق ملايين الذرّات في جسدي، متساوقةً مع القيثارة المرتعشة بلمسة إصـبع المعلّم الأكبر.

* * * * *

تحقيق الذات في اللانهائيّ

– تقول "الأوپانيشاد": "يصبح الإنسان حقيقيًّا عندما يتّصل بالله، في هـذه الحياة، وإلاّ فهو يقاسي أدهى كوارثه".

بدهيٌّ أنّ اللانهائي ليس غرضًا بين أغراضٍ كثيرةٍ أُخرى، يسـعنا تصـنيفها بدقّةٍ، وضمّها إلى مقتنياتنا، واستخدامها بمثابة حليفٍ يرجّح نجـاح مشـاريعنا السياسيّة، والحربيّة، والماليّة، أو الاجتماعيّة...

ليس العطش إلى الله مجرّد رغبةٍ في إضافة شيءٍ ثمينٍ إلى ما نمتلك. بـل علـى نقيض ذلك، عندما تنشد النفس الله، فهي تسعى إلى التحرّر من النـزعة إلى الإثراء، والتكديس المستمرّ التي لا تعهد حدًّا. والنفس، إذ ذاك، لا تلتمس شيئًا إضافيًّا، بل تلتمس الدائم في ما هو زائلٌ، وتلتمس الفرح الأسمى والأبقى الذي تنصهر فيه المُتَع كلُّها.

عندما تدرك أنّ كلّ ما هو موجودٌ مملوءٌ بالله، وأنّ كلّ ما لديك هو هبةٌ منه، حينئذٍ تستوعب اللانهائيّ في المحدود، والواهب في هباته، وتفهم حينئذٍ، أنّ جميع الوقائع الماثلة تجد معناها في تجلّي الحقيقة الواحدة، وترتدي جميع مقتنياتك شأنًا واحدًا ليس ثاويًا فيها، بل في العلاقات التي تعقدها مع اللانهائيّ.

وإذن، ليس المطلوب نشدان الألوهة في شيءٍ ما، باستثناء شيءٍ آخر، ولا في مكانٍ ما عوضًا عن آخر... بل علينا التحرّر من سجن أنانا. وما إمعاننا في التقرُّب من الأُلوهة إلاّ جهدٌ يوميٌّ من أجل إخضاع ذاتنا لها، ومن أجل إزاحة كلّ عائقٍ دون اتّحادنا بها، ومن أجل تنمية وعينا لها في العبادة والخدمة، وفي العطف والمحبّة.

يمكن القول إنّ بلوغ اللانهائيّ متعذّرٌ، ومن ثمّ فهو كأنّه غير موجودٍ لنا. وقد يصحّ ذلك إذا كان البلوغ ينطوي على فكرة الامتلاك، ولكن لا بدّ لنا من التنويه بأنّ متعة الإنسان الكبرى ليست في الامتلاك، بل في الحصول... فعندما نأكل كي نهدّئ عضّة جوعنا، يكون عملنا امتلاكًا صرفًا، وطالما لم ترتوِ شهيَّتُنا، يبقى الأكل متعةً، لأنّ متعتَنا، حينئذٍ، تلامس اللانهائيّ من كلّ صوبٍ. ولكن عندما نبلغ مرحلة اللانهاية، أي عندما تصل رغبتنا في الأكل إلى نهاية مرحلة اللااكتمال، فحينئذٍ تبلغ مرحلة انتهاء المتعة. أمّا في مُتَعنا الذهنيّة، فالحدود هي أكثر بعدًا، والهامش أوسع. وفي كلّ حبٍّ عميقٍ، يتلازم الحصول وعدمه. ففي إحدى قصائدنا "الڤشنويّة" الغنائيّة، يقول الحبيب لحبيبته: "يراودني شعورٌ بأنّني أتأمّل جمال محيّاك منذ جئت إلى الحياة، ومع ذلك ما زالت عيناي جائعتين. أشعر أنّني أشدّك إلى قلبي منذ ملايين السنين، ومع ذلك لم يرتوِ قلبي بعد".

جليٌّ، إذن، أنّ اللانهائيّ هو ما ننشده في مُتَعنا. ورغبتنا في الغنى لا تقتصر على امتلاك مبلغٍ محدّدٍ من المال، بل هي لا محدودةٌ. ما أكثرُ مُتَعنا عبورًا سوى اتّصالاتٍ مؤقّتةٍ بالخلود، وإنّما مأساة الحياة البشريّة تتمثّل في محاولتنا الباطلة إبعاد حدود الأشياء التي لا يسعها أن تصبح، يومًا، لامحدودةً، وبلوغ اللانهائيّ بإضافة درجاتٍ جديدةٍ إلى سلّمٍ محدودٍ.

في كلّ تاريخ البشر نرى أنّ روح التخلّي والزهد هو واقع النفس البشريّة الأعمق رسوخًا. وعندما تقول نفسٌ عن شيءٍ ما: "لا أريده، فأنا أسمى منه"، فهي تعبّر عن أسمى حقيقةٍ كامنةٍ فيها. وإنّما أدهى بؤسٍ يُلمّ بنا هو بقاؤنا مقيَّدين بما هو أدنى منّا.

يتحرّر الإنسان من كلّ وهمٍ حول ممتلكاته عندما يدرك معناها الحقّ، فيتبيّن أنّ نفسه هي أسمى وأثمن ممّا يملك، وأنّ تقدّمه على درب الحياة الأبديّة لا بدّ له من اجتياز سلسلةٍ من التضحيات والزهد.

يجب أن تتوثّب نفسنا نحو اللانهائي، وأن تشعر، في كلّ لحظةٍ، أنّ فرحَها الأعظم، وحرّيّتها الكبرى يكمنان في وعيها عجزَها عن بلوغ غاية تحقيق ذاتها.

لا ينعم الإنسان بسعادةٍ دائمةٍ، بحصوله على أيّ شيءٍ، بل بوهبه ذاته لما هو أكبر منه، لأهدافٍ أرحب من حياته الخاصّة... وسيظلّ وجوده يعاني البؤس والعَوَز إلى أن يعثر على خاطرةٍ جميلةٍ يسعها، حقًّا، أن تأخذ من كيانه كلّ مأخذٍ، وتحلّه من كلّ ارتباطٍ بممتلكاته. وإنّ بوذا ويسوع وجميع أنبيائنا العظماء يمثّلون هذه الخواطر الكبرى، ويوفّرون لنا فُرَصًا للتخلّي عن كلّ شيءٍ. وإذ يمدّون لنا قصعة استعطائهم السماويّة، لا يسعنا إلاّ أن نعطي، ونكتشف، في هذا العطاء، فرحَنا وتحرّرنا الحقيقيّين، لأنّنا بمقدار ما نعطي، نتّحد باللانهائيّ.

ليس الإنسان كاملاً، وعليه أن يكتمل. إنّه صغيرٌ في ما هو الآن، وإن كان علينا الاعتقاد بأنّه سيبقى، أبديًّا، على هذه الحال، فتلك هي أبشع جحيمٍ يمكن أن تخطر بخيال إنسانٍ. غير أنّ اللانهائيّ هو في ما سيصيره، وفيه انعتاقه وفردوسه. إنّ كيانه الراهن مشغولٌ، في كلّ لحظةٍ، بما يستطيع الحصول عليه وإكماله، وما يستطيع فقده لأنّه لم يكن، أبدًا، مالكَه.

لا يمكننا الصبوّ إلاّ إلى أمرٍ واحدٍ، وهو الإيغال، أكثر فأكثر، في الاتّحاد بالله. في ميدان الطبيعة، نحن ننمو بزيادة مقتنياتنا، ولكن في دنيا الروح، وهي عالم الوحدة، نحن نكبر عندما نخسر ونتّحد. ليس مصدر الكيان أيّة ضرورةٍ، بل هو تماهينا مع اللانهائيّ الذي يمثّل مبدأ الكمال الثاوي في نفسنا.

المعرفة الذهنيّة جزئيّةٌ، لأنّ عقلنا أداةٌ، وليس سوى جزءٍ منّا، يوفّر لنا فقط، معلوماتٍ عن أُمورٍ قابلةٍ للتجزئة والتحليل، والتي يمكن لمميّزاتها أن تصنّف قطعةً قطعةً. ولكنّ الكائن الأسمى هو كاملٌ، ولا يمكن لمعرفةٍ جزئيّةٍ له أن تعني معرفته. ومع ذلك من الممكن معرفته بالفرح والحبّ. فالفرح هو ملء المعرفة، وهو المعرفة بكلّ كياننا. إنّ الفكر يعزلنا عمّا نبتغي معرفته، ولكنّ الحبّ يعرف موضوعه بما يشبه الانصهار. وهذه المعرفة هي مباشرةٌ ولا تدع مجالاً للريب...

لا يسعنا معرفة الكائن الأسمى إلاّ من خلال نفسنا، من خلال فرحنا به، والحبّ الذي يشدّنا إليه. وبعبارةٍ أُخرى لا يمكننا عقد علاقاتٍ معه، إلاّ باتّحادِ كاملِ كياننا به. ومن ثمّ، ينبغي أن نكون والآب واحدًا، وأن نكون كاملين كما هو كاملٌ.

* * * * *

حصاد خواطر

أُضمومة الخواطر التالية منتقاةٌ من كتبٍ عديدةٍ لطاغور، وتحمل جميعها دمغة فكره، وسِمة عبقريّته، وسموّ روحانيّته.

– أعدّ ضعفًا كلّ قوّةٍ تفرض ذاتها، فالضعفاء وحدَهم لا يملكون شجاعة ممارسة العدالة، فيتخلّون عن واجبها، وينشدون نتائج سريعةً من خلال دروب الضلال الملتوية.

* * *

– إنّ السعي إلى إحلال الأهواء في مكانةٍ أرفع من مكانة الحقيقة هو دليل عبوديّةٍ.

– ليس تباين الآراء نتيجة تفاوتٍ في مدى الفهم، بقدر ما هو نتيجة تباين الطباع.

* * *

– خلّصيني، أيّتها الحقيقة المقدّسة، ولا ترضي أن أتوقَ إلى فراديس الوهم المضلّلة. وإن تعيّن عليّ أن أسير وحيدًا، فليكن سيري على دربكِ، وليقُدْني دويّ طبولكِ إلى النصر.

* * *

– قد نرغب في إصلاح العالم، في حين أنّ ما ينبغي إصلاحه هو في داخلنا، وفي رغباتنا، لا في أيّ مكانٍ آخر.

* * *

– يقول نشيدٌ هنديٌّ: "أنا مستعدٌّ لخدمة وطني. ولكنّني أقف عبادتي على الحقّ الذي يسمو على وطني. فإن عبدتُ وطني عبادتي لإلهٍ، فإنّما أكون أدفعه إلى البؤس".

* * *

– هناك رجالٌ جبناء يقتضون من نسائهم أن يؤدّين لهم واجب العبادة، مدّعين أنّه حقٌّ لهم، وفي ذلك إهانةٌ لهم ولهنّ.

– مثل الدودة الكامنة في الثمرة، كذلك الرغبة تلتهم لبّ القلب. فعلى هذه الأرض لا يني الهوى الذي لم يرتوِ، يحوم حول ما يشتهيه، وتظلّ الذاكرة تتأوّه ندمًا على الأفراح التي تبدّدت.

– المجد لا يهب السعادة.

– تبدو الحقيقة زائفةً عندما يُغالَى في تزيينها.

* * *

– هؤلاء هم الغالبون الحقيقيّون: أولئك الذين بذلوا ذواتهم حقًّا، والذين، بكلّ قواهم، يرتضون الألم، وبكلّ طاقاتهم يواسونه.

أولئك هم المبدعون لأنّهم يمتلكون سرّ الفرح الحقّ، أي سرّ التضحية.

* * *

– يعاني القصب السكّريّ، لأنّه يحرص على الاحتفاظ بعصيره لذاته؛ ولكن لا يخطر لأحدٍ، وحتّى لمجنونٍ، أن يتقلعَ شجرةً تجودُ طوْعًا بثمارها.

* * *

– في فجر الخليقة الأوّل، تمّت خطوبة "أنا أملك" مع "أنا أعطي". وحين يُفسخ هذا العقد بينهما يؤول كلّ شيءٍ إلى دمارٍ.

* * *

– الطبيعيّة والبساطة والليونة صفات المتحضّر. أمّا المغالاة والتظاهر، فهي صفات المتخلّفين. إنّ العظمة الحقّة تضيء بألَقها الخاصّ، ولا تفقد شيئًا من بريقها في جوٍّ متواضعٍ.

* * *

– إنّ قيمة دلو ماءٍ تعلو أو تتدنّى وفقًا للغاية التي نستخدمه من أجلها.

– محاولة تجاهل قيود الواجب لا يؤدّي إلاّ إلى ترسيخ العبوديّة.

– لا يمكن بلوغ الحرّيّة إلاّ من خلال قيود الانضباط، والتضحية بالميول الشخصيّة. الحرّيّة فائدةٌ تُدفَع فقط لمن وظّف رأسمال الانضباط الشخصيّ المقتضى.

* * *

– ساق الثمرة الناضجة تتهاوى، وكيانها يلين، ولكنّ البذرة في داخلها تكتسبُ صلابةً، وهي تجمع قواها من أجل حياةٍ جديدةٍ. ونحن، مع تقدّمنا في السنّ، نستعيض عن خسائرنا الخارجيّة بمكاسب موازيةٍ لها.

* * *

– علينا أن نزهد ونتجرّد وأن ننتصر بالزهد والتجرّد.

– الوسيلة الوحيدة لبلوغ ملء معنى الحياة هي التمرّس، منذ الحداثة، بسلوكٍ يوجب النضج من خلال التضحية وضبط النفس، تمهيدًا للانتهاء، في غاية الوجود المادّيّ، إلى عالم النور الذي يتعذّر وصفه.

* * *

– لن نظفر بحرّيّتنا إلاّ بعد أن نكون قد أدّينا ضريبة حقّنا في الحياة.

– تحرير الشجرة من روابطها بالأرض لا يوفّر لها الحرّيّة.

– لا مجدَ في الفقر إلاّ عندما يمارسه من يستطيعون أن يكونوا أغنياء. مجيدةٌ هي التضحية بالثروة، ولا مجد في الفقر القهريّ.

* * *

أولئك الذين لا يعون قدرتهم الداخليّة، ينْــزعون إلى تأكيد يقينهم بأنّ القوّة تكمن في الأُمور الخارجيّة التي تضمن النصر فور الظفر بها.

– جديرٌ بالتذكير أنّ عصور النهضة المجيدة، في التاريخ، تمّت حين اكتُشفت بذور الفكر في أهراء الماضي، واتّضح أنّ الذين هدروا غلال الماضي بدّدوا، أيضًا، حاضرهم.

– لا تتجلّى قوّة الإنسان كاملةً، إلاّ عندما يُطلب منه بذل كلّ طاقاته.

* * *

– من المعروف أنّ قدرًا وافرًا من عناصر الفكر المسيحيّ يتعارض مع الثقافة الكلاسيكيّة الأوروبيّة، غير أنّ هذه الذهنيّة الغريبة التي تناقض تناقضًا مستمرًّا النزعات الفطريّة الأوروبيّة، كانت من أخطر العوامل شأنًا التي أغنت الثقافة الأوروبيّة، وأضفت عليها منعةً، لا بل إنّ تباينها عنها قد آتاها غنًى، وأكسبها متانةً.

– من شجرة حياة المسيح هبط بذارٌ على تربة الوجدان الأوروبيّ، وآتى غلالاً وفيرةً. فما هي القوّة الحيويّة الكامنة في هذا البذار؟ إنّها القدرة على استمداد القوّة من الألم. فعلى امتداد قرونٍ سمعت أُوروبا، في الأناشيد الدينيّة والصلوات، ومن خلال طقوسها، رسالة الرحمة الإلهيّة التي تتبنّى كلّ الألم البشريّ. وقد اخترق هذا اليقين، عبر العصور، صميم الفكر الأوروبيّ، مالئًا أعماق اللاوعي، حيث يثوي بذار كلّ جهدٍ بشريٍّ، وحيث تترسّخ جذوره.

ومن ثمّ لا ننفكّ نشهد، في أوروبا، حالات أشخاصٍ يتنكّرون للمسيحيّة، ويتشدّقون بمدائح المادّيّة، ومع ذلك يضحّون بذواتهم، بلا تحفّظٍ، كلّما اقتضت الحاجة، معانين، ببسالةٍ بطوليّةٍ، الألم والسخريّة. فهم، وإن لم يعوا ذلك، يضعون

القِيَم الخالدة فوق القِيَم الفانية، ويضعون خلاص الجميع فوق الانتصارات الفرديّة.

وحدَه من كرّس حياته لقضيّةٍ، يكافح من أجل شعبٍ بأكمله. قد تسخر منه الجموع الحمقاء، ولكنّها ستنعم بثمار إنجازاته.

لا قيمةَ روحيّةً، على الإطلاق، لألمٍ لا يستهدف سوى الربح: فالروحانيّة الحقّة تكمن في الألم الذي يُحتمَل بدافع الحبّ.

ظاهريًّا هم قلائل، ولكن، واقعيًّا، كُثُرٌ هم... الفرسان الذين يمثّلون ضمير المجتمع، والذين انتدبوا نفوسَهم للذود عن حياض الضعفاء، مقتفين دربَ الآلام المضرّج بدم المسيح، درب الزعيم الإلهيّ الذي أخذ على عاتقه آلام العالم، كي يضمنَ خلاصَ النفس البشريّة ويقودَها إلى النور. هذا النور ما زال يتألّق في صميم قلب أوروبا.

* * *

(من خطابٍ ألقاه طاغور، في شهر آذار ١٩٣٧ ، بمناسبة مئوية "راماكريشنا")

في طبيعتنا البشريّة يكمن جوعٌ إلى الرحابة، إلى أوسع ممّا هو ضروريٌّ لحاجات وجودنا، المباشِرة والملحّة.

لقد اتّضح للإنسان أنّ مسيرة الكمال ليست مجرّد حياة توسُّعٍ، بل إنّها حياةٌ تنعم بالجمال وبالرحابة، بمنأًى عن الأنانيّة.

إنّ المادّيّة، في سبيل توسيع مجالها، لا بدّ لها من التعدّي على مجال الغير، وبما أنّ كبرياء السلطة تتباهى بالكمّيّة المتمثّلة في عديد مبخّريها، وفي عدد ضحاياها، فإنّ أدقَّ منظارٍ مسلطٍ على السلطة يعجز عن تبيّن شاطئ سلامٍ، في ما وارء محيط الدماء.

* * *

– إنّ التعصّب الدينيّ، مثل طفيليّاتٍ قارضةٍ، يتغذّى بالدين الذي يتزيّا بـــه، ويفرغه من محتواه حتّى يقضي عليه ويميتَه، ويسكن في هيكله العظميّ المجـــرّد، متّخذًا منه قلعةً تتحصّن فيها غريزتُه القتاليّة الشيطانيّة، وورعه الباطل المزدهـــي بذاته، وازدراؤه العنيف لعقيدة جاره. وعندما يؤخذ عليه ظلمه للإخوة الـــذي يمثّل للإنسانيّة إهانةً فادحةً، وجرحًا بليغًا، حينئذٍ يسارع المتديّنون المتشدّدون إلى تحويل الأبصار، بسردهم نصوصًا كريمةً مأخوذةً من الكتب المقدّسة، نصوصًـــا تدعو إلى المحبّة والعدل والرحمة الإلهيّة الكامنة في الإنسان، وبذلك يجعلون مـــن ذواتهم موضع سخريّةٍ، لأنّ هذه النصوص عينَها هي إدانـــةٌ قاطعـــةٌ وصـــارمةٌ لمواقفهم...

* * * * *

مقتطفاتٌ من كتاب

"مسكن السلام"

توطئة

قيلَ عن "رابندرانات طاغور" إنّه "أكثر الشعراء صوفيّةً، وأكثر الصوفيّين شاعريّةً".

فقد ورث من والده نزعةً صوفيّةً راسخةً. وكان جدّه قد أسَّس جمعيّة "برهمو سواراج" الصوفيّة، التي تدعو إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ، وتحرِّض كلّ إنسانٍ على اكتشاف حضور الله في داخله. وهي، مع تمجيدها لما في الهندوسيّة العريقة من روحانيّةٍ ساميةٍ، ومن محبّةٍ شاملةٍ، ناهضت التقاليد الدخيلة عليها، والتي كانت تنال من كرامة فئاتٍ واسعةٍ من المجتمع.

وكان والده قد لعب دورًا هامًّا في تنمية هذه الجمعيّة وفي توجيهها نحو مزيدٍ من التطهُّر والتقشُّف، وقد أوكل إلى ابنه رابندرانات – شاعرنا – رعايتها، وإكمال نموّها. ورابندرانات، رغم النكسات الذريعة التي أنتجتها الحروب والصدامات الدوليّة، وما سبّبته من خيباتٍ مريرةٍ، قد حافظ على إيمانه بالإنسان المُرَوحَن، إيمانٍ نابعٍ من خبرته بالإلهيّ المتجلّي قدرةً كونيّةً، وكائنًا فائقًا يودِع في نفس كلِّ إنسانٍ قبَسًا من ذاته، فما على الإنسان إلاّ أن يكتشفَه، ويرعاه، ويحيا به.

وبغية نشر هذه المبادئ التي ملكت عليه ذهنه وقلبه، أَلِفَ رابندرانات طاغور أن يشارك الطلاّب والمعلّمين في مؤسَّسته التربويّة في "شانتينيكيتان" تأمّلاته في هذه الحقائق، إذ كان يعقد معهم، كلّ صباحٍ، جلسة تأمّلٍ صباحيٍّ، يتلو عليهم، في أثنائها، خواطره ويحثّهم على تعميقها، والمثابرة على البحث الدائم عن الإلهيّ.

هذه التأمّلات جُمعت في كتابٍ أُطلِق عليه عنوان "مسكن السلام"، المستوحى من اسم مؤسّسته التربويّة، موئل تلك التأمّلات؛ ومن هذا الكتاب، اقتطفتُ وترجمتُ المختارات المدرجة في الصفحات التالية.

استيقاظٌ

في هذه الليلة كنتُ راقدًا، بعد أن أوصدتُ أبوابي ونوافذي، وغرقت في اللاوعي. وعند إشراقة النهار، تسلّل الضوء، من خلال فرجات الستائر، وفيما كنت لا أزال ممدّدًا على فراشي، انتابني شعورٌ مباغتٌ ببركة الفجر الطاهر، الآتي من الخارج، كي يهزّ خمول ذهني، فضقت ذرعًا بدفء الأغطية، وكدتُ أختنق بهواء غرفتي الموصدة الذي أفسَدَته أنفاسي، ولم أُطِق المكوث، لحظةً، في ذلك المحبس.

كانت تتنامى إلى مسامعي دعوة الطبيعة الحرَّة، بكلّ نداوتها، وشفافيّتها، وسناها. كانت دعوة جوٍّ مفعمٍ رواءً، وشذًى، وأناشيد، وكان لا بدّ لي من الاندفاع خارجًا.

فلْيتحقّق في داخلي مثل هذه اليقظة، يا ربّ! ولتُنفِذ إليّ، من خلال ثغراتٍ رقيقةٍ في كياني، رسولَ نورك، مبشّرًا بالحرّيّة الإلهيّة! وحينئذٍ لن يقوى شيءٌ على إبقاء خمولي: لا ثقل حرارة السجن الذي ابتنيته بيدي، ولا نجاساتي، ولا ظلماتي، وسيتحوّل الفراش الذي يستلقي عليه فكري الغافي موقدًا مضطرمًا، ولن يسعني سوى الهتاف: "ما نفع كلّ هذه الأشياء العاجزة عن أن توفّر لي الخلود؟"

يقظةٌ وتساؤلٌ

إنّ أسوأ أنواع اللاوعي هو جهل الإنسان لنفسه. عندما يُضحي جهلنا للإلهيّ بدهيًّا، بحيث لا نشعر بغيابه، فلتنتزعْنا الدعوة الداخليّة: "استيقظ، عِ" من حالة اللامبالاة والذهول عن حقيقة كياننا. ولينشأ في قلوبنا ألمٌ جارحٌ كفيلٌ بهزّ خَدَرنا! وليتفجّر من أعماقنا هذا التأوّه: "لستُ ألحظُ حضورَكَ فيَّ، والحياة تبدو لي فارغةً من المعنى، فلْتنبضْ كلّ أوتار نفسي بهذه الصرخة: "عساني أعثر على دربي، خارج ظلمة الجهل!".

* * *

ينْزع الإنسان إلى شطر البشريّة إلى فئتين: فمن جانبٍ، الجماعةُ التي ينتمي إليها، ومن جانبٍ آخر، سائر البشر. وهو يحتكر الربّ في فريقه، ويعدّه مِلكًا حصريًّا له، ويكتفي، راضيًا، عازفًا عن إعمال الفكر، وعن إعادة النظر في خياره.

* * *

إنّنا نكرّم الله بشفاهنا، ثمّ نغفل حضوره الدائم فينا وفي ما يحيط بنا. وننفيه من حياتنا اليوميّة، ولكأنّ لا مكان له في هذه الدنيا... ويقودنا الغرور إلى حصر هذا الكون العظيم في جدران منْزلنا، وفي رقعة أرضٍ، وكأنّنا لم نولد في قلب خليقةٍ لا تحدّها حدودٌ، بل في عالمٍ خاصٍّ بنا تملأه بالكامل لفظة "أنا، أنا، أنا". ومع ذلك ندّعي الإيمان بالله، وانتباذ كلّ شكٍّ في حبّه وعمله.

قد يخطر الله على شفاهنا، ولكنّنا لا نشركه في أيٍّ من نشاطاتنا.

وعندما نقتصر على تكريم الله بشفاهنا، فإنّما نحن نكذب على أنفسنا.

* * *

إنّ هاجس فائق الطبيعة الحقّ هو، للوجدان الشخصيّ، دليل تحرُّرٍ وولوجٍ إلى محراب الحقيقة. فمع أنّ العالم يحيق به، ويقيّده من كلّ جانبٍ، هو يصغي إلى نداء الواقع المحرِّر. ومع انغماسه في الظلمة، يستولي عليه شعورٌ بجاذبٍ نحـــو نـــورٍ لا يزال يجهله. غير أنّه يتوجّس خشيةً من هذه المشادّة بين قطبَين التي لا يتبيّن منها مخرجًا، ولا يعلم إلى أين ستفضي به...

وحينئذٍ قد نحظى، فجأةً، بمخرجٍ لا ثانيَ له: توثُّـــب القلـــب صـــوب الله، فيتصاعد، من أعماق نفسنا هذا الدعاء: "تجلَّ لي، يا ربّ، في نور حبِّكَ!".

ليست المعرفة كافيةً لتبديد ظلمات الريبة، فبمعزلٍ عن الحـــبّ، لا يســـتنير الوجدان إلاّ استنارةً ناقصةً. وما لم تلهب فكرة الله قلوبنا، فنحن لا نـــراه، ولا نصغي إليه، ولا ينفتح كياننا على حقيقته. وبالتالي لا يظهر لنا من هو كائنٌ أكثر من كلّ ما ينجم عنه، بصفته الواقع الأوّل.

وحينئذٍ ليس الله الموجود، موجودًا لنا. ويا لها من هوَّةٍ تبعث على الـــدوار! فهذه الصحراء الخانقة، أي عدم القدرة على الحبّ، تتحوَّل شلَلاً بطيئًا. وللكائن المحروم من هذا النسغ، يفقد الكون كلّ فتنته، ويتلاشى جمال الحياة كلّه. فمـــا السبيل إلى ردم هذا الفراغ الذي يمضي عمقًا في داخل الذات، التي تزداد، كلّ يومٍ، انطفاءً، إذ إنّ كلّ ما لدى المرء من معرفةٍ، وكلّ ما يزعم فهمه، لم يعُدْ إلاّ باطلاً؟

"تجلّ لي يا ربّ، في نور حبِّكَ!".

غيـابٌ

إن تُرجِم إقصاءُ الله عن حياتنا خسارةً ماليّةً، ولو ضئيلةً، لكـان ردّ فعلنا سريعًا. وإنّه لمؤسفٌ ألاّ تسبّب لنا لامبالاتنا أيّ قلقٍ. فالشمس تغمرنا بضيائها، والأرض تغذّينا بثمارها، والمجتمع البشريّ، بمشاريعه المتشعّبة يلبّي، إلى حدٍّ ما، احتياجاتنا المتعدّدة؛ غير أنّنا، بإحجامنا اللاواعي عن الاتّصال بالكلّي، نحفر، في ذواتنا، فراغًا مريعًا. ومن دواعي الأسف أنّنا طالما ظللنا ساهين عن هذه الحقيقة، نواصل دربنا مطمئنّين، ولا نطرح على أنفسنا أيّ سؤالٍ. وبما أنّنا نعيش في مجتمع بحبوحة، نعدّ ذواتنا خلائق باركها الله.

إنّ التحرّر من قوقعة الوعي الغافي يعني للإنسان الولادة على الفرح، التي تُسمّى "الولادة الثانية"، أي الولادة على الواقع في صميم الأشياء، والولوج إلى الجوهر الكونيّ الملازم لكلّ أشكال الحياة. وكما أنّ العصفور الصغير، منذ مجيئه إلى العالم، يشعر أنّه محاطٌ، كلّيّةً، بالأجنحة الأُموميّة الرحبة، كذلك يشعر الإنسان المولود على الروح أنه محاطٌ بالكلّيّ. ولكنّه ما دام لم يحطّم قوقعته، فيعسر عليه إدراك الامتلاء، والفرح الذي يندّ عن الوصف، اللذين تنعم بهما النفس التي حظيت بهذا التحرّر، مع أنّها، مدى لحظاتٍ خاطفةٍ، تستشعرهما.

غير أنّ الإنسان الذي يظلّ لامباليًا ولو بشخصٍ واحدٍ، أو بعشبةٍ صغيرةٍ، يبقى محدود التواصل مع الروح.

عندما تصبو النفس البشريّة إلى الاتّحاد بالنفس الكونيّة، صبوًّا لا يقوى شيءٌ على لجمه، حينئذٍ تتجلّى له بوضوحٍ طبيعة الشرّ... ولا تعود تخفى عليه حتّى ذرّة الرمل الكفيلة بإعاقة زخم اندفاعه.

وعندما يشرع الإنسان يستيقظ، يرنو صوب كلّيّ القدرة، ويدعو بحرارةٍ: "أنت، أيّها الطهر، أقصِ عنّي الضلال، وامحُ من قلبي كلّ لوثةٍ، ولا تُبقِ لها أثرًا. فأنت من تبتَغيه نفسي، أنت وحدك. هذه هي رغبتي الوحيدة، وهذا هو تطلّعي الأقصى. أنت الحاضر في كلّ شيءٍ، ومن خلال كلّ شيءٍ تقدّم لنا ذاتك، ما برح فكري عاجزًا عن إدراك السعادة، المستعصية على الوصف، التي يولّدها الشعور بالاتّحاد بك. ومن خلالك أقوى على الاتّصال بصميم كلّ شيءٍ، وكلّ خليقةٍ. ومع أنّي لستُ، بعدُ، مؤهَّلاً لاستقبال تجلّيك، غير أنّ ذرّةً من نعمتك تكفي لفتح ثغرةٍ في بابي الموصد. وربّما لن ينفذ إليّ سوى شعاعٍ شحيحٍ من نورك. ولكن، بفضل ضوئه، ستتجلّى لي حقيقة الظلام الدامس الذي يلفّ قلبي الموصد بإحكامٍ، فهو ظلمةٌ مطلقةٌ، ولن أعهد راحةً حتّى أتحرّر منه...

تجـرّدٌ

من رام تفادي أن تُنتزَع منه، ذات يومٍ، الأشياء التي يتعلّق بها، عليه الانعتاق من كلّ ما يتعلّق به، وتعلُّم التخلّي، طوعًا، عن كلّ نافلٍ. وما لم ينتهز كلّ سانحةٍ كي يحوّل ما يبدو تضحيةً إلى فعلٍ بدهيٍّ بسيطٍ، فهو يُعِدُّ لذاته نهايةً أليمةً، إذ إنّ الموت سيغدو له الاقتلاع الأوجع.

ولا نظنّنّ أنّ فعل التخلّي يُفضي إلى إفقار الذات، وإلى ضربٍ من الإفقار الداخليّ، فبلوغ ملء الازدهار يقتضي التخفّف، يومًا فيومًا، من عبء النوافل. وحقيقة الأشياء لا تتجلّى إلاّ عندما نقيم مسافةً بيننا وبينها.

التخلّي لا يؤدّي إلى العدم، بل إنّه يقود إلى ملء السيطرة على الذات وعلى الكون. وليس فعل الامتلاك، إن لم تواكبه متعة العطاء بلا حسابٍ، سوى سجنٍ للذات. ولذلك أعلن المسيح تعذّر بلوغ الغنيّ الخلاص. فمن بقي مرتبطًا، ولو بجزءٍ ضئيلٍ من ممتلكاته، بقي خاضعًا لها. وبقدر ما يصعب عليه التخلّي عنها، تتضاءل فُرص تحرّره.

وطالما حافظنا على شعور التملّك، في مظاهره المختلفة، نبقى أسرى هذا الشعور، ويتحجّر قلبنا...

أثناء صلواتنا، فلْينبجس نبع الخلود، ولتَسْرِ مياهُه في كلّ ذرّات كياننا وجزئيّاته! ولْتتفتّت كلّ جوانب ذاتنا التي تحجّرت، ولتنشأ، شيئًا فشيئًا، داخل كياننا، فسحةٌ حرَّةٌ، ولتملأْها، يا ربّ، كلّيّةً، بنعمتك.

وحينئذٍ فلنُلْقِ نظرةً إلى داخل نفسنا، فنشهد، بقدرة اسم الله، توسُّع كلّ ما كان قد تقلّص، ونموّ كلّ ما كان قد ضمر في داخلنا، ويمتلئ كلّ كياننا فرحًا وسلامًا، ويكتسب جهدنا يُسرًا، وترتدي علاقاتنا بالآخرين بساطةً وحقيقةً، ويتجلّى البهاء الإلهيّ من خلال حياتنا الشخصيّة.

إنّ كلّ غرَضٍ لم نزهد به هو عائقٌ في دربنا، ووحده التجرّد يفضي إلى الانعتاق. ولكن من العبث محاولة إغراء كائنٍ اختار، طوعًا، العيش في الأسْر، بطعم الحرّيّة. فلفظة التحرّر لن توحي له سوى بالفراغ والصحراء والعدم. وستكون له فكرة الحرّيّة الناجمة عن تجرّده من ممتلكاته المادّيّة، وحرمانه من الأشياء التي، وحدَها، توفّر له شعورًا بالأمان، مرادفًا لكارثةٍ مريعةٍ.

الحبّ

الحبّ، وحدَه، يلبّي كلّ تطلّعات البشر. ومن يحبّ لا يرغب في معرفة سبب الحبّ ولا غايته. فغاية الحبّ هي الحبّ، والحبّ هو الجواب على كلّ سؤالٍ.

ينبغي السعي، بلا هوادةٍ، إلى الانعتاق من عوائق الأنانيّة، والتغلّب على سيطرة "الأنا"، وكذلك التمرّس بالتخلّي عن المكتسبات المكدّسة خلال الحياة. وعندما يغدو هذا التجرّد الداخليّ تلقائيًّا، تتلاشى، شيئًا فشيئًا، عادة إرجاع كلّ شيءٍ إلى الذات. هذه المسيرة المطّردة تفضي، أوّلاً، إلى حرّيّةٍ نسبيّةٍ، ولكنّها، في نهاية المطاف، تثمر قدرة الحبّ، وهي هدف التخلّي الأقصى.

وما الحبّ إلاّ الله ("الله محبّة")، فهو لا عهد له بحاجةٍ ولا بضغطٍ، ومع ذلك يفيض ذاته، بلا حدودٍ، على جميع خلائقه. وفي تقدمةٍ لا تنضب يودع طاقاته في أصغر ذرّات الكون، ومن خلال هذه التقدمة المستمرّة، المعبّرة عن حرّيّته الإلهيّة، تولد الخليقة كلُّها. إنّ الحبّ الموجود بذاته، الحبّ الذي يتجدّد دائمًا بذاته، هو روح هذا التجلّي اللامحدود، وهو نبعه.

ومن ثمّ، وحدَه الانصهار الكلّيّ في جوهر الحبّ كفيلٌ بتلبية تطلّعات القلب البشريّ تلبيةً كلّيّةً. ومن المحقّق أنّ التمرّس بالحبّ يعلّم الحبّ، إذ إنّ المرء يعبّر تلقائيًّا عن القِيَم التي يتماهى بها.

ولكنّ الحبّ حرّيّةٌ، وهو نقيض كلّ أشكال العبوديّة. إنّه ملتزمٌ التزامًا مطلقًا بشريعته الخاصّة، وليس ملزمًا بتبرير نفسه أمام أيّة سلطةٍ عليا. وبالتالي، فلكي نتّحد بالله الحبّ، علينا التخلّي عن كلّ ما يستعبدنا.

من أجل حبّ الله نزدان بكلّ الحليّ التي هو ينتظرها، ونرمي علـــى حافّـــة الطريق كلّ أحمالنا... وحينئذٍ من المؤكّد أنّ كلّ عواطفنا الأرضـــيّة، ســـتذوب تدريجيًّا في الحبّ الإلهيّ، وفي الغبطة الإلهيّة.

كلّ تقدمةٍ لله، أيّةً كانت قيمتها، ينبغي أن تُعطى بلا حسابٍ، فلا تـــدوّن في سجلٍّ، ولا يُطلَب عنها إيصالٌ.

فلنؤدِّ، كلّ يومٍ، تقدمتنا لربّ كلّ امتلاءٍ، بنيّةٍ صافيةٍ، وباندفاع كياننا كلّه. وليكن لنا ذلك، من خلال نشاطاتنا اليوميّة، سانحةً للقاء الله في سرّ كياننا.

صعوبات الوجود

في احتفالاتنا الدينيّة نسأل الربّ متوسّلين: "أسجد لك، أنت يا مُغدق السعادة، ويا مانح الخيرات!".

قد يسهل علينا عبادة الله، منبع السعادة، ولكنّنا لسنا دائمًا مستعدّين لعبادته بصفته منبع كلّ خيرٍ، إذ إنّ الخير ليس فقط المتعة، بل هو، أيضًا، المحنة. ونحن نقرّ أنّ السعادة تأتي من الله، غير أنّه يبدو لنا أنّ المحنة هي نتيجة حظٍّ سيّئٍ.

لذلك نتخاذل أمام مصاعب الحياة. فمن ينوء بوقر سوء فهم الآخرين له، أو بعبء الفشل، لا همّ له سوى تجنّبهما، بالتواري وراء سلسلةٍ من المتاريس التي يقيمها بين العالم وبينه، وإنّما هو، بذلك، يفقد كلّ سانحةٍ لعقد علاقةٍ كاملةٍ مع الواقع.

إنّ الإنسان الذي لم يعهد، منذ قدومه إلى هذا العالم، خيبات أملٍ، أو لم يصطدم بالأحكام الجائرة، وبطغيان السلطات، لم يتلقَّ من الربّ كلّ حقّه، وما زال يفتقر إلى عنصرٍ هامٍّ من الزاد الذي يؤهّله لإتمام رحلته الأرضيّة.

واقعيًّا، سواءٌ أَذِن الله بالمحنة أو أغدق الفرح، فلا بدّ من أن يوقظ في قلب الإنسان الشكرَ عينه. وحيال ظاهرة الأُلوهة المزدوجة هذه، فلْنسجد!

تنــاغم الأضــداد

وحده انفتاح القلب يتيح مصالحة الخصومات... فعندما يستيقظ التعــاطف والحنان، يتفجّر، بغتةً، وعيٌ للأُخوّة الأصيلة بين أشخاصٍ كانوا دائمًا متــأهّبين لتمزيق بعضهم بعضًا، كلّما اضطرّوا إلى تبــادل أقــوالٍ أو إلى المشــاركة في نشاطاتٍ.

منطقيًّا الواحد والاثنان يتعارضان، مثلما يتعارض "النعَم" و"الــلا". ولكــنّ المتحابّين يريدون أن يكونوا واحدًا واثنين في آنٍ واحدٍ، ويندمج لديهم الواحــد والاثنان في واقعٍ واحدٍ، ومع ذلك لا ينكرون اختلافاهم الأساسيّة.

إنّ "الأنا" الواعي لتميّزه وتفرّده لا قِبَلَ له على الانفتاح على بُعد الوحدة، ما لم يكن مدفوعًا بمشاعر المحبّة. ولذلك، في معظم الأحيان، يصعب على المرء فهم الدافع السرّيّ المنبثق من أعماق الذات، والذي قد يحمل على التضحية بالذات في سبيل إنسانٍ آخر، في حين تبدو له ردود الفعل الأنانيّة طبيعيّةً.

إنّ الربّ حبٌّ، وهو يجعل من الاثنين واحدًا، ومن الواحد اثــنين. وطاقاتنــا الفطريّة على محبّة الناس والأشياء تُظهر لنا، بلا جدالٍ، أنّه إن كــان الواحــد حقيقةً، فالمتعدّد هو، أيضًا حقيقةٌ. ولكنّ هذا الاكتشاف المدهش لا يتحقّق بعمل العقل، ولا يتجلّى إلا للمحبّين.

في ميدان التجارة والمبادلات، فعلا الامتلاك والتخلّي ينتميــان إلى نظــامَيْن مختلفَيْن، متّصلين بوضعَيْن متنابذَين. ولكن في ميدان القلب يتســاوى ذانــك الفعلان. فالعطاء إلى شخصٍ محبوبٍ، هو عطاءٌ للذات، إذ إنّ المــنح والتلقّــي

كلاهما منابع فرح، وفي الفرح يندمج الدائن والمدين. وكذلك يفيض الله ذاته على كلّ خليقةٍ، في تقدمةٍ هي سعادةٌ، وفي مبادرةٍ هي حبٌّ؛ وهو، في عطاء ذاته يتجلّى. وعند مَن يحدوه العطف، فعل التقدمة وفعل التلقّي، كلاهما عطاءٌ.

لمن يحبّ لا توجد هوّةٌ يتعذّر اجتيازها بين المعرفة واللامعرفة. قد لا تملك الزوجة فكرةً واضحةً عن شخصيّة زوجها المعقّدة، غير أنّها، بفضل حبّها له، وما تحيطه به من حنانٍ، تجد فرحها، وتستجلي دخيلة نفسه خيرًا من أيّ معالجٍ نفسيٍّ. فما لا يدركه العقل يتبيّنه القلب في الحال.

في ميدان الحبّ يتساوى الخضوع والاستقلال. فعندما يحبّ المرء لا يقلّ شعور ارتباطه بالآخر، عن قدرته على التقرير بمفرده.

إنّ الله، في آنٍ واحدٍ، حرٌّ وغير حرٍّ. فلو لم يكن إلاّ لامحدود الحرّيّة لبقي جامدًا، غير فاعلٍ. ولو لم يربط ذاته بالعالم، لما وُجدتْ خليقةٌ، أو لفقدت الخليقة الموجودة معناها وشريعتها. إنّ حالة السعادة الكلّيّة التي يتجلّى بها الله هي التي تحدّه وتربطه، وتجعله واحدًا منّا، متجلّيًا من خلال جمالات الأشكال، مرتبطًا مع كلٍّ منّا بعلاقة صداقةٍ، صديقًا لنا وأبًا. ولكن، ما كنّا لنشعر بحضوره، لو لم يختر هو أن يحدّ ذاته بمقاييسنا. ولم يكن قطّ بوسع أيّ إنسانٍ التلفّظ بهذه العبارات التي تستعصي على الفهم: "إنّ خالق كلّ شيءٍ هو أبونا وهو صديقنا". أيّة رؤيةٍ هي الأسمى: رؤية خالقٍ كلّيّ الطهر، كلّي العلم، كلّيّ الحرّيّة، أم رؤية الله الأب، الصديق، القرين، الذي، في سبيل التواصل مع كلّ كائنٍ يُخضع ذاته لخليقته؟ في الواقع هذان الوجهان الإلهيّان اللذان يستشفّهما الإنسان يتساويان سموًّا.

إنّ حالة الاعتماد على آخر تبدو لنا من الصغارة بحيث جعلناها مرادفًا للعار.

وما هذه إلاّ واحدةٌ من الآراء الخاطئة العديدة التي يمليها علينا عمى بصيرتنا. وبالتالي، فقد غدا مفهوم الصغَر، يوحي لكثيرين بالازدراء، وغدت لفظة الكِبَر مرادفًا للنبل... وفي هذا السياق نمسّ أحد أكثر أسرار الخليقة إدهاشًا، إذ إنّ الحدود تتيح تجلّي اللامحدود. وهذا المفهوم يتخطّى الفهم.

مثلما تُعنى الأُمّ بابنها، ويعنى المحبّ بحبيبته، كذلك يُعنى الله بكلّ كائنٍ، من أقصى الكون إلى أقصاه. ولأنّه يقوم، هكذا بخلقه خلائقه، يرتدي فعل الخدمة نبلاً لامحدودًا... إنّه يفعل ذلك، لكي، على جميع الصُّعد، وبكلّ الوسائل الممكنة، يهتف في أعماق كلّ إنسانٍ: "انظر، إنّي أهبك سعادتي، فقدّم لي، بالمقابل، فرحك". هكذا يكلّمنا هو الذي، في كلّ لحظةٍ يأتلف مع نغمة المحدود السحريّة لكي تتجلّى الموسيقى كاملةً، ولكي تُنشَد قصيدة الحبّ.

ولكن، من حيث لا تتساوق عواطفنا تساوقًا كاملاً مع الحضور الإلهيّ، تولد أمواج نشازٍ، تنتشر في كلّ أرجاء العالم، مسبّبةً آلامًا ودموعًا لا تنتهي. غير أنّك، أنت الحبّ الكلّيّ، تأبى أن تسيطر على قلوبنا عنوةً، ولا تسعى إلاّ على افتتاننا وإغوائنا، حتّى يحين يومٌ نقدّم لك فيه ذواتنا تقدمةً كلّيّةً، ونسدّد، أخيرًا، دَيْن الحبّ. هذا هو سبب كلّ تلكّؤاتنا. ولذلك، أيضًا، عندما يحين المساء، لن نكون، أبدًا، متأهّبين، أُهبةً كاملةً، لاستقبالك، أنت يا حبيب نفوسنا.

غـايـة الصـلاة

بمنأًى عن المحبّة، لا يؤتينا السلام أيّة جدوى.

فلئن كانت الصلاة توفّر لنا شيئًا من الطمأنينة، وإن غشى نفوسنا السجوّ مدى لحظاتٍ، قد نغترُّ متصوّرين أنّ كلّ شيءٍ قد تحقّق واكتمل. بيد أنّ مشاكلنا لا تُحلُّ على هذا النحو. بل لا نلبث أن نتبيّن أنّ لا شيءَ تبدّل في داخلنا، وأنّ علاقاتنا بالآخرين وبالأشياء لم تصطلح...

إنّ انكفاءنا على ذاتنا من شدّة الأسر بحيث نجعل من شخصٍ الفلك الذي يدور حوله كلّ شيءٍ، وبالتالي يزداد كوننا الشخصيّ ثقلاً كلّ يومٍ. وعندما يستقطب الأنا كلّ شيءٍ، يعترينا شعورٌ دائمٌ بالضغط، فتسحقنا أبسط التوافه، والأقوال الأكثر براءةً.

أمّا فعل المحبّة الذي يدفعنا نحو الآخر، فسرعان ما يسبغ على الوجود رشاقةً، وعندما يفيض القلب عطفًا، يتلاشى كلّ ضغطٍ.

وفي الميدان الروحيّ، ينبغي أن تؤتي صلواتنا ثمارًا مماثلةً. فطالما ظلّت مهامّنا اليوميّة تبهظنا، فمن المؤكّد أنّنا لم نُصِب، بعدُ، هدفنا. وإذا استمرّت هموم المال تقلقنا، وإن لم تفقد الأعباء المادّيّة ثقلها علينا، وإذا بقيت الترّهات مستحوذةً على اهتمامنا، ونحن عاجزون عن تبيّن بطلانها، فلا بدّ، حينئذٍ، من الاعتراف بأنّنا لم ننفتح انفتاحًا صحيحًا على الغير وعلى الله...

المحبّة هي، في آنٍ واحدٍ، السلام ونقيضه. هكذا المحيط الخاضع لنظام المدّ والجزر لا يُظهر، دائمًا، سطح مياهٍ ساكنًا، بل يُثبت، أيضًا، أنّه متوثّبٌ وعاصفٌ.

وهكذا ما لم نستسلم لسلطان المحبّة، فتطلُّعنا إلى السلام باطلٌ.

ربّاه، لا تَدعْنا، أبدًا، نتعفّن في المياة الراكدة الآسنة!

في الصباح الباكر، عندما يُشرع لي الليل أبوابه لكي أستقبل نـــور الفجـــر المقنَّع، فلأستَشفّ، بقربي، وجه الصديق الأسمى! وحينئذٍ، سواءٌ أتتني الســـاعات بالأفراح أو بالمشقّات، أو بمواكب الهموم، سأحتفظ بذكرى حضوره، وأتيقّن أنّ مشاكل هذا النهار ستلقى حلاًّ، وأنّ الحياة ستبدو لي خفيفةً.

يا صديقي الحبيب، عندما أشعر أنّك لا تحبّني، أتوق إلى الســـلام، وفي هـــذه اللحظات تبدو لي قدراتي من العجز بحيث لا تحتمل أيّة صدمةٍ. ولكن ما إن أعي أنّني استعدت حبّك حتّى أنبري لمواجهة الضغوط والآلام، شامخ الهامة، ويتجلّى فيّ حضورُك وعملك.

يا صديقي، لن ألتمس منك، بعدُ، في صلاتي، السلام، ولـــن أتطلّـــع إلاّ إلى استقبال حبّك، سواءٌ بدا حاملاً الفرح أو الألم، السجوّ الهـــادئ، أو الانـــدفاع الجامح.

وبأيّ وجهٍ ظهرتَ لي، سأهتف في الحال: "يا صديقي، إنّـــي أتعرّفـــك! يـــا صديقي، إنّ قلبي يعرف من أنت!".

الرؤيــة

إنّ نور الصباح يأتي لكلّ زهرةٍ لم تتفتّح، بعدُ، بوعد ازدهارٍ كاملٍ، ويبشّــر القمح الذي لم ينضج بعدُ، بالحصاد القادم الوفير، وفي كلّ يومٍ، يجعل نور الفجر أشعّةَ رجاءٍ ترقص بين الزهور والسنابل.

وفي كلّ صباحٍ يحدّث النور، دائم التجدّد، نفسنا، فيما يشقّ ستائر نومنــا، حاملاً إلينا، أيضًا، بشائر الرجاء. أفلا يوحي لنا بتحقيقٍ يحاكي تحقيــق بــرعم الورد، وإزهار شيءٍ ما ينضج في ليل دخيلتنا، مثل سنبلةٍ مــلأى تترقّــب، في صميم كياننا، لحظة الانطلاق نحو ذرى السماء... غير أنّ جفوننا مــا زالــت مغمضةً تعيق رؤية الأشياء، رؤيةً صحيحةً.

ولكنّ نور كلّ صبحٍ، من نبعه السحيق، يحرّضنا على إنعام النظــر، هاتفًــا: "انظر!". هذا الهاتف الذي يقرع آذاننا، ينطوي على تأكيدٍ لا يني يتجدّد: إنّ في نظرتنا المحدودة تكمن بذرة رؤيةٍ جديدةٍ، ما برحت، اليوم، غافيةً، غير واعيةٍ لما يؤول إليه نضجها البطيء.

إنّ الكون الذي يسفر عنه نور الفجر، منــزّهٌ من ضيق عالمنــا الشخصــيّ الصغير، الذي غالبًا ما يقتصر على السرير والغرفة التي نستيقظ فيها. ففي كــلّ مكانٍ تعلوه قبّة اللازورد، وحتّى نهايات الأُفق، تتيح لنا الشمس الشارقة، فيمــا هي توشّي الكون بضيائها، فرصةً لاكتشاف جماعــاتٍ غفــيرةٍ مــن الخلائــق والأشياء، التي تزدهي ببهاءٍ يستعصي على الوصف.

من هذا الكون، متعدّد القدرات، لا نسعى إلى استمداد سوى الزهيد من الثروة والسلطة، أو شيءٍ من الشهرة بين البشر. ولكن عندما ستطبق عيوننا إطباقًا كلّيًّا، نُحرَم هذه السانحة التي توفّرت لنا باستمرارٍ. وهل يُتيح لنا المال واللذّة والشهرة أن ننعمَ كلّيّةً، على هذه الأرض، بالروائع التي نُعطى تأمّلها، حين يأتي النهار الوليد كي يقدّس نظرنا؟

إنّ نور النهار، الذي يعِدُ بُرعُمَ الزهر، الذي ما برح مغلقًا على ذاته، بتفتُّحٍ يبدو متعذّرًا، يداعب عيوننا برجاءٍ يتعذّر تصديقه، هاتفًا: "في داخلك يتكوّن أُسلوب نظرٍ مختلفٌ، كلّيٌّ ولامحدودٌ. وما وجودي هنا كلّ صباحٍ، إلاّ لكي تعلم أنّ هذا النظر "سيمتلئ اكتمالاً، ذات يومٍ".

لا ترى عيوننا رؤيةً صحيحةً، ولا تميّز جوهر أيٍّ من الأشياء المحيقة بنا، ولا حتّى من أصغر عشبةٍ... ولذلك يأتي النور، كلّ صباحٍ، كي يطرد من عيوننا خمول النعاس، وكي يبثّ فينا قدرة رؤيةٍ جليّةٍ وصافيةٍ.

إنّ قدرتنا على الرؤية ما زالت محدودة النموّ، وعاجزةً عن استشفاف الجمال الخالد من خلال وجهٍ بشريٍّ... يوم ستستطيع عيوننا إعلان هذه الحقيقة، ستكون قد حقّقت قدرتها الكمينة على الرؤية الكاملة. وهي، حينئذٍ، عندما ترنو صوب السماء، ستكتشف الوجه الإلهيّ، "وجه النعمة". وحينئذٍ سننحني خاشعين أمام كلّ شيءٍ: أمام الحيوانات والنباتات، ونتحرّر من شعورنا بالتفوّق عليها. ويمسي بمقدورنا أن نردّد مع "الأوپانيشاد": "إنّني أنحني أمام محيي الكون بأكمله، من أصغر عشبةٍ حتّى أعتى شجرةٍ".

النـار الإلهيّـة

(يستشهد الشاعر بتلقّي والده "الاستنارة" (العماد الروحيّ)، فيصفه بأنّه كان إعـدادًا للنار والسلام معًا):

"لقد سمع "ديبيندرانات" (والده) الربّ يقول له: "هذه الهبة التي تتلقّاها منّي اليوم تُدعى الحقيقة. وعنايتُك بها تعني وداعَ كلّ استكانةٍ. فعليك أن تتيقّظ ليلَ نهارَ. وإن اقتضى بقاءُ حقيقتي حيّةً فيك أن تخسر كلّ شيءٍ، فلْتخسرْ كلَّ شيءٍ. وحذارِ من أن تفسد الحقيقةُ بجريرتك".

ويضيف: "من ابتغى أن يغذّي في ذاته النار الإلهيّة، لا يعهد راحةً ولا نومًـا. إنّ الحقّ لا يحتمل مكرًا، ولا تقلّبًا، ولا أعذارًا، ولا يتوافق لا مع الرياء الـذي يدفع، دائمًا، إلى سلوكٍ مزدوجٍ، ولا إلى حججٍ يكذب بها المرء على نفسه.

ليس الوفاء للحقّ إغضاءً وتعاميًا عن واقع الأشـياء، مـن أجـل كسـب ودّ المحيط، ولا بالأحرى من أجل سرقة الإلهيّ وما هـو حـقٌّ لـه، وبيعـه في سوق البشر.

إنّ تبنّي الحقيقة وسط المِحَن ومواكب الأحزان، ثمّ الإقدام، بلا خشيةٍ علـى تدمير قصور الرمال التي نتّخذ منها ملجأً، من أجل الظفر بحقّ الدخول إلى مقام الآب، مقصدنا النهائيّ ومسكن خلودنا، والملاذ الذي يعدنا به الصديق الوحيد، هذا هو "العماد الإلهيّ".

لا نَدَعنّ النور الذي يقدّم لنا ذاته، ينتظر عند مدخل نفسنا، فيما نحن نواصل دربنا لا مبالين. بل فلْنستقبله في داخلنا، ولننعشه بعنايتنا وحبّنا، عسى أن يغدق على حياتنا اليوميّة كنوزًا.

وأنتَ يا معلّمنا، الذي يرشدنا إلى طريقه، إن لم تكن نفسنا، بعـــدُ، متأهّبـــةً، فأهّلها لاستقبالك. اضرب بقبضتك وجداننا الغافي، كي يستيقظ وينير كياننا.

ولكن لا تُشِحْ وجهَك عنّا. ومهما أصابنا من وهَنٍ، لا تُقصِـــنا إلى خلـــف مختاريك. إنّنا نريد اعتناق الحقيقة، في هذه الحياة، بلا تردّدٍ ولا وجلٍ. فلا تسمح بأن يكون وجودنا باطلاً، أو أن نبدّده بين نفايات الضلال. إنّ كياننا، بكلّيّتـــه، يستدعي التأهّب لحقيقتك. فهبنا قوّة الانفتاح عليها.

فرديّـةٌ ووحـدةٌ

عندما تقدّم لنا طيورٌ من جنسٍ واحدٍ نشيدَها الصباحيّ، فهي تصدح بلحـنٍ واحدٍ، وتأتلف أصواتها ائتلاف جوقةٍ متناسقةٍ عذبةٍ. ولكن، في صخب الأصوات البشريّة، لا تأتلف لا الأصوات ولا الكلمات. فعندما ميّزنا الربّ بـ "أنا" خاصٍّ، فصلَنا عن كوننا، وفصل بعضنا عن بعض. فانكفأ الإنسان في قوقعته، وفي ملاذها صاغ صورته الذاتيّة بجهوده الخاصّة، وفقًا لأذواقه ورغباته الخاصّة. ومن ثمّ أصبح كلّ فردٍ عقبةً في وجه جاره، وبات يصطدم بآخرين في كلّ لحظةٍ، ويلجأ، غالبًـا، إلى الصراع والمنافسة. ونجمت عن ذلك توتُّراتٌ وخلافاتٌ لا تحصى.

وإذ نحن غارقون في هذه الخلافات والتباينات الناتجة عن فرديّتنـا، نصـبو، بحرقةٍ، إلى الوئام والتفاهم، والتضامن. وفي قرارة نفسنا يطغى هذا المطلب علـى مستلزمات الحياة اليوميّة.

ومن ثمّ، في كلّ مكانٍ من العالم، يُكبّ البشر على معضلةٍ بعينها، بحثًـا عـن وسيلةٍ تمكّن الجماعات والشعوب من العيش في جوّ التفـاهم، مـع احتـرام خصوصيّات الأفراد والجماعات والأُمم...

... خلف كلّ رغبةٍ بشريّةٍ يكمن تطلُّعٌ وحيدٌ: البلوغ، أخـيرًا، إلى ضـفّة الكيان الأُخرى... حيث نستشفّ ملء الحبّ الإلهيّ. وما لم يملأ هـذا الحـبّ اللامحدود كياننا، فلا شيء يستطيع إرواء ظمأ نفسنا، ولا نكفّ نزداد، كلّ يومٍ، موتًا، متحوّلين من طريقة تفتُّتٍ إلى أُخرى. ولا نهاية لمأساة الوجود هذه، سـوى التناغم مع كلّ موجودٍ.

يسعنا القول إنّ الربّ قد فصلنا عن خليقته، وحبانا "أنا" مميَّزًا، من أجل التمتّع بمبادرة حبّه. فلولا هذا الــ "أنا"، لما شعرنا بعزلتنا، ولما سعينا إلى الاتّصال بآخرين، ولما عرفنا سعادة الحبّ.

الحبّ هو ما نصبو إليه بكلّ جوارحنا. والحبُّ لا يولد إلاّ حيث تتوازن قوى التنوّع، وقوى الفرادة، وحيث لا تضير الفرديّةُ الوحدةَ، ولا تدمّر الوحدةُ الفرديّةَ. وعندما تتعايش كلّ هذه التي تبدو متناقضاتٍ، يمسي كلٌّ منها عنصر ازدهارٍ للآخر.

كلٌّ منا يسعى إلى تحقيق شخصيّته تحقيقًا كاملاً، وفي الآن عينه إلى التواصل مع الغير، حريصًا على الجمع بين هذين الهدفين. وما لجهودنا ولإبداعاتنا من غايةٍ سوى تحقيق التناسق بين هاتين النزعتَيْن المتكاملتَيْن، كي تتواصل كلٌّ منهما مع الأُخرى، ولا تفقد شيئًا من ذاتها. وعندما يعبر بنا إله الحبّ إلى الضفّة الأُخرى، سيتحوّل ألم الفراق الذي طالما سحق قلوبنا، إلى سعادة الوحدة الأبديّة، وسيُترع كأس انشقاقاتنا بكوثر الوئام، وسيروى عطشنا إرواءً أبديًّا. وحينئذٍ، سندرك كم كان كنْز فرادتنا يفوق كلّ ثمنٍ.

غداة العيد: فرحٌ عابرٌ، وفرحٌ مقيمٌ

دربان يُشرَعان لمن ابتغى أن يعقد علاقةً روحيّةً مع الإلهيّ. فبوسعه انتهاج درب المُعْدَم حيال المحسن الغنيّ الذي يتولّى أمره؛ وفي هذه الحال يعتريه شعورٌ بهوّةٍ سحيقةٍ يتعذّر اجتيازها بين الله وبينه، تعيق اندفاعه. ولكن، إن هو وعى أُلوهته الكمينة، فسيتقدّم بثقةٍ، ولا يتلبّث منتظرًا، مثل مستعطٍ، عند باب الربّ، بل يدخل ويتّخذ لنفسه مجلسًا بقربه.

الإنسان الذي يقتصر على الموقف الأوّل، موقف ضعةٍ سلبيّةٍ، يجهل ملء الوحدة الحقيقيّة، ولا يعرف سوى استجداء نصيبه من السعادة، من أمير كلّ سعادةٍ. ومن ثمّ، فعندما تسنح له فرصة لهوٍ، يستسلم بلا قيدٍ إلى نشوة اللحظة الراهنة، مبدِّدًا كلّ ما يملك، هاتفًا: "اليوم سأزري بفقري، وتبًّا للبخل والتقتير. فلْيمتلئ قلبي بهجةً، هذا النهار، ولْيظهر بذخي للعيان".

فما هو الغنى الذي يصبو إليه؟ وما تعني حاجته إلى السعة؟ إن هو أصغى إلى الجواب في أعماق نفسه، وإن هو شعر، مدى بضع ساعاتٍ، بحضور من هو عطاءٌ لا ينضب، داخل ذاته، حضور من لا يظهر له بمظهر السيّد الذي يحب إفاضة إحساناته فحسب، بل من يعترف به صديقًا حميمًا، فهو، حينئذٍ، يشهد لهذه العلاقة الجديدة، ويفيض سروره من حوله.

ولكن، طالما لم تترسّخ علاقة الحميميّة بينه وبين الإله الساكن فيه، فقد يستطيع إدراك إعلان قرب الإلهيّ من نفسه، ولكنّه لا يستمدّ منه سوى اندفاعٍ

عابرٍ، سرعان ما يتلاشى مع انتهاء الاحتفالات. وفي الغداة، عندما يلمح نفايات العيد المبعثرة هنا وهناك، والشموع التي ذابت، وباقات الزهور التي ذبلت، تعتريه الكآبة، ويفقد كلّ أثرٍ لسخاء الفكر المنتشي بهجةً، ويبروز ثقل جردة الحساب، فيجتاح نفسَه الأسى.

وحده ينجو من خيبة الأمل من يكوّن، يومًا إثر يومٍ، في أعماقه، رأسمالاً متواضعًا من الرضى، فيحيا أيّام اللهو الجماعيّ، متحرِّزًا من النشوة الباطلة، إذ لا مجال، عنده، للشعور بقطيعةٍ بين الحياة اليوميّة، والأفراح الجماعيّة الطارئة. فهو يقيم بينهما، بوعيٍ، علاقةً وثيقةً، مدركًا أنّ المرح المواكب للأعياد لا ينبع من داخله، بقدر ما ينجم عن حضور المدعوّين، ومنظر الزينات، والأضواء، والزهور، وتأثير الخطابات، والموسيقى والأغاني... والتي يفضي غيابها إلى إشاعة الفراغ في النفوس التي لا تقطن فيها الأُلوهة.

شرط المهرجـان

إذا كان كافيًا تبيّن الله من خلال إشعاعه، سبيلاً إلى العثور عليـه، فسـنبلغ هدفنا بلا عناءٍ. ولكنّ الله أقام شرطًا من أجل رؤيته والاتّحاد به: أن يضطرم في قلبنا لهبٌ، مهما كان ضئيلاً. ومن أجل ذلك زوّدنا بشخصيّةٍ مستقلّةٍ. ومن ثمّ، عندما تتّقد نارنا، يغدو بوسعنا إضرام شعلة المهرجان الأسمى.

ولكي تستشعر نفسُنا الفرحَ العارم المتأصّل في هذا العالم، علينا أن نوقظ فرح الوجود الكامن في داخلنا. ولكي نتلقّى المعرفة الشاملة، المتوفّرة في كلّ لحظةٍ، لا بدّ لنا من إضاءة مصباح معرفتنا الذاتيّة. ولن نمتلك أبدًا الحـبّ الـدافق بـلا نضوبٍ، الذي يفيضه الربّ طوفانًا على خليقته، ما لم تتفتّح في قلبنا طاقة الحبّ التي أودعت بذرتها فيه، مثلما تتفتّح زهرة الياسمين.

وسيكتشف كلّ امرئٍ الله، ذات يومٍ، على ضوء الشعلة التي تضيء سـريرة نفسه. وهذا هو منبع كرامة الإنسان التي تُفرح الربّ. فـإزاء هـذه الشـعلة الضئيلة التي تنير نفسنا، يُشعّ سعادةً وجهُ ذاك الذي يـنظّم دورة الكواكـب. وستحين لحظةٌ نعاينُ فيها البسمة الإلهيّة.

من خلال هذا الاختبار، سيستيقظ فينا وعيٌ روحيٌّ كاملٌ. وعسى أن ينتـزع هذا الوعي جسدنا من خموله، ويشيع في كلّ كياننا تيّار فرحٍ. فلْينسكب هذا الوعي المضيء على ظلمات ليلنا، نابضًا في داخلنا، متناغمًا مع الأمـواج الخلاّقـة. ولا تسمح، يا ربّ، أن يتبعثر ويتبدّد في الهموم اليوميّة، أو أن يختنق من جـرّاء ضـيق منْـزلنا، بل فليبقَ، أبدًا، وفيًّا لذاته، ولا يحجبه أيّ مظهرٍ خدّاعٍ عن أبصارنا!

وهكذا، سيتحقّق الرجاء الكونيّ. ففي كلّ مكانٍ، وحتّى قلب الأبديّة، ستستمرّ الاستعدادات للمهرجان الكبير الذي سيأتي برؤيةٍ جديدةٍ، وإصغاءٍ جديدٍ، وأنغامٍ مذهلةٍ، وتواصلٍ كاملٍ مع كلّ كائنٍ، إلى أن يستيقظ الوعي الإلهيّ في كلّ إنسانٍ.

عطش التملّك

كانت تعاليم الهندوسيّة الأخلاقيّة تشيد أسمى إشادةٍ بالسلوك القائم على تأمين احتياجات الإنسان الشخصيّة، واحتياجات أُسرته، يومًا فيومًا، بمنأًى عن أيّ اهتمامٍ بالغد، موضحةً أنّ النزعة إلى امتلاك أكثر ممّا هو ضروريٌّ، تحوّل المرء، سريعًا، إلى آلةٍ لتكديس الممتلكات، وإلى أخطر من ذلك، أي إلى تجاهل، بل إلى خيانة طائفةٍ من القِيَم الأساسيّة، بل إلى خيانتها.

ولا نظنّنَّ أنّ هذا المبدأ لا ينطبق، أيضًا، على الميدان الروحيّ. فإذا أنا أكثرت من أفعال البرّ، طمعًا في مكافأةٍ لاحقةٍ، سيستحوذ عليّ الجشع، مثلما يستحوذ على البخيل المهووس دائمًا بالمزيد من التكديس، فأسعى إلى تخزين استحقاقاتي، غير مهتمٍّ إلاّ بالمزايا التي قد أجنيها منها، وأغدو عاجزًا عن أداء صلاةٍ متحرّرةٍ تلقائيّةٍ، وبذلك أخنق الفرح في قلبي باسم الفضيلة، متخيّلاً أنّني أكبُرُ في الوَرَع.

... فلْنجعلْ من لحظات صلاتنا تعبيرًا عن اللحظة الراهنة، لا وسيلةً للظفر بالسلام والفضيلة، والتحرُّر، وإنجازاتٍ أُخرى، في مستقبلٍ قريبٍ أو بعيدٍ.

ولْنتعلَّم أن نقدّم للربّ كلّ نعمةٍ نتلقّاها منه، ولْندَعْها تنساب من أيدينا إلى يديه، فهباته لا تكتمل قيمةً، إلاّ عندما نعيدها له بلا رجوعٍ.

إذا زعمتُ أنّني بالصلاة أُضاعف ثوابي، فلن تكون صلاتي مكرّسةً له تعالى بالكامل، بل هي تتبدّد جزئيًّا على مذبحِ فضائلي.

ربّاه! فلْتُقَدّم كلّ أقوالي، يومًا فيومًا، لك وحـــدك، ولا أُخضـــعها لغايـــاتي الخاصّة. وإن هي آتت ثمارًا، فليكن الحصاد حصادك!

وكنْ، أنت، يا من كلامه صمتٌ، مصدر فكري وأقوالي الوحيد، ولتنبع كلّ فائدةٍ ناجمةٍ عن تأمّلاتنا من حضورك فحسب، وإن كان لا يزال لأقوالي جـــذورٌ غائصةٌ في أناي المثقل بالأشواك، فاقتلعها بكاملها من تفرّعاتها الأخطبوطيّة!

أوقيانُس الحيـاة

يا أُوقيانُس السعادة، إنّ شاطئ الأرض الدنيا وشاطئ الآخرة، كليهما لـك. ولكن إذا أنا عددت أحدهما ملكي، فإنّما أعزله، وأُفقده معنى اكتماله. وبالتـالي، على هذا الشاطئ الذي عددته ملكي، لن تكفّ الحياة عن التنهّـد أسـفًا علـى الشاطئ المفقود.

إنّ "الأنا" المنعزل يسعى، جاهدًا وبلا هوادةٍ، داخل قوقعته. وما دام عـاجزًا عن قول: "هذا المسكن الذي أُقيم فيه هو، أيضًا، بيتك، وفي داخله نحن متّحدان في كلّ لحظةٍ"، فسيظلّ أسيرًا تجتاحه الأحزان والهواجس. وفيما هو يحرص على ترميم سجنه، تنفث نفسه قنوطها هاتفةً: "آه! خذني إلى الشاطئ الآخر"...

وطالما ظلّ "الأنا" جاهدًا كي يحقّق بمفرده ما يسمّيه "عمله"، كم من الجراح يتلقّى، وكم من الضربات يُنْـزل بالغير!... ولكن إن أعلن، أخيرًا: "إنّ هـذا العمل الذي اضطلع به هو، أيضًا، عملك، فكلانا، هنا وفي أيّ مكـانٍ آخـر، نعمل معًا، فيغدو بمكنته اجتياز محيط الكيان، من غير أن ينأى عن هذه الشطآن.

وإذا أنا وعدتُ أن أجعل من بيتي بيتك، عسى أن نكون واحدًا، فلا ريـب أنّي أكون حينذاك، مستعدًّا لأن أدعك تدخل إليَّ، ولكن لن أكون مهيّأً للاتّحاد بك في لامحدوديّتك.

وإذا أعلنت: "سأهجر بيتي، وسأدخل إلى بيتك، وسأتخلّى عن عملي، كـي أنكبّ على عملك"، فسيقتصر توقي على الوثوب صوبك، من غير أن أفتح لك أبواب كياني. وفي الحالتين كلتيهما لن تعبّر قراراتي وأحلامي عن دفـق وحـدة الحياة، ولن تتحرَّر من واقع الانفصال.

وإن لم أكن أنا فيك، وإن لم تكن أنت فيّ، فالنتيجة واحدةٌ لشخصي الهزيل: اللااكتمال. ومن ثمّ، في مسكني الموصد، وأيًّا كان العمل الذي أنصرف إليه، يدوّي صدى هذا الهاتف: "خذني إلى الشاطئ الآخر!".

ولكن، في الحقيقة، هنا هو أوقيانس الحياة، وهنا هما الشاطئان كلاهما.

حضـور الله

إذا بدا الله لنا متعذّر المنال، نزعنا إلى وضعه في مكانٍ قصيٍّ لا يُطال، مع أنّه جوهر هذا العالم أكثر من أيٍّ من العناصر التي يتكوّن منها. ومع أنّه حياة حياتنا، لا نوليه من الاهتمام أكثر ممّا نولي أحجار الجدار، ونقصيه إلى مـا وراء تخـوم الكون، غير متبيّنين مدى الضرر الذي نلحقه بذواتنا. فمن جرّاء إبعاد الله عـن واقعنا، يرزح وجودنا الشخصيّ والعائليّ، ونشاطاتنا كلّها، تحت وقر غيابه.

عندما نسمع الحكماء يؤكّدون هذا الواقع بلا لَبْس، نُبَاغَت بتبيُّن حمق زعمنا أنّ من هو في صميم كلّ كائنٍ، متعذّر المنال في لانهائيّته.

إنّه الموجود في كلّ مكانٍ، الذي يحيط بنا من كلّ جانبٍ. إنّه النفس الكونيّة التي تندمج بالكائنات والأشياء. إنّه كلّيّ الحضور، وهو نبع النفس، ومحييهـا في كلّ لحظةٍ، ولا يطيق عنها فكاكًا. إنّنا نظنّ أنّنا مسيّرون بشتّى الدوافع: المـال، والأمجاد، والعلاقات الاجتماعيّة. بيد أنّ الذين عرفوا شاطئ الكـون الآخـر، يكشفون لنا أنّ النفس الكونيّة لا تتحرَّك إلاّ بكلّيّ الحضور، ولا تعمل إلاّ بدفعٍ منه. فأيّةً كانت أقطاب الجذب التي تستميلنا ظاهريًّا، فهو الذي يمـارس علينـا الجاذب الأقوى... وكلّ ما يتحرَّك يسعى دائمًا نحوه، تحدوه حاجةٌ حارقـةٌ إلى الاتّحاد به.

إنّه كلّيّ الحضور، وهو مصدر نشاطاتنا الجسديّة والذهنيّة. إنّه المحرّك الأوّل، الذي لا يقيم في ما وراء الأشكال، بل هو موجودٌ في كلٍّ منها، ها هنا، وفي كلّ لحظةٍ.

إنّه غنانا الأسمى، ومسكننا الأخير، وسعادتنا العليا... وهو يتجلّى في ما يوفّر لنا عونًا ودعمًا، وفي مُتَعنا وأفراحنا، وهو جوهرها. إنّه كلّيّ الحضور الذي يمكن بلوغه في كلّ الأمكنة، وتحت كلّ الأشكال.

وعندما أُفلح في تبيُّن الطاقة الوحيدة التي تحرّك العالم، في كلّ أفعالي، وأكتشف في كلّ إنجازاتي المُنجَز الأسمى، وفي أصغر أفراحي من هو السعادة الصافية، حينئذٍ سأعرفه هو، كلّيّ الحضور، وحينئذٍ أكون قد اجتزت محيط الحياة.

مقوِّمات الحضارة الحقّة

لا يقتصر معنى الشخص البشريّ الحقّ على "أناه" المحدود، ولا يتجلّى إلاّ في المدى الرحب حيث ينغمس ويتدفّق. ومن ثمّ يستخدم كلّ إنسانٍ، بلا هوادةٍ، ذكاءه، ومشاعره ومبادراته، من أجل توسيع رقعة خبرته للعالم. ولا مطمع له إلاّ الاتّحاد بالكلّيّ وبالجميع، موقنًا أنّ ذلك هو سبيله الوحيد إلى بلوغ كمال كيانه؛ ونفسه لا تتغذّى إلاّ برغبةٍ وحيدةٍ: تحقيق ذاتها من خلال كلّ عنصرٍ من عناصر الخليقة.

إنّ الجماعة التي تقوم حول هدفٍ ثقافيٍّ وإنسانيٍّ، تتمكّن من توسيع ميدان خبرة النفس، وبذلك تحقّق عظمتها. ولكن، إن هي لم تستهدف سوى اكتساب الثروة والرفاه المادّيّ، فهي لا تسهم أيّ إسهامٍ في بُعْد الإنسان الإلهيّ.

في بلدٍ يسوده حبّ المعرفة، واحترام الآخر، ومعنى الجهد، لا تُخنَق الشخصيّة، ولا تُقمَع، ويجد فيه حتّى الفرد قليل المواهب، فرصةً للنموّ، ويشعر كلّ فردٍ، بفضل اشتراكه مع الغير واندماجه في الجماعة، بتنامي مواهبه وقدراته.

ولكن حيث لا تلقى هذه الخصال تقديرًا، يُمنى بالعجز حتّى الموهوبون فطريًّا، والمتمتّعون بالقوّة الحيويّة، وبثقةٍ متينةٍ بالذات، لأنّهم لا يجدون مجال عملٍ بمستوى قدراتهم... وإن أحسّ بعضهم بامتلاك حقائق وكرامةٍ تبتغي البروز، فهم لا يمتلكون قدرة التعبير عنها، فتُجهَض محاولاتهم، ويرسفون في فقر القلب والفكر.

لهذا السبب، ينبغي أن تستهدف كلّ أُمّةٍ، في المقام الأوّل، إنماء الحضارة بالمعنى الفعليّ للكلمة، وإنماء الثقافة بكلّ أشكالها، عوضًا عن تصنيع آلاتٍ لا تني تطوّر أداءَها، وابتكار وسائل اتّصالٍ دائمة التقدّم. ولا بدّ أن يكون الإنسان هو الهدف النهائيّ للإنجازات المادّيّة، وإلاّ فهي فاقدة الجدوى.

وبالتالي ينبغي أن يقوم تقدّم الجماعات البشريّة، قبل كلّ شيءٍ، على احترام القِيَم الأساسيّة، ويجب أن يقوم عليها، أيضًا، التطوّر الفرديّ.

وطالما عجزت النفس الفرديّة عن التحالف مع شخص الخالق اللامحدود، لن تقوى على وعي لانهائيّتها الخاصّة.

تأمّل الصباح

فلْننحنِ أمام أُمّ العوالم، ولْنتوسَّلْها: "يا أُمَّنا، فلْتلامسْ يدُك الشافية نفسَنا، كلّ صباحٍ، لكي تندمل، في الحال، جراح الأمس!"

وإذا نحن استشعرنا، في أثناء لحظة الصلاة، على جبيننا، هذه اللمسة المنعشة، واحتفظنا بذكراها حيّةً، فلن يسعنا، طيلة النهار، التمرّغ، بذلّةٍ، في الرغام، وستظلّ الموسيقى الطاهرة التي يولّدها تكريس ذاتنا، تردّد أصداءها في حنايا نفسنا، إلى ما لانهاية. وسنتعلّم توفيق أقوالنا وأعمالنا مع أنغامها المقدّسة، فتتحوّل أقوالنا أُنشودةً، ويغدو حقل عملنا اليوميّ، حقل سعادةٍ صافيةٍ.

في لحظات السلام العميق الساجي الذي نؤنسه مع إشراقة النهار، فلْنشعر بالكلّيّ يلفّ نفسنا، ولْيتلاشَ من قلبنا كلّ إحساسٍ بالبعد بينه وبيننا. وفيما نحن نركّز ذهننا، ونتوغّل إلى دخيلة نفسنا، إذا انتابنا شعورٌ بأنّ الربّ يستحوذ على كياننا، فسنعهد، بفضل هذه الخبرة، كمال الامتلاء.

وإلاّ، فسنظلّ نجهل حقيقة نفسنا، ومن جرّاء افتقارنا إلى الشعور بارتباطنا بالكلّيّ، نقع في خطأ اعتبار ذواتنا تافهين وعزّلاً.

كلّ صباحٍ، أثناء هذه الساعة المقدّسة، تسنح لنا فرصةٌ كي نحرّر، في داخلنا، الحكيمَ القابعَ في الأسْر، وكي ننبذ أفكارنا الباطلة عن دناءتنا وإملاقنا الروحيّ.

ليس مسكن النفس الحقيقيّ، سجن الأنا، بل إنّ مقامها الدائم هو مسكن الروح السامي في حضن الأبديّ. كلّ كائنٍ أرضيٍّ هو، جوهريًّا، حرٌّ وكلّيّ القدرة، فهو لم يوجد كي يحيا حياة عبدٍ، إذ إنّ الله دمغ جبينه بطابع الملك. ولكن، لأنّ الأنا المنقطع عن نبعه، يعتبر ذاته منبوذًا وحقيرًا ، يطأطئ المرء رأسه، ويلوي ظهره، ولا يجرؤ على اقتحام كونه.

اجعل، يا ربّ، أن يعي كلّ إنسانٍ أصله الإلهيّ. وليتمكّن كياننا الداخليّ، مثل الشمس المشرقة في الأُفق، أن يستجلي واقعه المضيء، وحرّيّته الكاملة، وأن يشعّ من وجدانه المستنير، ومن نوره الصافي، وجودُنا كلُّه!

فـرادة الإنسان

لا شبيه في الكون لفرادتنا الأبديّة، التي نستشعر فيها "أنانا" الــذي يموّهــه ويحجبه "الأنا" الصغير المحدود. في الخليقة اللامحدودة، كلّ "أنــا" هــو خليقــةٌ منقطعة النظير، إنّه "الأنا" الفريد الذي لا مثيل له.

يا ربّ، إنّ "أنانا" الفريد المختلف عن كلّ ما سواه ينطوي، أيضًا، على جزءٍ فريدٍ من ذاتك، وهو أيضًا فريدٌ، ويتجلّى في سعادتك الكلّيّة. أنت لم تخترْ قــطُّ، في أيّ زمنٍ، تعبيرَيْن متماثلَيْن لشخصيّتك اللامحدودة... وعلى أنانا الصــغير أن يتعلّم الارتباط بك.

عسى أن تتيح ولادتنا على هذه الأرض لجُزَيْء الفرح الإلهــيّ الثــاوي في "أنانا"، التعبير بوعيٍ كاملٍ، عمّا ينطوي عليه من عظمةٍ، وطهرٍ، وتناغمٍ، وجمالٍ، وأن يحقّق، في هذه الحياة الأرضيّة، ما وُجد من أجله.

منذ فجر الأزمان، رسمتَ، يا ربّ، لأنانا، ومن خلال الخليقة جمعــاء، دربــه الخاصّ، حيث يتقدّم، بلا انقطاعٍ، إلى جانبك. أنت دليله الأبــديّ، وصــديقه منقطع النظير، على دروب اللانهاية، فعسانا، أثناء وجودنا على هــذه الــدنيا، نتعرّفك، من خلال هذا الصديق الذي لا مثيل له.

واجعلْ ألاّ نولي، أبدًا، أيّ كائنٍ، وأيّ شيءٍ، مثل ما نوليه من تقديرٍ لحضورك في قلبنا، وألاّ نؤثر، بأيّ شكلٍ، الوجه المادّيّ والبيولوجيّ لكياننا، الذي لا يتبــاين إلاّ قليلاً عن الأشجار والنباتات، والحيوانات من كلّ نوعٍ... التي نشاركها الحاجة إلى الطعام والهواء والماء، والرغبة في البقاء، ونواجه مثل ما تواجه من أخطارٍ ومِحَنٍ.

لقد أردتَنا أحرارًا، وإلاّ لما آتى حبُّك أيّ ثمرٍ، ولبقيت رغبتك في الاتّحاد بنا، وفرحك به بلا صدى. وبالتالي، فالأنا المتمتّع بالحرّيّة لا يجد علّةً لوجوده إلاّ في ملء الاتّصال الكامل بك. ومن ثمّ فإنّ المحنة الكبرى هي فقدان الشعور بحضورك، وهو الهاجس الملازم للأنا الصغير. أمّا السعادة الكاملة فهي وعي الارتباط بك، وهي السعادة التي يتذوّقها الحبّ المحقَّق.

من أجل القضاء على ألم شعور "الأنا" بافتقاره إلى الاتّصال بك، قاسى بوذا إماتاتٍ رهيبةً، ولكي يُظهر المسيح للجميع كيف يمكن تبديد ألم فراقك، ضحّى بحياته.

وما لم تتحقّق الوحدة بينك وبيننا، فسيستمرّ على هذه الأرض وجعٌ، ما إن يبدو له سكونٌ حتّى يتفجّر من جديدٍ.

يا ربّ، بقدر ما تتمادى الفرقة بينك وبين الوجدان البشريّ، سيرتدي تجلّيكَ على هذه الأرض، لا محالة، طابعًا مزدوجًا، طابع الوجع والفرح، والانفصال والوحدة، والموت والخلود. ولكن، كلّ من تعرّفك وتقبّلك بلا تحفّظٍ، بوجهيك كلَيْهما، سيمسي معك واحدًا، ويقدر أن يهتف، أخيرًا: "لقد اكتمل كلّ شيءٍ، وما عدتُ راغبًا في شيءٍ!".

حقّ الحبّ

ربّاه! حطِّمْ كلَّ عائقٍ في درب حبّك،
وأزلْ كلّ ما يحول بيني وبينك،
وأتوسَّل إليكَ ألاّ تنأى عنّي،
وأتحْ لنفسي أن تتأمَّلك في كلّ لحظةٍ،
في العزلة ووسط الحشود،
في الداخل وفي الخارج!

(كيف يخطر للإنسان المتناهي الصغَر أن يتّحد بخالق الأكوان؟)
السبب بسيطٌ، وهو أنّ محبّة الله، والظفر بحبّه هما حقٌّ مطلقٌ لـه بـالفطرة. فالذي يهبنا الحياة، يهبنا، أيضًا، حقّ حبّه. فعلامَ نخافُ؟ ولِمَ نفتقـر إلى جـرأة التوثّب صوبه؟

وفقًا لسُنَن هذا العالم، على كلٍّ منّا أن يؤدّي ثمن وجوده، وإن لم نسدّد، يومًا إثر يومٍ، ديوننا العديدة للأرض، والماء، والسماء، والهواء، فنكاد نختنـق. ولكـن في مسكن "الأنا" كلُّ شيءٍ مقدَّمٌ مجّانًا. فهذا المسكن هو لكلٍّ منّا هيكـل الصـديق الوحيد الذي لا ينفكّ يُغدق وعوده: "إنّ ما ترغب في تكريسه لي أتقبَّله. ولكـن حتّى لو استبقيت لنفسك كلّ شيءٍ، فلن أحرمك أيًّا من إحساناتي المخصّصة لك".
والربّ يقول لكلٍّ منّا: "لا يسعك تقييم النور الذي أُقدِّمه لك، لأنّك لا تعي قيمة ذاتك، والتي تكمن في ما ألقاه فيك من فرحٍ، إذ إنّه، بهذه الطريقة الفريدة، أي بوجودي فيكَ، أهبك حبّي، وأنت تصبح محبوبي الذي لا يُثمَّن".
ولذلك، يا ربّ، إنّ الأنا الذي يزعم الاكتفاء بذاته، ينْـزع إلى رفضـك. وإن هو اتّخذ مثل هذا الموقف من الأرض أو من الماء، لتلقّـى، في الحـال، ردّ

فعلهما. ولكن، إن هو أعلن لك: "ما لي ولحضورك؟ إنّ ما أبتغيه هو المال والشهرة"، لانحنيتَ، أنتَ، أمام قراره، ولانتظرت صامتًا.

ولكن، إن حانت لحظةٌ أقرَّ فيها "الأنا": "ما نفع الثروة والشهرة، وكلّ المتاع المكدّس؟ يا ربّ، أنت وحدك من أبتغي"، وإن استطاع أن يردف، ذات يومٍ:

"أعرف أنّ في مسكن ذاتي المعزول، الذي لا تنفذ إليه حتّى أشعّة الشمس والقمر، يسعني أن أكون لك، ويسعك أن تكون لي"، فستتحقّق حينئذٍ الوحدة، وسيتبوّأ العريس السماويّ مكانه في مخدع النفس الزوجيّ، وسينعم الشخص البشريّ بتحقيق ذاته تحقيقًا كاملاً.

وحينئذٍ ستحدث تطوّراتٌ مذهلةٌ، إذ يعي "الأنا الصغير" فقره الذاتيّ، وتتأكّد لديه يقظة عظمة الحبّ الإلهيّ، ويميّز في قلبه الثروات الكمينة، ويدرك أنّ لا حدود لهذا الصنف من الحبّ. وعندئذٍ تزول نزعته إلى تعظيم ذاته، عملاً بميل "الأنا" إلى الانتفاخ زهوًا عند ما يحيط بقدرٍ زهيدٍ من المعرفة، ولكن عندما يسكنه الحبّ، ويفعم كلّ كيانه بفرحٍ صافٍ، يكتشف، بغتةً، فضائل التواضع. وفيما ينساب إلى داخله أكسيرُ الحبّ، يشرع يُفرغ ذاته، شيئًا فشيئًا، من العُجْب بذاته، ومن دواعي رضاه الباطلة، مشرعًا، بذلك، السبيل لشعور امتلاءٍ كان، حتّئذٍ، يجهله. وبتحرّره من شهوة العظمة، ينمو فيه التواضع، وبمقدار هذا النموّ يكبر فرحه بالوجود، ويترسّخ سلامه الداخليّ.

وبقدر ما يقرّ أنّه، طالما اقتصر على حدوده الذاتيّة، يظلّ تافهًا، ضعيفًا، أعزل، بنفس القدر ينفتح مسكن نفسه، حيث يجد امتلاءه، ويزداد إدراكًا للنعمة التي تسكنه.

أجل، إنّ صغارة الشخصيّة، التي غالبًا ما ينحصر في حدودها وعي الذات، إنّما هي عاجزةٌ وبائسةٌ من جرّاء افتقارها إلى الشعور بارتباطها بمصدرها، وبفرادتها الخالدة. ولكن، ما إن ننعش شراراة الحبّ الدفينة في داخلنا، ونتّحد بنفسنا، حتّى نكتشف كم نحن، في الواقع، محاطون ببركة الله.

تميـزٌ

إنّ من يحبّ حبًّا طاهرًا، يخشى أن يهب ذاته بلا تمييزٍ، مدفوعًا بالحاجة العارمة إلى هبة الذات المتجذّرة في الحبّ، فلا تفترُ له يقظةٌ، ويحتفظ في أعماقه بشعلةٍ تنير ذهنه.

الحبّ افتتانٌ، وهو نبعُ فرحٍ مضيءٌ يولّده جمالٌ داخليٌّ بكامله. ولكنّ جمال النفس لا يتفتّح بمنأًى عن الاعتدال والتوازن، كما أنّه لا يزهر في كائنٍ يدع ذهنه يتردّى.

ثمّة ثلاثة تعابير عن الحبّ: هبة ذاتٍ خاضعةٌ للرقابة، والتمييز وسداد الحكم، والوضوح الروحيّ.

الإرادة والقرار الحرّ

لا يبلغ المرء استقلالاً تامًّا، في المضمار العاطفي، إلاّ في إطار التزامٍ طوعيٍّ بالغير. فكلّ امرئٍ يصبو، فطريًّا، إلى إرساء أرضيّة تفاهمٍ مع الغير، وهو لا ينعم بأيّ فرحٍ حقٍّ، من خلال سيطرته على أيٍّ كان.

عبرَ إشاراتٍ متعدّدةٍ تفهم النفس أنّ ربَّ العوالم اللامتناهية لا يني يحطّ على شاطئ كياننا، راجيًا أن نهبه، أخيرًا، ذاتنا. وهو، بمنحه إرادتنا الفرديّة قدرةً كلّيّةً، يتيح لنا استشعار مقاصد مشيئته الأبديّة.

ولذلك هو يغشى قلوبنا، ويهمس لنا، يومًا فيومًا: "لن يُطلَب منك أبدًا، أيّ ثمنٍ لقاء حرّيّتك. بل حسبي أن تهَبني حبَّكَ".

يا ربّ، لقد دبّرتَ كلَّ شيءٍ لكي يتمّ التعبير، على هذه الأرض، عن فرح إغداق الحبّ وتلقّيه. وفي هذا السبيل أوجدتَ منظومة الكيانات الفرديّة الرائعة، وزوّدتها بحرّيّة القرار، كي تستيطع، طوعًا، الاتّحاد بك بعلاقة حبٍّ. وأثناء كلّ هذا الوقت، تقيم، أنت، منتظرًا، عند أبواب كياننا، مادًّا يدك، في صلاةٍ صامتةٍ.

المـادّة والروح

إنّ سُنَن الكون تُكرِهنا على احترامها. ولكن، في الجانب الآخــر، يحرّرنـا حضورُ النفس الكونيّة المبثوثة في كلّ شكلٍ. فيد الربّ اليُسرى تُصدر النظـام، فيما يده اليُمنى تنشر الفرح والحرّيّة. والربّ يحمل كلاًّ منّا، في يدَيْه كلتيهما.

في نطاق جوهرنا البدائيّ، حيث لا شيء يميّزنا عــن الحجـارة والنباتـات والأشجار، لا يمنحنا الواحد الأحد، المحيطُ بكلّ شـيءٍ، أيّ امتيـازٍ. ولكــن، بالمقابل، في نطاق فرادتنا، حيث، من أجل فرح الله الأعظم، نحن "أنا" منقطـع النظير، فهو لا يسمح أن تذوب هويّتنا، ولو بقدرٍ ضئيلٍ، في هويّة الآخرين، أو أن تتيه وتتبدّد في الكلّ.

إنّ الخالق، بصفته منظّم الكون، يركّب الكون والجسم البشريّ، بحيث يكون كلٌّ منّا جزءًا أساسيًّا من المجموع. ولكنّه، بصفته صديقنا، يجعلنا خاصّته على نحوٍ مطلقٍ. فالصفات التي نقتسمها مع الكلّ ومع الجميع، تؤلّف طبيعتنا المادّيّـة، في حين أنّ الصفات التي تربطنا بالربّ، تؤلّف نفسنا الخالدة.

إنّ الطبيعة خاضعةٌ لسُنَنٍ صارمةٍ، أمّا النفس فابتهاجٌ صرفٌ. ومن ثَمَّ، فنحن، بموجب المبادئ التي تسوس وجودنا، مندمجون في النظام الكونيّ، غير أنّنا، بفرح نفسنا، يسعنا الاتّحاد بالغبطة الإلهيّة.

وعليه، فإن نحن، في ميادين الطبيعة الأرضيّة والجسديّة، نأَينا عــن القواعـد المحدّدة، ارتدى وجودنا طابع النشاز. وكلّما استسهلنا إكراه كائناتٍ وأشـياء على الخضوع لنـزواتنا، أشعنا الفوضى في كلّ مكانٍ. والواقع هو أنّه يتعــذّرٌ علينا قسر ولو ذرّة غبارٍ على التحرّك على نحوٍ مغايرٍ لطبيعتها الأصـيلة، ومـع ذلك ننجو من العقاب. ولكن، إذا تعلّمنا احترام حتّى أصغر ذرّةٍ حيّةٍ أو جامدةٍ، في هذا العالم الذي يرحّب بنا، فنكون قد صُنّا سلامتنا من كلّ شواذّ.

تحت اسم ثلاثيّة الحقيقة والسلام والخير، يحيط الإلهيّ بكلّ كائنٍ ويسهر عليه في كلّ لحظةٍ. ولا غرو أنّنا نجد فيه ملاذًا أبديّ الثبات. ولكن، إن نحن عصينا سُنَن الخليقة، ولم نتبيّن بهاءها الكمين، وإن لم نوفِّق بين واقعنا الفرديّ، والواقع الكونيّ، فلن نعهد، لا في داخلنا، ولا في الخارج، سوى الصدامات والخلافات، وسيُثبت وجودُنا نفسه على هذه الأرض أنّه مُضِرٌّ لمجموع الكائنات والأشياء، إذ إنّ كلّ نشازٍ في قلب الإنسان، أو بين الطبيعة وبينه، يولّد الشرّ. وطالما نحن غذَّينا التناقضات الداخليّة، وأتحنا للشقاق أن يستقرّ فينا ومن حولنا، فلن يسعنا إلاّ اجتذاب روح الشرّ... ومن ثمّ وحده الصبوّ الدائم إلى الخير وإلى الوفاق كفيلٌ بأن يُشرع لنا درب ملكوت الغبطة.

قُدْنا، يا ربّ، من اللاواقع إلى الواقع، ومن الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الخلود، ومن الشرّ إلى الخير، ومن الأنانيّة إلى الحبّ الحقّ! وأنت، يا ربّ التجلّي، أعلن عن ذاتك من خلالنا، وليشهد وجودُنا كلّه انتصارك على الشرّ، في داخل ذاتنا.

ليست غايتنا القصوى معرفة الواقع، ولا أيّ شكلٍ من أشكال الكمال الأرضيّ، بل التواصل مع الأشياء كلّها في حضن الواحد الأحد. وليس حبّ الطبيعة، والإخاء البشريّ غاياتٍ في ذاتها، بل إنّ الإنجاز الأعظم هو الاتّحاد بالروح الأسمى.

الطبيـعة البشريّة

الطبيعة البشريّة والطبيعة الكونيّة هما ميدان عمل الطاقة الكونيّة، في حين أنّ نفسنا الخالدة هي ميدان حبّ الله. في الطبيعة يُظهر الربّ قدرته من خلال قواه المتعدّدة، غير أنّه، من خلال بذار الحبّ الذي يودعه في نفسنا، يهبنا ذاته هبةً لا رجوع عنها.

قلّما يجد البشر توازنًا بين طبيعتهم المادّيّة، وتطلّعاتهم الروحيّة، وهم غالبًا ما يولون الأولويّة للجسد أو للروح...

إنّ الذين يبذلون جهودهم في سبيل إنجازاتٍ خارجيّةٍ، يكتسبون، عمومًا، قدراتٍ، وسلطةً، وثروةً، وقد يمتدّ نفوذهم في داخل بلادهم وخارجها... ولا بدّ لهم، في سبيل بلوغ مقامٍ رفيعٍ والثبات فيه، من الامتثال لمنظومةٍ من القواعد والمعايير المعترف بها، والعيش وفقًا لنظامٍ محدَّدٍ. ولكن، إن خطر لهم الانحراف عنه، فهم يصطدمون باستنكارٍ عامٍّ، ويتلقّون من الضربات ما يُحدث شرخًا في صرح حياتهم.

غير أنّ هؤلاء القوم، في معظم الأحوال، يتّخذون من هذه القِيَم ذات الطابع الاجتماعيّ الصرف هدفًا في ذاته. رغباتهم وتطلّعاتهم محصورةٌ في ممتلكاتٍ مادّيّةٍ، وقد يحظون بالبحبوحة، وقد يتبوّأون مراكز قياديّة، ولكنّهم لن يعهدوا، أبدًا، الاتّحاد بالله، لأنّ الربّ لا يفيض كنوزه إلاّ في أغوار القلوب. وهل بين هؤلاء الذين لا يحدوهم سوى نجاحهم على هذه الأرض، من يتجرّأ على مبارحة شاطئ بحر الثروات من أجل اكتشاف كنوزٍ روحيّةٍ؟ فجميعهم يزعمون أنّهم مُكرَهون على تسلّق سلالم النجاح بلا هوادةٍ، وفيما هم ينهكون أنفسهم في التصعيد أعلى

فأعلى، لا يكفّون يردّدون، ولكأنّهم يسعون إلى إقناع ذواهم: "لا وجود لشيءٍ وراء هذا العالم، ولا واقعَ آخر، ولا دربَ غير هذا. فعلينا التقدّم باطّرادٍ، ومواصلة التصعيد حتّى النهاية".

وهم إذ يحصرون اهتمامهم في تفوّقهم الاجتماعيّ، لا يحترمون سوى القِيَم الكفيلة بدعم صعودهم في هذه الدنيا، مُعرِضين عن القِيَم التي تفضي بهم إلى المسكن النهائيّ الأسمى.

المضيّ قُدمًا في الصعود هو لهم ضرورةٌ محَتَّمةٌ. ومن ثَمّ فكُثُرٌ هم الذين، وقد وعوا هذا الواقع الذي لا يثير لديهم أيّ شكٍّ، ليسوا مستعدّين لا للتوقّف هنيهةً، ولا لتذوّق ثمار جهودهم بهدوءٍ. غير أنّ هذه الفكرة التي يكوّنونها عن التقدّم في هذه الدنيا، هي، جوهريًّا، خاطئةٌ. وعلى الدرب الذي انتهجوه، لن يقودهم سيرهم الحثيث إلى أيّ مكانٍ.

وإن كان هذا هو مصير الإنسان الحتميّ، فلَهو أسوأ حالٍ يمكن تخيُّلها. ولكن، في الحقيقة، يمكن إرواء جميع الرغبات والتطلّعات البشريّة في المحراب الثاوي في مركز الذات، حيث ينتظر الربّ، وحيث تتوفّر نعمة معرفته، بما أنّه هو الذي يقدّم لنا ذاته. ولا جَرَم أنّ عيش الحبّ الإلهيّ في داخل الذات هو الإنجاز الأقصى.

ولن يتسنّى لنا العثور على الربّ في أيّ مكانٍ، طالما كنّا نبحث عنه خارج

ذاتنا، ولن نتبيّن حضوره إلاّ في أغوار قلوبنا، حيث يقيم الصديق الأبديّ توّاقًا إلى منح ذاته، وحيث تكمن غبطته ويكمن حبّه. وإن كان، ثمّة، ما يحول دونه، فالحائل منّا وليس منه.

لا ريب أنّ ثروات العالم تلتمع بألف ألق. ولكن، في العزوف الطوعيّ عن هذه القِيَم الزائفة، لا خوف ولا حزنَ، إذ إنّ ما تنطوي عليه من فراغٍ هو أدهى من العدم نفسه، لأنّه فراغٌ يقضي على كلّ أملٍ في امتلاءٍ.

ولئن كان النجاح، في الميدان المادّيّ، يهدف إلى تعظيم الذات، فالنجاح الروحيّ يقتضي التخلّي عن "الأنا الصغير". وإنّما الفقير هو الذي يباركه الله. فمن لم يكدّس شيئًا من أجل تمجيد أناه، هو الأوفر ثروةً، وحيث يسجن الله نفسه لكي يأتي إلينا، لا يلتقيه، حقًّا، إلاّ متواضعو القلوب.

ولذلك أرفع إلى الله، كلَّ صباحٍ، هذا الدعاء: "اسمح لي، يا ربّ، أن أسجد أمامك، بتواضعٍ صادقٍ، ولْيتلاشَ من كياني، إلى الأبد، كلّ أثرٍ للكبرياء...

"إنّ الجماهير التي تئنّ غمًّا، لأنّها لا تعرف سوى شريعتك، تنصرف عنكَ، ولكنّ محبّيكَ، يحتفظون في خلوة نفسهم، بصورةٍ لك، قوامها النعمة والحبّ، وفي عروقهم يسيل عسل رحمتك. إنّهم، هم، فقراء الروح، المحرَّرون من كلّ خوفٍ".

الصــلاة

ما دام قلبنا مضطرمًا، لا يكفّ إله الحبّ عن نشر الجمال في كــلّ أرجــاء الكون، إلى أن يتجلّى لنا هذا الجمال، ذات يومٍ، على أنّه مسكن الفرح. ولكن طالما لم تتحقّق الوحدة بين الله والإنسان، يظلّ هذا الأخير عاجزًا عن شفاء كَمَد الفراق الثاوي في قلبه.

وهذه هي غاية الصلاة التي تنبجس من ليل الذات، متوثّبةً صوب النور، على غرار نبتة اللوتُس التي تشقّ لذاتها سبيلاً نحو سطح الماء، متطلّعــةً إلى الســماء، ومبرزةً بهاءها العطِر، المبلَّل بدموع الندى. على هذا النحو يعبّر عطش نفســنا، بكلماتٍ دائمة التجدّد، عن التوسّل الأبديّ الذي يحتويها كلّها: "قُــدْني مــن اللاواقع إلى الواقع، ومن الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الخلود".

والربّ يسمع توسّلاتنا، وفي نهاية مطاف منفانا الخالي من الفــرح في مملكــة الموت المظلمة والخدّاعة، وعندما نستهلّ رحلة العودة نحو حبيب نفســنا، يــنير ملاك الصلاة دربنا، وعلى ضوء مشعله المترجرج، يرشدنا إلى السراط.

جمـال الكـون

يقدّم لنا الربّ السنى العذب والعجيب المشعّ من خليقته، ولا يطالبنا بـأيّ مقابلٍ. وكلّ ما ينتظره منّا هو عطاء ذاتٍ تلقائيٌّ، قائلاً: "تعالَ إليّ طوعًا. وكلٌّ منّا، من خلال الآخر، سيؤنس ملء السعادة الحقّة". إنّ الذي أَودعَ قبسًا مـن ذاته في غور كياننا، في مسكن "أنانا"، في هذا المحراب الذي يتخطّى العوالم، هو ربّ كلّ غبطةٍ مفاضةٍ على الكون أجمع، وهو الذي يُسفِر عن حضوره من خلال الأشياء كلِّها، حتّى من خلال زُرقة السماء، وخُضرة الغابات، وعبير الزهور.

إذا ظهر لنا متّشحًا بقدرته الكلّيّة، نسجد له، ضامّين أيدينا. ولكن عندما يأتي إلينا، فهو الصديق الذي يدنو ولا يحدث ضجيجًا، يأتي بمفـرده، بـلا حـرّاسٍ مسلّحين يواكبونه، ولا قضاةٍ خلَتْ من الرحمة قلـوبهم، ولا جوقـاتٍ تبـوّق بتمجيده. وبما أنّه غير راغبٍ لا بهزّ خمولنا عنوةً، ولا بانتشـالنا مـن ضـلالنا مكرَهين، فنحن لا نقوم بأيّة مبادرةٍ كفيلةٍ بإحلاله مكانًا بين ظهرانينا.

وما ذلك، منّا، سوى موقفٍ عقيمٍ. فما دام الإنسان لم ينهج، طوعًـا، درب الحبّ، افتقارًا إلى استنارة ذهنه، ومن جرّاء عدم خشيته عقاب أيّة سلطةٍ صارمةٍ، فهو سيظلّ أسير المقتضيات الأرضيّة.

فلْنفتحْ مصاريع محرابنا السرّيّ، حيث لا تنفذ أشعّة الكواكب، ولا يلـج أيّ صديقٍ بشريٍّ؛ وحيث ينتظر، فارغًا، عرشُ صديقٍ منقطع النظير. ولْندعْ دفـق النور يغمر مسكن نفسنا هذا.

عند الفجر، تعاين عيوننا، بوضوحٍ، أشعّة النهار الأولى، حاملــةً الإشــعاع الإلهي، لافّةً، شيئًا فشيئًا، جسدنا. فعسانا نشهد، بنفس الوضوح، الغبطة والنعمة والحبّ الأسمى، التي بأمواجها الكثيفة، تسعى إلى ضمّ كلّ كياننا، ضمًّا حميمًا.

ومع أنّ الربّ لا ينفكّ، بلا هوادةٍ، ينتظر عند مدخل وجداننا، فهو يفسح لنا فرصةً كي نكتشف بذواتنا وجه غبطته. ويومًا إثر يومٍ، يعود ويبســط، أمــام أبصارنا، منظر الجمال الكونيّ المتحرّك، ولا يقسرنا على تأمّل عمله.

الحرّيّة في الحبّ

عندما تستيقظ طاقة الحبّ داخل الذات، يحيا المرء في فرح النفس، ويُرتّب عليه هذا الامتياز مزيدًا من المسؤوليّة حيال محيطه.

بيد أنّ ما يكون قد اكتسبه من استقلالٍ داخليٍّ، ومن أهليّةٍ لبذل الذات ليس دائمًا كفيلاً بإرواء كلّ تطلّعاته، ويظلّ بحاجةٍ إلى المزيد. إنّ رغبته القصوى هي الانعتاق من شِباك "أناه"، ومبتغاه هو إيداع أنانيّته عند قدمي الربّ، والاستسلام له استسلامًا كاملاً وأبديًّا. فيصلّي قائلاً: "أنت، أيّها الحبّ الأسمى، يا من يحيا في أعماق ذاتي، ويهبني ذاته بلا انقطاعٍ، متى سأتعلّم أن أهبك ذاتي؟ أنت تدعوني باستمرارٍ، مثلما أنا أدعوك، فمتى ستتحقّق الوحدة الكاملة بيننا؟ عندما يدّعي "أناي" في كبريائه، الاستئثار بكلّ الحقوق، يعزلني عنك فيغشاني شعورٌ بالبؤس؛ فخذني، يا ربّ، وبذلك هبني الحياة. إنّني طالما زعمتُ أنني سيّد وجودي، غير معترفٍ بأيّ واقعٍ سوى واقع شخصي الهزيل، بقيتُ دائم التخبّط، مسحوقًا تحت عبء ارتباطاتي، وشعوري الجامح بعظمة شأني. أمّا الآن، وقد تبدّدتْ أوهامي، فأُقرّ أنّك، أنت، ذاتي السميا، وأنّ قوّتك هي التي تدعم فرديّتي الأرضيّة. وبما أنّني تحرّرتُ، فإنّي أستسلم لك، بلا رجوعٍ، عسى أن تذوب أنانيّتي وعُجبي بذاتي في حبّك، وتتدفّق أمواج الغبطة الإلهيّة إلى كلّ كياني، ومن لحظةٍ إلى أُخرى، أعي حرّيّتي الأصيلة، وفوق كلّ ذلك أغدو أتمتّع بالنعمة القصوى، نعمة ألاّ أُوجدَ إلاّ فيكَ، ومن خلالك.

هذا التحرّر الذي يُنال عبر الاتّحاد بالحقّ، والتخلّي عن الأنا ومقتنياته الزائفة، يحوّل كياننا بأكمله، بنعمة الحبّ الأسمى الذي ينمو في نفسنا.

* * *

كما أنّ الاكتساب يتحقّق بالعطاء، كذلك تحقيق الذات التامّ والكامل يصار إليه عبر الخضوع الطوعيّ للعليّ.

فرح الجهد

تعلّمنا خبرتنا أنّ لجهدنا طبيعةً مزدوجةً، فقد ينشأ من شعورٍ بالنقص، أو من ملء ازدهار الشخص البشريّ. وقد يكون ثمرة الحاجة، كما قد يكون ثمرة اندفاعٍ داخليٍّ نابضٍ. وهو يرهقنا ويستعبدنا حين يكون قسريًّا أو بدافع الحاجة، ولكنّه يحرّرنا، إذا كان حادي عملنا الفرح، فالفرح يحرّر، وعندما يتجلّى، تحت وجوهه المختلفة، فهو يفكّ كلّ القيود. الفرح هو تعبيرٌ أبديّ النشاط عن الغبطة الأبديّة، ويجسّد في كلّ كائنٍ، وكلّ شيءٍ، تيّار البهجة الذي يعمل الخالق في أجوائه...

وبالتالي، إن لقينا متعةً في العمل أو في الخدمة، فلن نشعر بأيّ إرهاقٍ، فالمهمّة التي تثير حماسنا تعتقنا من همومنا، والخدمة التي نسديها لصديقٍ عزيزٍ جدًّا، تحرّرنا من ذواتنا، إذ إنّ السعادة، آنذاك، لا تني تتجدّد في داخل الذات؛ ولكن في حال البطالة، ينضب نبع السعادة.

العملُ يضحي سخرةً وإكراهًا، عندما تنقطع جذوره عن الفرح الذي كان يجب أن يواكبه. إنّ الإنسان الذي يرتضي، مكرَهًا، مساعدة صديقٍ، ذاهلاً عن مشاعر المحبّة التي تربطه به، غير مُعمِلٍ فكره إلاّ في الجهد المجّانيّ الذي لا يجد إلى تلافيه سبيلاً، ينتهي إلى الشعور بأنّه ضحيّة طغيانٍ جائرٍ. ولكنّه حين يأبى المضيَّ قُدُمًا في العمل الذي باشره، فسيعتريه، حقًّا، شعورٌ بالقهر، وسيكون أسير "أناه" غير الراضي.

وحده هذا التيّار المزدوج من الفرح الناجم عن العمل، ومن العمل الذي يؤتي الفرح، يقدر أن يولّد شعورًا بالحرّيّة، فضلاً عن أنّ علّة وجود العمل هو المتعة التي يؤتيها، وهذه المتعة هي التي تجتذب الكائن صوب مشاريع جديدةٍ...
وإن كان عملنا هو التعبير عن البهجة الإلهيّة، فقد يوفّر لنا سانحةً للتمتّع بالاتّحاد الكامل بالله في فرحه، من خلال عملنا اليوميّ.

مطلوبٌ منّا، إذن، تلافي الأعمال التي لا تحدوها إلاّ المصلحة، إن شئنا تفادي شعور التبعيّة، والاختناق بثمار أعمالنا، كما بحلقات أفعى، أو العيش في مناخ الغضب المسموم، والحسد والبغض. بل، فلْنلتزمْ بتقديم المهامّ التي نتصدّى لها، تقدمةً كلّيّةً لله، ولا نضيعنّ في العمل، تاركين للربّ أمر النتائج.

وحينئذٍ، سيتحوّل أشدُّ جهدٍ مشقّةً، إلى أكثر المُتَع صفاءً.

وبالإجمال، أيّةً كانت الواجبات التي يتعيّن علينا الاضطلاع بها، فإن نحن بنينا جهودنا على فيض العمل الخلاّق الملازم للروح الأسمى، فلن ننوء إرهاقًا تحت وقره، بل ستبدو نشاطاتنا، لنا، صحيحةً وخيّرةً، وسيفعمنا مجرّد فعل العمل بهجةً.

ولذلك أنا أُصلّي: "أنت يا نبع ومستودع القوّة الجوهريّة التي تُغدق الحياة ولا تنضب، لا تسمح بأن تصدأ قيثارة وجودي أو أن يغشاها الغبار. بل فلْتدَوِّ، يومًا إثر يومٍ، متساوقةً مع أنغام تنفسِّك الكونيّ العظيم، ولْتُنشدْ، بلا انقطاعٍ،

معزوفةَ العمل، ولْتُغَنِّه باسمك! وإن اتّفق أن أفلت، يومًا، أحد أوتارها إفلاتًا طارئًا، عابرًا، بفعل قدرتك التي تجدّد كلّ شيءٍ، فليكنْ! ولكن لا تسمح بأن تتراخى جميع أوتارها، أو تفسد، وتفقد القدرة على الاهتزاز مع موسيقاك.

"ولْتنبعث من آلة نفسي هذه، موسيقى لا تني تتنامى عمقًا وكثافةً، ولا يعكّرْ رنينَها، أبدًا، أيُّ نشازٍ. وهكذا، ستعكس كلّ نغمةٍ، دائمًا أكثر فأكثر، تساوقات الحقيقة الإلهيّة، ولْتتدفّق أنغامها على الطبيعة جمعاء، حتّى تبلغ النفس الكونيّة، ولْتُسبغ بركة حضورك على نشيد كياني، يومًا فيومًا، مزيدًا من الكمال!"

* * *

إنّ البائس الذي يلازمه شعورٌ بأنّه ينفق حياته كادحًا لخدمة نظامٍ لا روحَ فيه، هو، حقًّا، كائنٌ جديرٌ بالرثاء إلى أبعد حدٍّ.

ثمن الحقيقة

يطيب لنا إعمال الفكر في النجاح، ولكن قلّما نروز ما يتوجّب علينا دفعه بالمقابل. لا ريب أنّنا ننعم بشيءٍ من التقدير في قرانا، ووسط ذوي قربانا. ولكن، عندما نمثل أمام الديّان الأعلى الذي لا يمكن خداعه، لا يلبث أن يظهر زيف معدننا. فالقبول في هذه المحكمة يستلزم الصدق، ودائمًا المزيد من الصدق، والتأهّب، كلّ يومٍ، لتحمّل مسؤوليّاتٍ جديدةٍ. إنّ أدنى أثر تزويرٍ يسلبنا أهليّة تجرّع أُكسير الخلود. ولا أمل لنا في تذوّقه، ما لم نكن قد بلغنا مرحلة الصدق الأكيد. وبالتالي، لا جدوى من التحدّث عن عذوبة طعمه المدهشة، بل ينبغي معرفة أداء ثمنه.

فلْنرفع، كلّ يومٍ، إلى الله هذا الدعاء:

"انتزع فكرَنا وحياتَنا من فوضى الضلال، وصلهما بالحقيقة، برباطٍ لا ينقطع؛ ولا تسمح أن يتبعثر، إلى آلاف الشظايا، قلبنا الغارق في لاواقعٍ لا شكل له ولا شرائع، بل انسجْه بخيوط الحقيقة التي لا تتجزّأ. وحينئذٍ، عندما سنقدّم لك قلادة كياننا، لن تفلح خمرة فوضانا في صبغ وجهنا بلونٍ أرجوانيٍّ".

يراعات

غالبًا ما كان يُطلَب من الشاعر طاغور تدوين حِكَمٍ، وأقوالٍ موجزةٍ، كثيفة المضمون، مسكوكة العبارة، باهرة الصور. وكان الذين يظفرون بها يطبعونها على أقمشةٍ حريريّةٍ، ويحتفظون بها، أثرًا نفيسًا، غاليًا.

من هذه الأقوال وُلِدَت مجموعة "يراعات" (Lucioles) التي نقدّم ترجمةً لمقتطفاتٍ منها.

من وحي الخليقة

– لا تُحصي الفراشةُ الشهورَ،
بل حسبُها اللحظات.

* * *

– بريقُ نجمةِ الصبحِ.
هو القبلةُ التي يطبعُها الليلُ المولّي
على مقلتَيْ الفجرِ المغمضَتَيْن.

* * *

– في تحليقها، تكتشفُ الشرارةُ
نغمًا عابرًا،
وفيه تلقى فرحَها.

* * *

– ترمق الشجرةُ، بحبٍّ،
الظلَّ الرائعَ الذي تُلقيه،
ولن تجدَ، يومًا، إلى معانقتِه سبيلاً.

* * *

– جمالكِ، أيّتها الفتاةُ،
ثمرةٌ تسعى إلى النضوج
ضاجَّةً بسرٍّ خفيٍّ.

* * *

- تعانق السماءُ قرينتَها الأرض،
وتبقى منها على بعدٍ سحيقٍ.

* * *

- تُبقي التربةُ الشجرةَ مرتبطةً بها،
لقاء ما تسديه لها من خدماتٍ،
أمّا السماء، فتطلق لها الحرّيّة، ولا تطالبها بشيءٍ.

* * *

- هَمَس النسيم لزهرة اللوتُس:
"ما هو سرّكِ؟"
فأجابت: "هو ذاتي،
فإِن سَلَبْتَها منّي انتهيتُ".

* * *

- عبرَ زهورِها
همس الياسمينةُ للشمس حبَّها.

* * *

- السُّحبُ، تلالُ البخارِ،
والتلالُ، السحبُ الحجريّة
رغبةُ عناقٍ متماديةٌ في حلم الأزمان.

* * *

- في طوايا مقاومته الغيوم
يجدُ النورُ كنْـــزَ ألوانه.

* * *

- أيّتها الزهرةُ،
إيّاكِ ونشدان فردوسِك
في عُروة رجلٍ أحمق.

* * *

- تأخّرتَ في الظهور، يا هلالي،
ولكنّ طائر ليلي مازال ساهرًا كي يحيّيك.

* * *

- نظيرَ العروس المحجّبة،
ينتظرُ الليلُ عودةَ النهارِ المتشرّدِ،
كي يلطو على صدره.

* * *

- الزهرةُ الأولى التي تفتّحت على هذه الأرض،
استدعت ولادة النشيد.

* * *

- عندما يذبل الفجرُ المزركشُ،
تتألّق الشمسُ، ثمرةُ النور البسيطة.

* * *

- تزمجر ريحُ السماء،
وتتشبَّثُ المرساةُ العنيدةُ بالوحل.
ولكنّ مركبي، وقد نفدَ صبرُه،
متلهّفٌ إلى الانعتاق من قيوده.

* * *

- لازوردُ السماء يشتهي، متلهِّفًا، خضرةَ التربةِ.
وبينهما تئنُّ الريح هاتفةً: "وا أسفاه!".

* * *

- حول الليل البكرِ، تتراصّ النجوم
جزعًا صامتًا على وحدته المنيعة.

* * *

- تغدقُ الغيومُ كلَّ ذهبها على الشمس الغاربة،
ولا تستقبلُ القمر إلاّ ببسمةٍ باهتةٍ.

* * *

- أيّتها الزهرةُ، احذري الدودةَ،
فهي ليست نحلةً، وإنّما حبُّها هلاكٌ.

* * *

- المصباح المهجورُ، ينتظر، سحابةَ النهار،
قبلةَ اللهب التي يُعيدُها له الليلُ.

* * *

– نسيَ الريشُ القابعُ في الرغام،
راضيًا بخموله،
تحليقَه في السماء.

* * *

– لا تحسدُ الوردةُ الوحيدةُ، في شيءٍ،
تعدُّدَ الأشواك.

* * *

– يا برعم شجرة الرمّان، المحمرَّ وراءَ حجابِه،
ستتفتّح عن زهرةٍ مجنونةٍ، غدًا، في غيابي.

* * *

– مراكبي الورقيّةُ، صُنعتْ للرقصِ،
فوق تموّجاتِ الساعاتِ،
لا من أجل بلوغ أيّ هدفٍ.

* * *

– الشجرةُ هي ابنةُ اليوم، أمّا الزهرةُ فعتيقةٌ،
وهي تحمل رسالةَ البذرةِ الموغلةَ في القدم.

* * *

– كلُّ وردةٍ جديدةٍ، تحمل لي تحيّة وردة الربيع الخالد.

* * *

– رأفةً بالغصن الحزين،
يترك له الربيعُ قبلةً تخفق في ورقةٍ وحيدةٍ.

* * *

– فيما تقول الوردة للشمس: "لن أنساكِ أبدًا"،
تتساقطُ بتلاُتها في التراب.

* * *

– الجبالُ: تطلُّعُ الأرض اليائسة،
صوبَ ما لا يُطال.

* * *

– أيّتها النجوم التي لا تُحصى، يا لآلئ السبحة
التي تكرّ السماءُ حبّاتِها، طيلة الليل،
متذكّرةً الشمس.

* * *

– عتمة الليل خرساء كالألم،
وعتمة الفجر صامتةٌ كالسلام.

* * *

– الفقّاعة المنتفخةُ زهوًا
ترتاب بوجود البحر؛
وتضحك فتتلاشى في العدم.

* * *

- تنسى غيومي الشاكية من العتمة
أنّها هي التي حجبت الشمس.

* * *

- ظلمة الليل تتناغم مع النهار،
أمّا ضباب الفجر فنشازٌ.

* * *

- ظلُّ أشجاري هو للمارّة،
أمّا ثمارُها فلتلك التي أنتظر قدومَها.

* * *

- الأرضُ التي ضرّجتها الشمس الغاربةُ بالحمرة،
تبدو ثمرةً ناضجةً يقتطفها الليل.

* * *

- يقرع البحر أحشاءَه العقيمة،
افتقارًا لزهورٍ يقدّمها للقمر.

* * *

- النور الذي يملأُ السماءَ،
تحدّه قطرةُ ندًى.

* * *

- لدى الفراشةِ فسحةٌ لمحبّة زهرة اللوتُس،
أمّا النحلةُ فتدأبُ على اختزانِ العسل.

* * *

- قد يكون قوس قزح، بين السحب، كبيرًا،
ولكنّ الفراشةَ، في الأدغالِ، أكبرُ منه.

* * *

- قد يبتسمُ الهلالُ، ريبةً،
عندما يُقال له: "لستَ سوى جزءٍ ينتظرُ اكتمالاً".

* * *

- تحمل الشجرةُ آلافَ سنيها،
وكأنّها لحظةٌ واحدةٌ جليلةٌ.

* * *

- الزهرةُ الحبيسةُ في تاج الملك،
ترسلُ بسمةً حزينةً إلى زهرة الحقولِ التي ترمقُها بنظرةِ حسدٍ.

* * *

- براعمُ الغابةِ تتوسّلُ الشمسَ:
"افتحي عيونَنا على ضيائِك".

* * *

- رعشةُ صنوبرةِ الجبل، نشيدُ سلامٍ
يُحيي ذكرى صراعاتها مع العاصفة.

* * *

– عبر صغار أعشابِها، ترسلُ الحياةُ إلى النور
نشيدَ مدائحِها الصامتة.

* * *

– نجوم الليل هي، لي،
ذكرى الزهور التي أذبلها النهارُ.

* * *

– يهمسُ الشاطئُ للبحر: "اكتب لي ما تجهدُ الأمواجُ في قوله"،
فيكتبُ البحرُ، ويُعيدُ الكتابةَ،
ثمَّ يمحو سطورَه، بقنوطٍ مدوٍّ.

* * *

– الشجرةُ روحٌ مجنّحٌ تحرّرَ من عبوديّةِ البذرةِ،
وواصلَ مغامرةَ حياتِه، عبر المجهول.

* * *

– زهرة اللوتُس تقدِّمُ للسماءِ بهاءَها،
والعشبةُ الصغيرةُ تقدّمُ للتربةِ خدماتِها.

* * *

– قبلةُ الشمسِ تحوّلُ بُخلَ الثمرةِ الفجّةِ الملتصقة بساقِها،
استسلامًا عذبًا.

* * *

– زاعمةً التحرُّرَ من عبوديّةِ التربةِ،
تفقدُ الشجرةُ حرّيّتَها.

* * *

– تتأوّهُ الزهرةُ الذابلةُ:
"لقد ولّى الربيعُ، بلا عودةٍ".

* * *

– تفقدُ الزهرةُ كلَّ بتلاتِها،
كي تنحسرَ عن الثمرة.

* * *

– الأوراقُ الميتةُ التي تذوبُ في التربة،
تسهمُ في حياة الغابة.

* * *

– تشجيعًا لمصباحٍ خجولٍ،
يضيءُ الليلُ الرحبُ كلَّ نجومِه.

* * *

– الأشجارُ هي جهودُ الأرض المثمرة من أجل محادثةِ السماء المصغية.

* * * * *

في رحـاب النفس

– ليتَ حبّي يلفُّك بضيائِه كالشمس،
ويدعُ لك حرِّيَّةً مشرقةً.

* * *

– الذاكرةُ كاهنةٌ تقتل الحاضر،
وتقدِّمُ قلبَها على هيكل الماضي الميت.

* * *

– يزعمُ التزمُّتُ حمايةَ الحقيقةِ،
فيضمُّها بشدّةٍ تخنقُها.

* * *

– عندما يوطّنُ السلامُ العزمَ على الانعتاقِ من أدرانِه،
تنفجرُ العاصفةُ.

* * *

– يغتالُ الطاغي الحقيقةَ،
مدّعيًا التفرّدَ بها.

* * *

– زلاّتُ حياتي تلتمسُ الجمالَ الرحيم،
فهو، وحدَه، يقوى على صهر عزلتها،
في التناغم مع الكلّيّ.

* * *

– قدَّمتُ شكري للأشجارِ التي جادت عليّ بثمارِها،
وأغفلتُ العشبَ الذي صانَ نضارةَ خضارِها.

* * *

– يُطلَبُ من المنفيّين المُبعَدين عن أعشاشِهم
تقديمُ الشكرِ لأنّهم وجدوا ملجأً في قفصٍ جميلٍ.

* * *

– هجاءُ الكبارِ كفرٌ، لأنّه يؤذي الذات،
وهجاءُ الصغار حقارةٌ، لأنّه يؤذي الغير.

* * *

– أسخرُ من نفسي، فيخفُّ عبءُ أناي.

* * *

– قد يغدو الضعيفُ مخيفًا،
بسبب سعيه المسعور إلى إظهارِ قوّته.

* * *

– العَضَلُ المرتابُ بحكمتِه
يخنقُ الصوتَ الراغبَ في الهتاف.

* * *

- تشتهي الريحُ اللهبَ،
وتقبضُ عليه فتخنقه.

* * *

- الكمدُ الذي يحجبُه وضحُ النهار
يتلاشى، ليلاً، بين النجوم.

* * *

- أكثر ما يؤلم العالم، طغيانٌ يزعم العملَ لخيرِه،
مدّعيًا تنـــزُّهَه عن كلِّ غرضٍ شخصيٍّ.

* * *

- الولادةُ عبورٌ من سرِّ الليل
إلى سرِّ النهار الأكبر.

* * *

- القوّةُ الغاشمةُ تُعرِضُ عن المفتاح،
وتلجأ إلى الفأس.

* * *

- ترسم نارُ الألم لنفسي
دربًا نيِّرًا عبر الوجع.

* * *

- لستُ أُخلِّف أيَّ أثر جناحٍ في الهواء،
ولكنّني سعيدٌ بالطيران.

* * *

– مع أنّ شوكتَكَ جرحتني،
أشكرُك، أيّها الجمال.

* * *

– لا يكن حبّي عبئًا عليكَ، يا صديقي،
واعلم أنّه يلقى مكافأتَه في ذاته.

* * *

– الجمالُ هو بسمةُ الحقيقة،
عندما يتأمّل محيّاها على مرآةٍ صافيةٍ.

* * *

– تبريرًا لهدرهم الحبر،
يدوّنون النهار ليلاً.

* * *

– تبتسمُ المصلحةُ للطيبة،
كلّما توسّمت فيها نفعًا.

* * *

– أيّها الحبُّ، يا سرًّا أبديًّا،
لا شيءَ يفسّره.

* * *

– لقد تركتَ ذكراكَ لهبًا
في مصباحِ فراقنا.

* * *

- اللوحة: ذكرى نورٍ
اختزنها الظلّ.

* * *

- يُجيدُ الجمالُ قولَ: "كفى"
فيما البربريّةُ تجأَرُ: "المزيد".

* * *

- أيّها الحبُّ، يا خمرةً عذبةً في زمن الورود،
ويا غذاءً في زمن الجوع،
عقب تناثر بتلات الورود.

* * *

- في نظر العثّ الإنسانُ شاذٌّ وأحمقُ،
لأنّه لا يلتهمُ الكتب.

* * *

- اليومَ، تبدو السماءُ الملبّدةُ بالغيوم
ظلاًّ للحزن السماويّ الذي يطوفُ
على جبين الأبديّة الحالمة.

* * *

- الريشةُ العمياءُ لا تؤمن باليد التي تكتب،
ولا ترى للكتابةِ معنًى.

* * *

- الجشعُ يؤثرُ الثمرَ على الزهرة.

* * *

- النارُ السجينةُ في الشجرة تصنع الزهرة،
واللهيبُ الطليقُ الفاجر يموتُ رمادًا عقيمًا.

* * *

- لا تنصبُ السماءُ فخًّا لاصطياد القمر،
فحرّيّتُها تقيِّدها.

* * *

- بريقُ شفرةِ الفولاذ القاسي
يسخرُ من السماء.

* * *

- أيّها الولدُ، إنكَ تزوِّدُ قلبي
بلعثمة الريح، ووسوسة الماء،
وبأسرار الزهور الصامتة، وبأحلام الغيوم،
وبنظرة سماء الصباح ودهشتها الصامتة.

* * *

- همسُ نجمةُ الصبحِ للفجر:
"قلْ لي إنّكَ لي وحدي"
ويجيب الفجر: "أنا لك، وأيضًا، فقط، لهذه الزهرة الشاردة".

* * *

- نظير شذى زهرةٍ غريبةٍ،
بسمتُكَ، يا حبيبي، بسيطةٌ ومبهمةٌ.

* * *

- تعشقُ الحقيقةُ الحدودَ،
حيث تلتقي الجمالَ.

* * *

- لا يملكُ المصباحُ، أثناءَ النهار، سوى زيتِه،
ولا يطالبُه بالنور الذي لا يقوى على منحه إلا ليلاً.

* * *

- يتفرّدُ الجبلُ بتحمُّل تراكم الثلوج،
ولكنّ العالمَ كلَّه ينعمُ بفيض مياهه.

* * *

- احتمال ثقل آلةٍ موسيقيّةٍ، وتقييمُ موادّها،
وتجاهلُ أنّها وُجِدت لكي تصدحَ،
هذه هي مأساةُ من يعيشون ولا يسمعون.

* * *

- يزعمُ المتعصِّبُ المتشدّد
أنّ المحيط أُفرِغَ في مستنقعه الخاصّ.

* * *

- في أعماق الحياة الظليلة، تختبئ أعشاشٌ وحيدةٌ،
تسكنها ذكرياتٌ تأبى الكلام.

* * *

- يجاور الضلالُ الحقيقةَ،
ولذلك هو يخدعُنا.

* * *

- في الليل، أنتظرُ آمال الصباح الشريدة
التي ستقرعُ باب قلبي.

* * *

- تبدو السحابةُ، للساقية المنشغلةِ،
نافلةً لا نفعَ منها.

* * *

- يجتاز بعض البشر الحياةَ،
مثلما يقلّبُ ولدٌ صفحاتِ كتابٍ،
موقنًا أنّه يطالعه.

* * *

- يقول لي الحبُّ:
"ما الموتُ إلاّ سوءُ تفاهمٍ".

* * *

- تتأمّل الأرضُ القمرَ وتدهش،
إذ تتبيّن أنّ كلّ موسيقاها ثاويةٌ في بسمتِه.

* * *

- يدّعي الإنسانُ امتلاكَ زهور الله،
عندما يعقدُ منها أطواقًا.

* * *

– قصّة الحياة: شيء مطرَّزٌ بنسيج علاقاتٍ،
خيوطٌ لا تني تُحبَكُ وتُفَكُّ.

* * *

– الفراشةُ المرتحلةُ من زهرةٍ إلى زهرةٍ
ستظلُّ، أبدًا، لي.
ولكنّني أفقدُ الفراشةَ التي ألتقطُها بشبكتي.

* * *

– شدوُكَ، أيّها الطائرُ الرشيقُ، يتنامى إلى عشّ راحتي،
فيحلم جناحاي المطويّان
برحلةٍ صوب الضياء، فوق الغيومِ.

* * *

– يلتبسُ عليّ مغزى دوري في لعبة الحياة
لأنّني أجهلُ دورَ الآخرين فيها.

* * *

– لا يقدِّم الحبُّ ذاتَه،
بل ينتظر أن يُقبَل.

* * * * *

توثّبـاتٌ روحيّـةٌ

– أثناء ترحالي، كان الزمنُ لي سلسلةَ غدٍ يليه غدٌ،
والآن، وقد التقَيْتُكَ، لم يعدْ لي الزمن سوى أيّامٍ حاضرةٍ.

* * *

– بحبّي لك، أدركتُ كنهَ فرح معرفة الحقيقة.

* * *

– لا تدعْني، (يا ربّ) أتلمّس طريقي، عبثًا، في الليل،
بل صُنْ إيماني بأنّ النهار سيولد من جديد،
وأنّ الحقيقةَ ستتجلّى في البساطة.

* * *

– الثمرة التي ربحتُها ربحًا أبديًّا
هي تلك التي تقبّلتُها.

* * *

– ما أناشيدي، سوى عبادةِ نشيدكَ.

* * *

– كنوزُ حديقةِ حياتي
هي الظلالُ والأضواءُ التي لم أقتطفْها ولم أُكدّسْها.

* * *

– عندما يلامسُ صوتُ الصامت الأعظم كلامي،
أتعرّفه، وبه أتعرّف ذاتي.

* * *

– وداعي الأخير أَخصُّ به
من يعرفون عيوبي ويحبّوني.

* * *

– تقول النجمةُ: "دعوني أُضيءُ مصباحي،
غير مستفسرةٍ هل سيبدّد نورُها الظلماتِ".

* * *

– عندما سيوافي الموت ويهمسُ لي: "أيّامُكَ ولّت"،
ليتني أجيبُه: "لم أحيَ، فحسبُ، بل حييتُ في الحبّ"
وإن سألني: "هل سيُكتَبُ لأناشيدِك البقاء؟"
سأجيبُه: "لستُ أدري، ولكنّني أدري
أنّني، فيما كنتُ أُنشد، لقيت الأبديّة".

* * *

– إن كان اسمي لك عبئًا،
فأَقْصِه عن تقدمتي،
واحتفظ بنشيدي.

* * *

– الأولادُ يلعبون في فناء الهيكل
والله يرقب لهوَهم،
مُعرِضًا عن الكاهن.

* * *

– ينشد الله أصدقاء، فيقتضي الحبَّ،
وإبليس يبحث عن عبيدٍ ، ويقتضي الخضوعَ.

* * *

– الأزليُّ جوهرةٌ،
وهو لا يزدهي بطول سنيه،
بل بألق لحظةٍ مشرقةٍ.

* * *

– الآلهة التي تسأم فراديسَها
تحسد بني البشر.

* * *

– الله يبتغي بناء هيكله بالحبّ
والإنسان لا يقدّم إلاّ أحجارًا.

* * *

– عبرَ نشيدي، أتّصلُ بالله،
كما يتّصلُ الجبل بالمحيط النائي،
عبر شلاّلاته.

* * *

– بالحبِّ أُسدِّدُ دَيْني الجمّ
لكيانِكَ.

* * *

– المتصدِّق يصل إلى باب الهيكل،
أمّا المحبُّ فيدخل إلى المحراب.

* * *

– الإيمانُ الثاوي في صُلبِ بذرةٍ،
يعِدُ بمعجزةِ حياةٍ،
لن يُثبتَها إلاّ بعدَ لأيٍ.

* * *

– أناشيدي المهاجرةُ تتطايرُ من كياني،
ساعيةً إلى بناء عشّها، في صوتِك العاشق.

* * *

– الحبُّ المُهانُ ينتقم بالصفح،
والجمالُ المُهانُ ينتقمُ بصمتٍ وقورٍ.

* * *

– يكرّمني الله عندما أعملُ
ويحبّني عندما أُنشدُ.

* * *

– الكبرياءُ تحفر تهديداتِها في الصخر
والحبُّ يقدِّم استسلامَه في الزهورِ.

* * *

– توقًا إلى السماء القصيّة،
يحسد الجبلُ سعيَ السحاب الأبديّ الحثيث.

* * *

– يكتشف المرءُ غناه
عندما يسأله الله تقدمةً.

* * *

– يطيب لله أن يرى فيّ لا خادمَه الخاصّ
بل ذاتَه: الخادم الشامل، خادم الجميع.

* * *

– كنتُ قادمًا لأُقدِّمَ لكَ زهرةً
وها إنّي أَدعوكَ لأخذِ حديقتي كلِّها،
فهي لك.

* * *

– يسعني عبادة الله
فهو يدعُ لي حرّيّة إنكاره.

* * *

– ينتظر الله، في هيكله المشاد بنجومٍ،
أن يأتيه البشرُ بمصباحٍ.

* * *

– تبقى السماءُ فارغةً
لكي تبتني الأرض فيها، بأحلامها، فردوسًا.

* * *

– كي ينعم المساءُ بالسلام،
فليصفحْ للنهار أخطاءَه!

* * *

– ليست تقدمتي للهيكل العظيم الجاثم في غاية الطريق،
بل للمعابد الصغيرة المنتشرة على الدرب،
والتي تفاجئني في كلّ منعطفٍ.

* * *

– ليت حبَّك يراني
حتّى من خلال جدار حميميّتي.

* * *

– الإيمانُ طائرٌ يستشفُّ النورَ،
ويشدو حين ما يزال الفجر عتمًا.

* * *

– أيّها الليلُ، إنّي آتيكَ بكأس نهاري الفارغة،
كي تطهّرَها بظلماتك النديّة،
وتعُدَّها لعيد الفجر الجديد.

* * *

– يكرّمني الله بمشاركتِه نضالي، لّما أثورُ،
ويتجاهلني عندما أستسلمُ للاّمبالاة.

* * *

– ليس الهدف الحقيقيّ بلوغَ حدٍّ ما،
بل هو بلوغُ كمالٍ لا حدَّ له.

* * *

– ينشُد بعضُهم المعرفةَ، وآخرون يطاردون الثروةَ،
ولا أرغبُ، أنا، إلاّ في حضورِكَ، كي أستطيعَ الإنشاد.

* * *

– مثلما تبعثرُ الشجرةُ أوراقَها، أنثرُ أقوالي على الأرض،
فدع أفكاري المكتومةَ تزهر في طوايا صمتِكَ.

* * *

– فلتنبضْ أوتارُ حياتي بلمسةِ أناملِكَ،
ولترسلْ موسيقى، هي منكَ ومنّي!

* * *

– عالمي الداخليُّ الذي صاغته حياتي في قالبها
مثل ثمرةٍ أَنضجَها الفرحُ والألمُ،
سيهوي في غياهبِ التربةِ الأصليّةِ،
ليُبدعَ مسلسلَ خلقٍ جديدًا.

* * *

– دعني أُقدِّمْ لك، في ختام العيد،
وفي اتّحاد حبٍّ كاملٍ،
كلَّ عذوبةٍ تذوّقتُها حيال ثمار الحياةِ وزهورِها.

* * *

– بعضُ المفكّرين الجهابذة سبروا معنى الحقيقة،
وفي ذلك تمثّلت عظمتُهم.
وأنا أصغيتُ كي أستسيغَ نغمَ لعبتِكَ
وفي ذلك كمنَ سروري.

* * *

– نورُ الشمسِ يفتحُ لي بابَ الكونِ،
ونورُ الحبِّ يفتحُ لي بابَ كنوزِه.

* * * * *

الفهرس

بمثابة مقدمة ٧
من هو "رابندرانات طاغور"؟ ٧
الوطنيّ المصلح........................ ١٥
المربّي ١٩
شهرةٌ عالميّةٌ ٢٣
عبقريّةٌ متعدّدة المواهب ٢٦
طاغور الشاعر........................ ٢٨

الجُزءُ الأوّلُ

باقاتٌ شعريّةٌ ٣٥

من ديوان "القمر الفتى" ٣٧
من أيـن؟ ٣٩
نـزواتُ الطفـلِ........................ ٤٠
القـاضي........................ ٤١
افتـراءٌ ٤٢
النبـع........................ ٤٣
الموكـبُ اللامرئيُّ ٤٤

متى ولمـاذا؟ ٤٦
ألعــابٌ ٤٧
الفلـكيُّ ٤٨
مدرسةُ الزهـورِ ٤٩
غيـومٌ وأمـواجٌ ٥٠
تعـاطفٌ ٥١
زهـرةُ "الشامـﭙـا" ٥٢
هدايا التاجرِ المسافر ٥٣
ساعي البريـدِ الخبيثُ ٥٤
النهـاية ٥٥
بركـةٌ ٥٦
عطـاءٌ ٥٧
استدعاءٌ ٥٨
نشيدي ٥٩
المـلاكُ الطفـلُ ٦٠
العقـدُ الأخـيرُ ٦١
على الشواطئ اللامتناهيةِ ٦٢

من ديوان "التقدمة الغنائيّة" ٦٣

أهـلاً بالموت ٦٥
انتظـارٌ ٦٥
تبًّـا للنعـاس! ٦٦
لا أنتظـرُ سـوى الحبّ ٦٦
وداعٌ ٦٧

اسـمي هو سـجني ٦٨
في الظــلام ٦٨
اســتيقِظ! ٦٩
الولـدُ المُثْقَلُ بالبهارج ٦٩
أريـجٌ ٧٠
تقـدمتي للموت ٧٠
الســجينُ ٧١
إنّــه، دائمًــا، يأتي ٧٢
زيــارةٌ ملكـيّةٌ ٧٣
التي تسكن في أعماقي ٧٤
نهــرُ الحــــياةِ ٧٥
إنّــه هــو ٧٥
همـسٌ ٧٦
لا تستعْطِ ذاتَــكَ ٧٦
كلــمةُ رحيــلي ٧٧
أنـاشـيدي ٧٧
الضفّةُ الأُخـرى ٧٨

من ديوان "سلّة الفاكهة" ٧٩

خريـفٌ ٨١
جَعَلَ منّي خادمَـهُ ٨١
رسالةُ الصباحِ ٨٢
الغريبُ يدعـوني ٨٣
كنْ متأهِّبًا، يا قلبي، للانطلاق ٨٤

سأهجر سجني ٨٤
تجــرُّدٌ ٨٥
ببَساطةٍ يتفتَّحُ البرعـمُ ٨٦
ثمـن زهـرة اللوتُس ٨٧
المتسـوّل ٨٨
الغنى الذي يزدري الثروات ٨٩
المتسوِّلةُ الشُّجاعةُ ٩٠
عنـدما عرفتُ مَلِـكي ٩١
الشمسُ وقطـرةُ النـدى ٩١
الريَّانُ العاشقُ ٩٢
حيثُ يقـيمُ الله ٩٤
لقـاءُ الأبـديِّ ٩٥
أوْهــامُ المـوتِ ٩٦
انطــلاقٌ ٩٦
ربّي في قلبي ٩٧
نفــادُ صبرٍ ٩٨
عَروسُ المستقبلِ ٩٩
إرثُ الحقيقةِ ١٠٠
الحرّيــةُ الإلهيّــةُ ١٠٢
كـلامـك بسـيطٌ ١٠٤
ألـوانُ الحبِّ ١٠٤
انتصــارُ النــورِ ١٠٥
مصباحي الأرضيّ ١٠٦
مســافـرٌ ١٠٦

من دواوين "الهاربة"؛ "بَجَع"؛ ومتفرّقات ١٠٧
جزيـرةُ الحبِّ ١٠٩
الأوتــارُ المقطّعةُ ١٠٩
الهــاربَةُ ١١٠
عنــاءُ العصـفورِ ١١١
مسـيرةُ وردةٍ ١١١
نــداءُ الربيــعِ ١١٢
فـرحُ العطــاء ١١٢
الحيــاةُ والمـوتُ ١١٣
المرتحـلِ ١١٤
جئـتُ ١١٦
عطــاءاتك ١١٨
ديـونـي ١٢٠

من ديوان "بستانـيّ الحبّ" ١٢١
إنّي من جميع الأعمار ١٢٣
لا أجدُ ما أنشُدُه ١٢٤
صيدٌ لا فائدة منه ١٢٥
بستانيّ الحبّ ١٢٦
عينــاكِ ١٢٧
كم نداء نايك موجعٌ! ١٢٨
القفص والفضاء ١٢٩
يتوارى خلف الأشجار ١٣٠
فاتحيني بسرِّكِ ١٣١

لم يعُدْ قلبي ملكي ١٣١
عبءُ قلبي.................................. ١٣٢
المستعطي الطامع ١٣٣
أقوالك عويصةٌ.............................. ١٣٤
ولكنّه حبٌّ.................................. ١٣٥
أعرف خدَعَكِ............................... ١٣٦
الوقت قصـيرٌ ١٣٧
زهرةٌ موقوفةٌ على الروح.................. ١٣٨
تواصـلٌ كامـلٌ ١٣٨
لـمَ؟.. ١٣٩
تمثـالٌ...................................... ١٣٩
إلى أيـن...؟................................ ١٤٠
الزهـرة العميـاء............................ ١٤٠
وجعُـها مستمرٌّ............................. ١٤١
ساعة الفـراق ١٤١
المرأة التُحْـفة............................. ١٤٢
أيُّهـا الغنيُّ ١٤٢
حجر الفلاسـفة............................. ١٤٣
ما زال لـديّ الكثير ١٤٤
تحـرُّرٌ...................................... ١٤٦
الأرض الأُمّ ١٤٧
الناسـكُ ١٤٨
طفل الإنسان وصغير الحيوان............. ١٤٩
الإنسان والحيوان ١٥٠

الجسدُ والروح ١٥٠
المرأة الفاضـلة ١٥١

صلواتُ شاعرٍ ١٥٣

تمهيد ١٥٤
تقبّلني، يا الله ١٥٥
سؤالٌ مطروحٌ على الله ١٥٦
تحيّـاتٌ ١٥٧
المـوت ١٥٨
يا صـديقي ١٥٨
أتوسّـلُ إليـكَ ١٥٩
أَمسك بيـدي ١٦٠
أشـدّهم فقـرًا ١٦١
حانتْ ساعةُ الجلوسِ بجانبِكَ ١٦٢
حبّةُ القمـح الصُّغرى ١٦٣
نجمتي القطْبيّةُ ١٦٤
هبْـني... .... ١٦٤
حضـورُكَ ١٦٥
حكـمةٌ ١٦٥
كنــوزٌ ١٦٦
كلمتي الأخيـرةُ ١٦٦
كَـرَى ١٦٧
تحيّــةٌ ١٦٧
اللهُ هنــا ١٦٨

اسـمكَ ١٦٨
عابرُ السبيلِ الوحيدُ ١٦٩
صـانع الكـون ١٦٩
شــكـرٌ ١٧٠
قبضـةُ يـدِكَ ١٧١
أنت لي كلُّ شيءٍ ١٧١
حبُّــكَ ١٧٢
حيـاةُ حياتي ١٧٢
ملءُ السلامِ ١٧٣
العقَبـاتُ المُقاومَةُ ١٧٣
مطـرٌ ١٧٤
ظــلٌّ وضيـاءٌ ١٧٤
حبُّك اللامحدود ١٧٥
الوقتُ الضائعُ ١٧٥
لا أريـدُ سـواكَ ١٧٦
اجتثَّ دناءةَ قلبي ١٧٦
خُـذْني، خُـذْني! ١٧٧
نهايةُ لياليَّ اللامبالية ١٧٧
تعــالَ إليَّ ١٧٨
لا شيءَ سوى حبِّــكَ ١٧٨
ولّت ساعةُ اللهو ١٧٩
عنـدما تخلِّصُني ١٧٩
إنشــادٌ ١٨٠
عطــايا ١٨٠

بلا حــدودٍ ١٨١
وحــدةٌ كاملةٌ ١٨١
الفضــاءُ والعشُّ.. ١٨٢
أصدقاءُ لم أكنْ أعرفُهم.. ١٨٣
حيثُ تكتمـلُ الوحـدةُ ١٨٤
موسـيقاكَ.. ١٨٤
إنّـكَ تتوارى ١٨٥
عبـادةٌ.. ١٨٥
لَـكَ ١٨٦
أُقطُفْ هـذه الزهـرةَ.. ١٨٦
تجـرَّدَ إنشادي من بهارِجِهِ.. ١٨٧
رئفتَ بالمتسوِّلِ ١٨٧
أخيـرًا، هتَفتُ إليكَ.. ١٨٨
أمْطِــرْ.. ١٨٨
حبًّا بي، تُعرِضُ عنّي ١٨٩
مُنشـدٌ.. ١٨٩
هل حانَ الأوانُ؟ ١٩٠
في المساء ١٩٠
"أنــاي" البائسُ ١٩١
أهــلاً بـك ١٩١
حياتي ثمينةٌ بين يدَيْكَ.. ١٩٢
فليستيْقظْ وطني.. ١٩٢
دمعــةُ الأبديّةِ.. ١٩٣
أمامَ بابِ كوخي.. ١٩٣

غدَوْتُ أُدرِكُ ١٩٤
رفيــقُ الـدربِ.. ١٩٤
إصــرارٌ... .... ١٩٥
أهدَيتَني سـيفًا ١٩٦
حسرتي المُقيمَةُ.. ١٩٧
تجــرُّدٌ ١٩٨
رجــاءٌ ١٩٨
ارتحـــالٌ ١٩٩
غيَّــرَني الفــرحُ ١٩٩
مـدَّ يـدَكَ.. ٢٠٠
كنتَ في قرارةِ نفسي.. ٢٠٠
كلَّفتَنـي.. ٢٠١
ما زال حُبُّـكَ ينتظر حُبّي ٢٠١
فخــورٌ بخدمتِكَ ٢٠٢
وجـهًا إلى وجـهٍ ٢٠٣
سينبَلجُ الصبحُ.. ٢٠٣
ولكــن... .... ٢٠٤
صــورةُ مليـكي ٢٠٤
أعطِنـي، يا الله ٢٠٥
معجــزةُ حبِّــكَ ٢٠٥
من نفسي أطلقْ نشيدَكَ؟.. ٢٠٦
تحــوُّلٌ ٢٠٧
ثمينةٌ حياتي بين يَديْكَ ٢٠٧
ردٌّ ٢٠٨

عقـد دمـوعٍ... ٢٠٩
عطـاءُ اللهِ ٢١٠
أُسكُبْ موسيقاكَ على أَوتار حياتي ٢١١
انتظـرتُ، صـامتًا.. ٢١١
في مساءِ حياتي ٢١٢
بسـاطةٌ ٢١٢
المرأَةُ التي تجسَّدَ فيها الأَبديُّ.......................... ٢١٣
من خـلالي ٢١٣
الرحمـةُ الإِلهيّـةُ.. ٢١٤
لا نـهـاية للوقت بين يديك............................... ٢١٥
العـالَمُ لـكَ ٢١٦
استَرْجِعْ، يا ربُّ، هذه القِلادةَ.............................. ٢١٦
حـوارٌ ٢١٧
ذويـان ٢١٨
وعَدْتَني ٢١٨
معطف دمـوعٍ... ٢١٩
سـألوني عنـك ٢١٩
حيثُ أوجدتَني.. ٢٢٠
تحيَّـتي الأخيـرة.. ٢٢٠
قصـرُك الرحب.. ٢٢١
رحلـتي ٢٢١
ما أحلى لقيـاك!... ٢٢٢
مَنْ سـواكَ؟.. ٢٢٣
على دروب المنبوذين..................................... ٢٢٤

بُرعـمُ حبّـي ٢٢٥
في رقّة الصباح.. ٢٢٦

أناشيد "كبير" ٢٢٧
من هو "كبير"؟.. ٢٢٨

الجُزْءُ الثّاني

خواطرُ وحكمٌ.. ٢٤٧

من كتاب SÂDHANÂ.. ٢٥١
الفرد والكون ٢٥١
الوجدان والنفس ٢٥٣
مشكلة الشرّ ٢٥٧
إشكاليّة الأنا.. ٢٦١
تحقيق الذات في الحبّ.. ٢٦٣
تحقيق الذات بالعمل ٢٦٨
تحقيق الذات بالجمال ٢٧٠
تحقيق الذات في اللانهائيّ.. ٢٧١
حصاد خواطر ٢٧٥

مقتطفاتٌ من كتاب "مسكن السلام" ٢٨١
توطئة ٢٨٢
استيقـاظٌ.. ٢٨٣
يقظةٌ وتساؤلٌ.. ٢٨٤
غيـابٌ ٢٨٦

تجـرّدٌ ٢٨٨
الحـبّ.. ٢٩٠
صعوبات الوجـود ٢٩٢
تنـاغم الأضـداد ٢٩٣
غـايـة الصـلاة ٢٩٦
الرؤيـة ٢٩٨
النـار الإلـهيّـة ٣٠٠
فرديّـةٌ ووحـدةٌ ٣٠٢
غداة العيد: فرحٌ عابرٌ، وفرحٌ مقيمٌ ٣٠٤
شرط المهرجـان.. ٣٠٦
عطش التملّك.. ٣٠٨
أوقيانُس الحيـاة ٣١٠
حضـور الله.. ٣١٢
مقوِّمات الحضارة الحقّة.. ٣١٤
تأمّـل الصباح ٣١٦
فـرادة الإنسان.. ٣١٨
حـقّ الحبّ ٣٢٠
تمييـزٌ.. ٣٢٢
الإرادة والقـرار الحـرّ ٣٢٣
المـادّة والروح.. ٣٢٤
الطبيـعة البشريّة.. ٣٢٦
الصـلاة.. ٣٢٩
جمـال الكـون ٣٣٠
الحرّيـة في الحبّ ٣٣٢

فرح الجهـد.. ٣٣٤
ثمـن الحقيقة ٣٣٧

يراعات ٣٣٩

من وحي الخليقة.. ٣٤١
في رحـاب النفس ٣٥١
توثّبـاتٌ روحيّـةٌ ٣٦٠

الفهرس ٣٦٧